## لماذا نكتب؟!

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

من أهم الأسباب التي أدت إلى تخلف حاضر الفكر الإسلامي والعربي؛ ترسيخ فكرة أننا مُفرطون في إصدار الكُتب، وأن تأليف الكُتب عملية مُعقدة جدًّا لا يجب الإقدام عليها، وقد كان لهذا أثر مهم في إضعاف القراءة، فالدراسات والإحصائيات تُثبت أن أفضل أنواع القراءة هي: [القراءة لأجل الكتابة]؛ لأنها تعتمد على التكرار والمداومة والتمحيص، وما الكتابة إلا تتويج للقراءة، فإذا ضعُفت الكتابة أُصيبت القراءة في مقتل.

فالدراسات الغربية تُثبت أن القُرّاء ثلاثة أنواع:

(١) ٧٠ % منهم يقرؤون للتسلية، وهذه أدنى أنواع القراءة.

(٢) المرتبة التي تليها مرتبة القرّاء الذين يبحثون عن المعرفة لأغراض شخصية كتحسين مهاراتهم، أو الارتقاء بمستوى الفهم

والفكر، أو لاستخدام هذه المعارف في نقاشاتهم وحواراتهم.

**(٣)** والمرتبة التي تلي ذلك وهي أندر أنواع القُراء، وهم الكُتاب الذين يُمعنون فيما يقرؤون، ويخضعون الأفكار المقروءة للتحليل والبحث والدراسة؛ لإعادة طرحها على الناس بفهم مختلف أو معالجة مختلفة، وهؤلاء يُضيفون لأنفسهم ويُضيفون للأُمة، وهم أفضل أنواع القُراء بلا نزاع.

ولعل أهم فضائل الكتابة من المنظور الأممي الحضاري أن ديننا كله نُقل إلينا كتابةً من كل جهات العلم، ابتداءً بتدوين القرآن الكريم وحفظه في المصاحف، ثم تدوين السُّنَّة المطهرة وحفظها في الدواوين، ثم تدوين الفقه والعلوم الشرعية بكافة تخصصاتها وفنونها وفروعها، وما بقيت المذاهب الأربعة إلا لحملها إلينا في الكُتب، وإلا فإن المذاهب الفقية كثيرة لكنها اندرست بضياع كتب أصحابها أو فقدها . .

فلولا التدوين لاندرست سِمات هذا الدين، وضاعت معالمه، لأن أصحاب الصدور يفنون، وأما ما دونوه في السطور فلا يفنى . .

ويكفي في فضل الكتابة[1] أن ديننا حث على تعلمها

---

(١) ومما ينبغي ذكره أنه ليس بالتدوين فقط حُفِظ العلم وقامت به الحجة، =

وتعليمها، فرفع من شأن الكتبة من أصحاب النبي ﷺ وشرَّفهم بكتابة القرآن الكريم وتدوين سنته ﷺ، وجعل ﷺ فداء أسرى بدر لمن لم يستطع فداء نفسه بالمال أن يُعلم صبيان الأنصار الكتابة، وأذن للنساء بتعلمها وتعليمها.

وإليها احتكم النبي ﷺ عندما تحاكم اليهود إليه في زانيين فغيروا حكم الله، فأمرهم أن يأتوا بالتوراة فكان حكم الرجم ثابتًا فيها، وبها أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يُحاجج من اتخذ الأصنام آلهة فقال: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [**الأحقاف: ٤**].

وجعل الشرع الكتابة سببًا في إثبات الحقوق، فأمر بكتابة الدين وألا يُسأم من كتابته صغُر أم كبُر حفظًا له، وجعل الله تعالى كتابة الشهادة فيما يتعاطاه الناس من الحقوق بينهم عونًا عند الجحود، وجعل عدمها عند التنازع من قرائن بطلان العهود.

وقد كان السلف أعظم اهتمامًا بالقراءة، لأنهم كانوا -مع قلة

---

= فإنه لا قيمة للعلم المكتوب إلا بأن تكون كتابته جيدة، وهي لا تكون جيدة إلا إذا كان كتبته عدولًا ضابطين.

أعدادهم وضعف إمكانياتهم المادية عما نحن عليه الآن- أكثر انتاجًا للكُتب، فحينما كانوا في أوج حضارتهم كان لديهم مئات الآلاف من الكُتاب وملايين الكُتب في شتى العلوم، وكانت بلاد المسلمين عامرة بالمكتبات الزاخرة بالكُتب، والخطوة الأولى التي نقلت أوروبا من حال التخلف إلى النهضة كانت نقل كُتب المسلمين وترجمتها.

وقد كان الأئمة يحثون على التصنيف والإكثار منه، من ذلك قول الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله صاحب التاريخ الكبير (تاريخ بغداد) وغيره من الكُتب القيمة النافعة: (ينبغي أن يُفرغ المصنف للتصنيف قلبه ويجمع له همه ويصرف إليه شغله ويقطع به وقته)، وقال محمد بن علي الصري رحمه الله: (رأيت أبا محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ في المنام فقال لي: يا أبا عبد الله خرج وصنف قبل أن يُحال بينك وبينه، هذا أنا تراني قد حيل بيني وبين ذلك، ثم انتبهت)[١].

ولذلك فقد أكثروا من التصنيف في كل علم وكل فن، فعلى

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٤٢٨).

سبيل المثال: الإمام ابن الجوزي رحمه الله أحصوا له أكثر من ثلاثمائة كتاب، وللإمام السيوطي أكثر من خمسمائة كتاب، والإمام الذهبي له أكثر من مائتي كتاب، وغيرهم كثير يطول ذكرهم . .

الكتابة ببساطة تُعبر عن الكاتب كإنسان، فالقلم ما هو إلا لسان الضمير، هو الصوتُ الجريء لكل من يخجل أو ليس لديه قدرة على التعبير، فالذي يكتب أَلم إنما يُعبر عن معاناته، والذي يبث الأمل إنما يُعبر عن تفائله، والذي يُجسد السرور في كلمات إنما يُعبر عن سعادة تملأه، وكل كلمة لن تبلغ قلب قارئ إلا إذا خرجت من نفس صادقة متناسقة مع ما عبرت عنه.

وهي تُساعد على التحرك بسهولة بين الحقائق والاستدلالات ودقائق الأمور والآراء والمواقف المُعقدة دون أن تقع في متاهة الخلط بينها، لأن الكاتب يضطر إلى كثرة المُطالعة والمراجعة، والبحث عن الأدلة وإمعان النظر فيها، وفي دلالات الأحداث، فتتكون لدى الكاتب صورة واضحة وقوية عن المسائل والأحداث يستطيع أن ينقلها للمحيطين به ولقُرائه بثقة وثبات، يقول الإمام النووي رحمه الله: (وينبغي أن يعتنى بالتصنيف إذا تأهل له، فبه يَطلع على حقائق العلم ودقائقه، ويَثبت معه، لأنه يضطره إلى كثرة

التفتيش، والمطالعة، والتحقيق، والمراجعة، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المُحقق بصفة المجتهد)[١].

فالكتابة الناجحة من هذا المنظور ليست بالأمر الذي يُستهان بأثره، إنها معركة بين الكاتب وعقل القارئ يحرص فيها الأول على فرض رأيه على الأخير، إنها ممارسة عقلية عنيفة توجب على القارئ أن يستمع إلى الكاتب، أن ينظر إليه، أن يُغير قناعاته لأجل قناعات الكاتب، إنها كما تقول الكاتبة الأمريكي جوان ديديون Joan Didion[٢]: (احتلال . . فرض لعقلية الكاتب على أكثر مساحات القارئ خصوصية)، وكان الأديب الإنكليزي جوزيف

---

(١) المجموع شرح المهذب (١/ ٢٩: ٣٠).

(٢) روائية وصحفية وشاعرة أمريكية، ولدت عام ١٩٣٤م، عُرفت باهتمامها بقضايا تفكك الأخلاق الأمريكية والفوضى الثقافية، حازت على العديد من الجوائز وعلى الدكتوراة الفخرية في الأدب من جامعة هارفارد وأخرى من جامعية يال.

http://en.wikipedia.org/wiki/Joan_Didion

كونراد Joseph Conrad[1] يقول: (أيّها القارئ؛ مهمتي هي أن أجعلك تسمع، أن أجعلك تشعر، والأهم من ذلك كله أن أجعلك ترى، هذا كل ما في الأمر وأهم ما فيه).

ومع مرور الوقت تُساعد الكتابة الكاتب على تكوين خط فكري مُحدد غير عشوائي، حتى تصنع منه مُفكرًا أو عالِمًا، فلا يُمكن أن يوجد ما يُسمى بمُفكر دون أن يكون له إنتاج فكري، وكذلك لا يتصور أن يوجد ما يُسمى بعَالِم دون أن يُنقل إلينا علمه، ولذلك قالوا قديمًا: (الكتابة تُبقي الذكر وتُبقي الدين) أي تُبقي الذكر الحسن للإنسان بين الناس، وتُبقي العلم محفوظًا في الكُتب، قال هلال بن العلاء رحمه الله: (يُستدلُّ على عقل الرجل بعدَ موته بشعر قاله، وكتاب أنشأه)[2]، وفي ألمانيا حكمة قديمة تقول:

(١) أديب إنكليزي بولندي الأصل ولد في أوكرانيا البولندية عام ١٨٥٧م لوالد أديب مغمور انتقل معه إلى بولندا حيث توفي والده، ومنها انتقل إلى فرنسا عام ١٨٧٤م حيث عمل بالملاحة ثم انتقل إلى إنكلترا واستمر في عمله بالملاحة، وتوفي عام ١٩٢٤م بنوبة قلبية، ترك عدة روايات وقصص قصيرة أغلبها متعلقة بالبحر.

http://en.wikipedia.org/wiki/Joseph_Conrad

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٤٢٩).

(Wer schreibt der bleibt) أي (من يكتب يبقى) . .

والكتابة تُعزز القدرات الفكرية على طرح الأسئلة الجديرة بالبحث والاهتمام لدى ذات الكاتب أولًا ثم قُرائه ثانيًا.

وهي تُعزز صقل الأفكار، مما يجعل الكاتب أكثر دقة، ويضبط ردود أفعاله تجاه نفسه وتجاه الآخرين، ويُنمي قدراته على إقناع الآخرين، يقول الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون Francis Bacon[(١)]: (القراءة تصنع إنسانًا كاملًا، والكتابة تصنع إنسانًا دقيقًا)، وفي الغرب يقولون: (الكتابة مرآة حُجتك) حيث تعكس أفكار الكاتب وأوجه حُجته، ولذا فالدراسة عندهم تعتمد على القدرة على التعبير، فترتبط في الغالب الأعم بشرح المفاهيم وتلخيص الكُتب وتحرير المقالات واختصارها وتقيمها.

---

(١) فيلسوف إنكليزي ولد في مدينة لندن عام ١٥٦١م، والتحق بجامعة كامبريدج ثم رحل إلى فرنسا واشتغل مدة في السفارة الإنكليزية بباريس، ثم ما لبث أن عاد إلى وطنه وعمل كمستشار للملكة إليزابيث، عُرف في الغرب بقيادته للثورة العلمية من خلال فلسفة الملاحظة والتجريب، ومن أوائل الفلاسفة الغربيين الذين انتقدوا المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس، توفي عام ١٦٢٦م.

http://en.wikipedia.org/wiki/Francis_Bacon

وقد أثبتت التجارب أن الكُتاب هم أكثر الناس تجنبًا للمجادلة الفاشلة الغير مُثمرة المُضيعة للوقت والجهد.

ومن أهم فوائد الكتابة للفرد هي أنها وسيلة جيِّدة لتخفيف التوتر والقلق والمخاوف، حيث يُفرغ الكاتب ما بداخله على الورق ويُشارك الآخرين همومه واهتماماته.

يقول الإمام الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) تحت باب (البيان والتعريف لفضل الجمع والتصنيف): (فإن ذلك الفعل مما يُقوي النفس، وَيُثَبِّتُ الحفظ، وَيُذَكّي القلب، وَيَشحَذُ الطبع، وَيَبسُطُ اللسان، وَيُجِيدُ البيان، وَيَكشِفُ المُشتَبِه، ويُوضح المُلتَبِس، وَيُكسَبُ أيضًا جميل الذِّكرِ وَتَخلِيدَهُ إلى آخِرِ الدَّهر)[١].

وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة أن الكتابة تُساعد في تحسين صحتنا النفسية والجسدية وتعزز نظام المناعة لدينا، حيث تعطينا مساحة عملية للتوجيه والإفراج عن المشاعر السلبية . .

ومن ذلك فقد أوجدوا طريقة علاج كاملة عن طريق الكتابة

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٤٢٢).

أطلقوا عليها (الكتابة التعبيرية Expressive Writing) حيث يُطلب من المُعالجين أن يعبروا عن مشاعرهم ويكتبوا عن الأحداث التي تأزمهم لمدد معينة في أوقات متفاوتة، لاسيما للناجين من الصدمات والأمراض النفسية.

في بحث بعنوان (الفوائد العاطفية والجسدية للكتابة التعبيرية Emotional and physical health benefits of expressive writing)[1] للكاتبتين كارين بايكي Karen Baikie وكاي فيلهلم Kay Wilhelm خلُصت الكاتبتان إلى أن الكتابة وسيلة جيِّدة لتخفيف التوتر والقلق، وتعزيز نظام المناعة على المستوى النفسي والجسدي.

ومن أبرز [الفوائد الصحية والنفسية] التي كشفت عنها الدراسات الطبية التي أشار إليها البحث المتقدم (وهي أكثر من ثلاثين دراسة منذ عام ١٩٨٥ م):

تخفيف حدة التوتر، تحسين أداء الجهاز المناعي، انخفاض ضغط الدم، تحسين وظائف الرئة خاصة للذين يعانون من الربو،

(١) http://apt.rcpsych.org/content/11/5/338.full

تحسين وظائف الكبد، تحسين المزاج، خفض أعراض الاكتئاب قبل الامتحانات، تجنب أعراض ما بعد الصدمة، تقليل الألم وتقليل الحاجة لاستخدام خدمات الرعاية الصحية وزيارات الأطباء المبالغ فيها . .

ومن أبرز [الفوائد الاجتماعية والسلوكية] التي كشف عنها البحث المشار إليه:

خفض التغيب عن العمل، رفع قدرات الطلبة، تحسين الذاكرة، تحسين الأداء الرياضي، إعادة تأهيل الانطوائيين، تحسين اللغة والأساليب التعبيرية، ضبط السلوك الاجتماعي وتحسينه، تقليل عدد ساعات النوم، تجنب آثار الأزمات العاطفية والاستجابات العاطفية السلبية، علاج إدمان الكحول والمخدرات، تخفيض الميل نحو الانتحار . .

والكتابة تُعلمك مهارة [توقع احتياجات ورغبات الآخرين]، وإتقان هذه المهارة يؤدي إلى مهارة أخرى وهي [المرونة]، مما يساعد على النضوج الفكري واتساع الأُفق كما أثبتت إحدى الدراسات التي أجراها (مركز الدراسات الإنسانية) بجامعة (ميزوري) تحت عنوان (لماذا الكتابة مهمة؟!).

وفي نظري فإن أهم فوائد الكتابة العملية: أنها مع مرور الوقت واكتساب مهارتها، بالإضافة لاكتساب بعض مهارات التواصل الاجتماعي تؤهل الكاتب إلى التفكير الفعال المرتبط بالمساهمة الفاعلة في رُقي الأُمة وتقدمها والنهوض بها.



## التعليم المحظور في بلادنا

**بقلم: محمد إلهامي**

تقول القاعدة التاريخية البسيطة بأن كل تقدم علمي لا ينعكس بالأثر على التقدم العسكري فليس مؤثرًا في مسار التاريخ -التاريخ السياسي على الأقل- فكم استطاعت أمم متخلفة أن تقهر أمما أرقى منها علما وحضارة وثقافة؛ لأنها كانت أضعف منها في المجال العسكري.

هكذا اجتاح المغول -وهم بدو أجلاف- عواصم الحضارة الإسلامية الزاهرة منذ بلاد ما وراء النهر مرورا ببلاد طبرستان وفارس والعراق حتى أوقفهم رجل كان قد استطاع إعداد العدة في أرض الشام. وقبلهم اجتاح النورمان -وهم بدو أوروبا الأجلاف- دولة الإسلام في صقلية واحتلوا أجزاء من الساحل الشمالي الإفريقي أيضا، وبين الحادثتين تقع النكبة الأشهر في تاريخ

المسلمين: نكبة سقوط الأندلس على يد قوم لم يكن لهم ولا عشر معشار ما لدى المسلمين من تفوق علمي.

ولا تزال القاعدة سارية، يفهمها أعداؤنا ويغفل عنها كثير منا، فإسرائيل حريصة على أن تكون «قوتها العسكرية» أكبر من مجموع القوة العسكرية العربية مضافا إليها تركيا وإيران، ويمثل هذا أحد الخطوط الحمر الكبرى في سياستها. وقبل أيام من كتابة هذه السطور -وبالتحديد **١٩/ ٩/ ٢٠١٣**م- كانت آن باترسون (السفيرة الأمريكية في باكستان ثم مصر) في جلسة استماع بالكونجرس، فكان من ضمن ما قالت: لقد نتجت عواقب استراتيجية كارثية حين أوقفنا الدعم عن الجيش الباكستاني **١٢** عامًا؛ إذ يوجد الآن جيل من العسكريين لا اتصال لهم بالجيش الأمريكي لأنهم لم يدرسوا هنا ولم يتعرضوا لقِيَمنا، ولهذا فيجب أن نحافظ على علاقتنا بالجيش المصري.

هذه الكلمات تدلل على أشياء كثيرة، منها -في سياقنا هذا- أن القوم يريدون إبقاءنا «تحت المراقبة الكاملة»، كي لا نفلت من أيديهم، وإذا أفلتنا لأي سبب سياسي أو وضع متغير فينبغي أن نكون قد تعرضنا لقِيَمهم وأخلاقهم كي نواصل المسير على دربهم

وإن فارقناهم في بعض التفاصيل.

ماذا يعني هذا؟

يعني أننا نواجه مشكلتين في لحظة واحدة؛ الأولى: مشكلة التخلف العلمي، والثانية: ضرورة انعتاقنا من الأسر الحضاري لأعدائنا.

غير أن المهم، وهذا هو هدف المقال، أن كلا المشكلتين لا يمكن حلهما بالتدرج أو التتابع، بل لابد من مواجهتهما معا، وإلا ذهبت كل المجهودات أدراج الرياح.

**المشكلة الحضارية: فلسفة العلوم**

تأسست الحضارة الغربية على الفكرة المادية، واستبعدت وجود إله، فمن لم يستبعد وجود الإله جعله كإله أرسطو «كصانع الساعة، أودع فيها قوانين الحركة ثم تركها فلا يدبر أمرها»، ومن هذه الفكرة المادية نشأت «فلسفة العلوم الغربية».

مثلا: يتأسس «علم الاقتصاد» على قواعد منها أن «الموارد تنضب»، وأن «البشر أكثر مما تحتمله الموارد»، ومن ثم يكون مفهوما أن يقول مالثوس -وهو مؤرخ واقتصادي وقس وصاحب

نظرية التكاثر السكاني- بأن الحروب والنزاعات إنما هي حلول تعيد الطبيعة بها تنظيم نفسها ومواردها، وأن الجوع والمرض والموت إنما هي «موانع إيجابية» في مقابل «الموانع السلبية» كتأخير الزواج والشذوذ، وهكذا أعطى مبررا قويا للحروب وعمليات الإبادة، فهي -بهذا- «قدر محتوم» و«قانون تنظم الطبيعة به نفسها»، واقترح مالثوس أن أجرة العامل ينبغي ألا تتجاوز الحد اللازم لعيش الكفاف حتى لا يتكاثر كما يحلو له، واقترح أنه لا داعي لزيادة الإنفاق على العاطلين كيلا يؤدي هذا إلى الكسل وتضاعف عدد الأسرة فتتضاعف الأفواه، وطالب بوقف إعانات الفقراء ووضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد.

وكانت مثل هذه الاقتراحات مبررات ذهبية للبرلمان البريطاني -حينئذ- ليبرر تخفيض إعانات الفقراء وإعانات البطالة وإعانات المرضى والمحتاجين، ولأصحاب المصانع للحفاظ على حد أدنى للأجور، لقد تلقوا آراء مالثوس -كما يقول ول ديورانت- «كوحي إلهي مقدس»[1].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤٢/ ٢٥١-٢٥٣، ٤٢/ ٣٨١ - =

بينما الأساس الإسلامي لعلم الاقتصاد قائم على أن الله هو الرزاق، وأن كل دابة في الأرض إنما على الله رزقها، وأنه ما يظهر من فساد في الموارد فإنه بما صنعت أيدي البشر، وأن السموات والأرض مكنوزة بالثروات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولا يتصور المسلم أن الله العليم الخبير الحكيم يخلق خلقا ولا يجعل لهم رزقا.

وقس مثل هذا على سائر علوم الاجتماع والإنسانيات، بل على سائر العلوم -بما فيها العلوم البحتة- إذ أن العقول التي تعمل في حقل العلم تؤثر على اتجاهه وتطبيقاته، فثمة عقل لا يرى في الطبيعة إلا «ملكية خاصة» تمثل «مخزنا لثرواتنا ومستودعا لنفاياتنا»[(١)]، وثمة عقل يؤمن بأنه «مُستَخلف فيها» بحيث لا يعمل فيها إلا بأمر الله ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وبنهيه ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

---

= ٣٨٩، رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها ص١١٢، جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص٢٧.

(١) جارودي: وعود الإسلام ص٢٠.

## المشكلة الثانية: ردم الفجوة العلمية بفاعلية

ونقول «بفاعلية» لأن العلم قد ينصرف إلى ما ليس يفيد الأمة، وها هي ألمانيا واليابان يحققان أقصى التقدم العلمي والازدهار الاقتصادي لكنهما بلا أي ثقل في الميزان السياسي، لأنهما بلا جيش، وكما ذكرنا قبل سطور: فكل تقدم علمي لا ينعكس على التقدم العسكري فليس بمؤثر وليس يحمي الأمة من الاجتياح والسقوط، وذكرنا أشهر الأمثلة.

وعلى غير ما قد يظن الناس أن ردم الفجوة العلمية هذا يحتاج وقتا من الهدوء والاستقرار، يخبرنا التاريخ بأن هذا الردم لم تقم به الأمة إلا في لحظات المقاومة والمواجهة، أو بعبارة الراحل الكبير جلال كشك «تجربة التاريخ كله لا تثبت حالة واحدة استحال فيها على شعب متخلف اكتساب التكنولوجيا والتفوق فيها . . شرط أن يختار القتال»[١].

لقد اندهش الفرنسيون من مقاومة الأهالي المصريين، الذين استطاعوا إنشاء معمل للبارود، واستطاعوا إعادة تصنيع واستعمال

---

(١) جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص٣٠٥.

ما بقي من المدافع التالفة، واستعلموا الأدوات البدائية من حجر وأخشاب ومثاقيل الموازين وما ضُرِب عليهم من قنابل الفرنسيين ليعيدوا صناعتها كقنابل تُطْلَق من المدافع، وكان أبطال المشهد هم أصحاب الحرف من السباكين والنجارين والحدادين والعربجية، حتى ليقول ضابط فرنسي «لقينا مقاومة لا قبل لنا بشراستها وتنظيمها من قبل».

ويشهد أحد مهندسي الحملة بأن ما فعله سكان القاهرة «لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل، فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصُنّاع، وفعلوا ما يصعب تصديقه -ومن رأى ليس كمن سمع- ذلك أنهم صنعوا المدافع»، بل يشهد كليبر-قائد الحملة الفرنسية آنذاك- بأنه لم يكن يتصور الوضع على هذه الدرجة من الخطورة[(١)].

أما التوهم بأن نقل العلم قد يتم -بين الأعداء- بالرضا في لحظات الهدوء والصفاء فذلك يدل على سذاجة وجهل، فذلك

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٣٢٦ وما بعدها، جوزيف ماري مواريه: مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر ص١٥٥ وما بعدها، الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم ٢/١٧٣.

مينو -القائد الثالث للحملة الفرنسية- حين فكر في إقامة مصنع للجوخ في مصر لسد حاجة الجيش إليه في ظل الحصار البحري المفروض عليهم جاءته التقارير توصيه بألا يعمل في المصنع مصري، ذلك «أن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية»، وقد كان!

وهذا الأمر مضطرد عبر التاريخ، قديما وحديثا، وانظر إلى الحركات التي هادنت المستعمر هل استطاعت أن تكسب من علمه شيئا، بينما انظر إلى الحركات التي قاومته إلى أين وصلت وكيف أوجعته؟

لقد ظلت إسرائيل نحو عشر سنوات تحاول مقاومة صواريخ فصائل المقاومة وهي حتى الآن لم تنجح نجاحًا كاملًا، برغم الفارق الرهيب بين الطرفين في كل شيء، بينما لم ينجح من هادنوها في أي شيء، وحين وقف وزير الحرب الإسرائيلي يبرر عجزه قائلًا «إن أجهزة رصد الصواريخ التي لدينا عاجزة عن التقاط هذا النوع لأنه أقل تطورًا من أن ترصده» فردّ عليه أحد أعضاء الكنيست بعبارة ساخرة ولكنها حقيقة جدًّا «إذن فلنصدر لهم صواريخ متطورة لكي نستطيع صدّها»!!

ما لم يدرك نظام التعليم هاتين المشكلتين: كيف ننظر إلى العلم، وكيف نطبقه بفاعلية .. فإنه سيظل دائرا في الفراغ، أو بالأحرى: دائرا تحت رقابة الأعداء.



## الذوّابون

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

من المعارف الضرورية لكل مسلم أن يدرك كون كراهية التنظيم مُطلقًا ما دام خارجًا عن سيطرة الدولة: هو من المُشتركات بين الدولة الإسلامية والدولة العلمانية الحديثة!

مع ذلك فهو لكل مسلم مُحرَّمٌ في الأولى .. واجب على الكفاية في الثانية!

أما وجه التحريم في الأولى فلكون أي تنظيم خارج طاعة الإمام العادل المُبايَع والقائد للدولة: مذموم بنصوص الحديث النبوي المذكورة عن مُفارِق الجماعة، وخالِع يد الطاعة ..

وهو يصطدم مباشرةً مع نصوص القرآن الصريحة في ذم التفّرُّق، والآمرة بوجوب لزوم الجماعة والنظام مع الأمير حتى لو ظهر منه نوع جور مُقيَّد لا تأويل له -وليس جورًا مطلقًا وعامًّا مما

لا يُذمُّ الخارج عليه أو على الأقل مُختلفٌ في صحته.

وقد تصل عقوبة من يحاول تفرقة جمع المسلمين بعدما توحدت كلمتهم على أمر -لهوى نفسٍ أو صراع حزبي أو ما شابه- هي القتل لصانع تلك الفتنة (فتنة تفرقة اجتماع كلمة المسلمين)!

وهي عقوبة ضخمة -لكنها تبيِّن الأهمية البالغة لتوحيد الكلمة وتجميع الأمة .. وهو حادث أثبت التاريخ أنه ليس من المتيسر حدوثه -فإن حصل فلابد من العض عليه بالنواجذ ..

في المقابل ما سبب وجوب التنظيم في الدولة الحديثة؟

لأن الدولة الحديثة المعادية للإسلام تُحِلُّ العلمانية بكل رموزها (القومية والوطنية والعرقية) محلَّ دين الإسلام (صاحب التعريفات المختلفة للروابط والعداوات، والمنفكة عن نطاق الهوية القومية والعرقية) ..

وهذا سببٌ كافٍ لسعي الدولة الحديثة في ضرب التنظيمات الخارجة عن نطاق طاعتها المُطلقة، سواء كان هذا الضرب:

١) مباشرًا: بالقمع الأمني/العسكري المباشر أو بالقمع الشعبي (التهييج الإعلامي). أو

**٢)** غير مباشر: بالاختراق .. المباشر منه (تجنيد الرؤوس) أو غير المباشر (تدجين الرؤوس) ..

الدولة الحديثة بطبيعتها تراقب التنظيمات في قلق ودأب .. فحتى التنظيمات المُساعِدة والمُكوِّنة لكيان النظام قد تنقلب عليه في لحظة ما إن كانت ذات استقلال محدود، كما جرى من كوميونات الفلاحين في الثورة الروسية الكبرى (١٩١٧) .. فتعوُّد المواطنين على الانتظام والطاعة في جهة ما تحمل بعض استقلال عن كيان الدولة جعلهم وقت الهياج الثوري يستقلّون بهذه الكيانات التي كانت تنقصها الأيديولوجيا[١] والتي ما إن اصطبغت بها أو انجرفت في دعم كينات أخرى مؤدلجة، حتى ضربت النظام وساهمت في إسقاط الدولة ..

في الحالة المصرية يمكن اعتبار ذلك مُدخلًا معقولًا لتفسير الكثير من الحوادث الحزبية التاريخية والمعاصرة .. سببًا لفهم ترك النظام لبعض المفكرين الثائرين للعمل ما داموا في حالة ابتعاد عن صناعة تنظيم خارج عن الطاعة وساعٍ لهدم كيان النظام والدولة كلها:

---

(١) A History of the Soviet Union. Peter Kenez, P: 11

المُفكِّر المُنعزل أو غير المتحرك تنظيميًا لا يؤذيها فعلًا في شيء مباشر -ما دام فكره لا ينتج كيانًا سرطانيًا في جسدها أو يساعد في تزويد كيان آخر بالفكر اللازم لنقض بنيانها .. والأساتذة جلال كشك ومحمود شاكر مثالًا .. وقس على هذا كثير من الشيوخ السلفيين الإصلاحيين ..

أما المُفكِّر الذي يكوِّن هو بنفسه تنظيمًا عاملًا -فتضربه بقسوة وتعاديه بشدة بحسب خطورة الفكر وسرية التنظيم المتكون وحجمه: الأساتذة البنا وقطب أوضح الأمثلة .. ومنهم مُفكري السلفية الجهادية المتحركة في الوقت الحاضر ..

أكثر من هذا: في وقت الهدوء والاستقرار قد تفتح الدولة مجالًا محدودًا لمُفكِّر تنظيري غير متحرِّك كي يعارضها -بفكره- فتستغل هذا لأسباب كثيرة منها ادعاء إعطاء الحرية للفكر المعارض!

مع التأكيد طبعًا أنه في أوقات الثورات والهياج وكون الدولة مشدودة الأعصاب لا تفهم المزاح: تضع كل من لا يُسبِّح بحمدها في سلة الأعداء الواجب الخلاص منهم!

على هذا فالدولة الحديثة أكثر فهمًا لطبيعتها ولخطورة عدوها

المنظم من أولئك المنادين بتفكيك كل تنظيم يعاديها ويحارب من أجل الخلاص منها!

الحُجج العقلية لأولئك التفكيكيين الذوَّابين براقة في وقت الضغط والهزيمة .. وأقول دائمًا أن كل شيء يمكن تمريره بالتحسين العقلي!

فالتفكيك هو الحل الأنسب: فلتترك كل شيء ولتعِش وحيدًا كي تقرأ وتفكِّر وتتعلم في مكتبتك/مسجدك، بعيدًا عن التهديد الأمني/العسكري، ونائيًا عن متاعب ومشاغل التنظيمات المُقاومة! ما أمتع ذلك وأيسره!

مع ذلك فالذوَّابين يساعدون الدولة الفاجرة من جهة أخرى، وقالوا: إنما نحن مصلحون!

فهم يظنون أن تفكيك كل تنظيم عامل هو الحل وهو ما سيجعل النظام العالمي والطواغيت يسقطون!

كل أعدائك يقدسون التنظيم لأبعد مدى -والمطلوب منك أن تحارب بنفسك أي تنظيم لصفوفك!

ثم لا يتشككون في نظريتهم هذه عندما يجدون الدولة والأنظمة لا تمسُّ الانعزالي أو التذويبي بأذًى، مهما زادت عقليته

ومعارفه وعلومه، في مقابل جنونها من أي تنظيم مُقاوِم غير معروف جيدًا بالنسبة لها!

ثم لا يتشككون مرة أخرى عندما يقرؤون التاريخ - فيجدون النظام دائمًا كان هو افتتاح هدم أي دولة بواسطة كيان مقاوِم!

إن الله عندما أمر بتوحيد صفوف المؤمنين للقتال وتنظيمها (صفًا) كان أخبر بعباده من هذا الذوَّاب . . وأي مقاومة تلك التي تنجح إن كانت بلا تنظيم للصفوف؟

ونظم الصفوف في دولة حديثة لا يكون إلا بتنظيم ما . . لقد أمر الرسول بالشكل الهرمي بمجرد توافر عدد أضلاعه: ثلاثة أفراد . . أمر بتنصيب أمير . . وإن كانت العلة من تكوين هذا الشكل الهرمي في السفر هي المخاطر المتوقعة في طريق الصحراء الموحِش بعيدًا عن جماعة المؤمنين وسلطة إمامهم -فكيف لا نجد هذه العلَّة في تلك الأيام الخطيرة؟

إن العلَّة موجودة الآن . . بل تُضاف إليها علل أخرى توجب التنظيم لا محالة، أكثر من غياب الإمام والشريعة: كاستيلاء الكافرين على دول المسلمين ومحاربة أنصار الشريعة . .

فكيف يُطالِبُ الذوَّاب بحل التنظيمات وعداوة الأشكال الهرمية: رأسًا وقاعدةً؟

التطبيقات متعددة . . وإن كان كثير منها سيئ -فلا يعني هذا فساد أصل الفكرة والمبدأ . . وإلا لزمنا أن نُحاسَب -نحن أنفسنا كمسلمين- على كون أغلب الدول المتكونة في تاريخ الإسلام من بعد الخلافة الراشدة كانت استبدادية قاهرة لا تتيح للشعب مجالًا للحديث ولا المشاركة -وكان هذا باسم الدين في أحيان كثيرة! أتَصدُقُ حجج العلمانيين إذن في ربط التطبيق السيئ بالأصول الإسلامية النقيَّة؟!

إن التحجج بفساد التطبيقات التنظيمية لضرب مبادئ وأفكار أصولية اجتمع عليها المسلمون- هو مسلك الطاعنين في هذا الدين أصلًا . . فالعلَّة في إبطال هذه الحجة: كون هذه المبادئ والأفكار وحيًا أصوليًا ثابتًا يُبنى عليه . . أحيانًا يكون البناء معوِّجًا . . وأحيانًا يكون مشيدًا ببراعة . .

ولا بناء بشري بلا عيب . .

وفي المقابل ولهذا السبب تحديدًا لا يمتنع مسلم عن استخدام هذه الحجة نفسها المرفوضة في حقِّ الوحي عندما تكون

خادمة لنقض تنظير بشري مستوحى من بناء/نظام بشري كذلك: كفلسفة الديمقراطية مثلًا . .

فلتهاجِم البناء البشري المعوِّج المشيَّد فوق مبدأ أصولي للمسلمين . . لكن لا تهاجم المبدأ نفسه!

فلتهاجم تنظيم كذا وكذا على أمور تجدها انحرافًا في الفطرة (كصناعة الروبوتات الآلية التنظيمية) -لكن لا تهاجم أصل مبدأ التنظيم العامل ضد الدولة الحديثة نفسه!

ناهيك عمن يهاجم مبدأ تكوُّن أي تنظيم مُطلقًا!

إن التنظيمات العاملة خارج طاعة الدولة الإسلامية مكروهة من قبل الدولة- ومحرمة بالنسبة للمسلمين . .

بينما التنظيمات العاملة خارج طاعة الدولة العلمانية مكروهة من قبل الدولة- وواجبة بالنسبة للمسلمين . .

وإن أي شخص طاعن في كون هذا الوجوب (وجوب كفاية) إما لا يعلم طبيعة الدولة العلمانية ومعاداتها للمبادئ الإسلامية وللشريعة وبالتالي وجوب المقاومة ضدها . . وإما يعلم لكنه يُفضِّل اتباع هواه وتأمين سلامته على إعلاء شأن المبدأ:

مبدأ وجوب مقاومة تسلُّط الدولة الكافرة على المسلمين . .

## فرس .. روم .. ويهود؛ دلائل النبوة

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

المتأمل في صحيح المذكور عن حوادث آخر الزمان لابد أن ينتبه لعدة ملاحظات هامة ومفصلية؛ مثل ذوبان الفرس وبقاء الروم كعرق تاريخي مضاد .. ظهور القوميات الجزئية ومع ذلك اجتماعها على كلي غربي (رومي) .. عودة الصليب إلى الواجهة الهوياتية وانتصاره على المادية الملحدة غربيًا .. المسألة اليهودية وخرافة الفصل بين الصهيونية واليهودية ..

وفي هذا المقال سنوجز شرح هذه الحقائق:

**أولًا: الفرس يذوبون – الروم مستمرون:**

لن يُذكر الفُرس بصفتهم تلك كعرق معادٍ عام دائم .. على عكس الروم الذين سيؤكد رسول الله أنهم سيقاتلون المسلمين وسيصفهم بالروم: عرق عام تاريخي سيظل على عدائه.

لاحظ الفارق وما جرى تاريخيًا بالفعل من ذوبان أمم فارس -وهي ليست إيران فقط- في هوية الإسلام بينما لم يحدث هذا مع أمم الروم عمومًا وظل هناك كيان غربي منذ الإمبراطورية الرومانية، فالرومانية المقدسة، فالتكتلات الإمبراطورية، فالقوميات العلمانية -هذا التكتل رغم ما بينه من مشاكل ظل ينظر لنفسه كهوية كليَّة معادية لتمدد الإسلام والشرق المسلم طوال خمسة عشر قرنًا على التوالي!

فمثلًا عند الإمام أحمد يخبرنا الرسول ﷺ في أحد أحاديث ذكر أشراط الساعة وبداية الملحمة: (تصالحون الروم صلحًا آمنًا، وتغزون أنتم وهم عدوًا من ورائهم، فتسلمون وتغنمون، ثم تنزلون بمرج ذي تلول، فيقوم رجل من الروم، فيرفع الصليب، ويقول: ألا غلب الصليب، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله، فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم، فيجتمعون إليكم، فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف).

ومثله عند مسلم يقول رسول الله: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس).

والشاهد من هذين الحديثين وأمثالهما: أن ذكر الروم لم

ينقطع في أحاديث آخر الزمان، على عكس الفُرس . .

فالناتج الأول من أحاديث النبوة قد جرى: فقد ذابت فارس وظل الروم للنهاية . . في حين أنه في زمان رسول الله كانت الإمبراطوريتان شرستان جدًّا ولا يبدو هناك وضوح لهوية من سيستمر بقوته وشراسته ومن سيذوب أبدًا!

**ثانيًا: القوميات الجزئية (الرايات المتعددة) في إطار الهوية الجامعة (الروم) كعرق تاريخي:**

هل من الواضح أن الإشارة لتعدد رايات الغرب وقت الملحمة يعني أنهم لن يكونوا كيانًا واحدًا بلا تمايزات على أساس غامض: ففي وقت الملحمة -كما ذُكر في الحديث السابق- سينزل الروم (العرق التاريخي الغربي) برايات كثيرة جدًّا في الشام: ثمانين راية . . والراية هي علامة على فصيل\تكتل\قومية جزئية\دولة . .

**ثالثًا: عودة الصليب إلى الواجهة مرة أخرى:**

ظاهر هذا أن الهوية العرقية الغربية سترتد عن الإلحاد العلماني المادي كمقدمة هوياتية يظهرونها إلى الأصول الدينية للصراع بكل صراحة!

فبينما الغرب حاليًا مادية مُلحِدة بخلفية حضارية صليبية لا تُنسى . . لكن مستقبلًا وقت الملاحم ستعود الخلفية الصليبية إلى المقدمة مرة أخرى . .

هذا الأمر شديد الأهمية لأن عموم الناس يتحدثون عن عملية تكوُّن العلمانية في الغرب كأنها صيرورة أحادية الاتجاه لا يمكن ردها على الإطلاق: لقد ذابت الكنيسة وانفصل العلم ومعه السياسة عن الدين -وانتهى الأمر!

لكن من الواضح أنه لن ينتهي هكذا!

فالنصوص النبوية تخبرك يقينًا أن الأمر سيعود كما كان أولًا . . الهوية الصليبية الغربية ستعود مُنتصرة على المادية البراجماتية في مقابلة للهوية المسلمة الشرقية.

**رابعًا: المسألة اليهودية:**

كانت أطروحة د. المسيري عن اليهود تسعى دائمًا في إثبات أن اليهود لم يعد الدين عندهم مركزيًا بل صاروا مكونًا للحضارة المادية ومن هذا فقط جاءت أيديولوجيتهم الصهيونية القاسية . . إثبات فصل الصهيونية عن اليهودية . . ثم لعن الصهيونية ونسبها

لمادية الغرب . . والحياد مع اليهودية كديانة . .

كانت هذه النظرية تصطدم دائمًا بالنصوص الشرعية وآيات القرآن التي تصف تمامًا من يصفهم د. المسيري بالصهاينة، لكن الآيات واضحة في الحديث عن كونهم (يهودًا) وأن هذه صفات كلية ثابتة فيهم كشعب . . مع اختلاف في التنزيل على عين كل فرد . . د. المسيري لم أجده يتعرض صراحة للمسألة من الجهة الشرعية . . لكنه بصورة غير مباشرة كان يحاول إثبات خطأ هذا التفسير الممتد قرآنيًا وفقهيًا عبر اللجوء للمنبع الجدلي الأفضل لإثبات صحة أي فكرة: التاريخ! وظهر هذا عبر موسوعته وأكثر كتبه السردية التاريخية عنهم . .

وهذا اللجوء المستمر للتاريخ حدث برغم أن د.عبد الوهاب المسيري نفسه له تعليق نقدي على كتابة التاريخ من أعظم ما يكون حين قال في كتابه الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان: (معدل التغيُّر في الظواهر الإنسانية أسرع بكثير ويتم على مقياس تاريخي، وما يطرأ عليها من تغير قد يتبع أنماطًا مسبقة ولكنه قد ينسلخ عنها.

وعالِم الدراسات الاجتماعية لا يستطيع أن يرى أو يسمع أو يلمس الظواهر الإنسانية التي وقعت في الماضي. لذا فهو يدرسها

عن طريق تقارير الآخرين الذين يلونون تقاريرهم برؤيتهم . .

فكأن الواقعة الإنسانية في ذاتها تُفقد إلى الأبد فور وقوعها)[١] وهو في هذا يوضِّح بجلاء حقيقة كون التاريخ ليس مصدرًا أكيدًا من مصادر التلقي والاستدلال . . خاصّةً عندما يُخالف نصوصًا قرآنية حددت صفات معينة وثابتة لليهود . .

رأينا آثار ذلك في أن الكثير من أتباع مدرسته ومدرسة فصل الصهيونية عن اليهودية عمومًا قد اضطروا للتغاضي عن التجاهل واصطدموا صراحة بنصوص الصفات ولعن اليهود كعرق تاريخي فحاولوا تطبيق التاريخانية عليها بحصر النصوص المذكورة عن اليهود -بظروفها وسياقها التاريخي المذكورة فيه! فكأن نصوص اليهود يُقصدُ بها فقط يهود ما قبل النبي ومعاصريه- لكنها ليست عامة في كل الزمان! كأن لعن الله اليهود المذكور في القرآن برغم أنه غير مُنكَر إلا أنه لعن مقيَّد بزمان وأقوام غابرين لكنه غير ممتد ولا مُطلق ولا سارٍ أبدًا! اليهود المذكورون في القرآن (بنو إسرائيل/ بنو قينقاع/ بنو قُريظة) وغيرهم أين هم اليوم؟!

---

(١) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان. د. المسيري: ٤٤.

تبدو حجتهم عندما يستخدمون دليل يهود الخزر -معقولة من وجه . . فهم مقطوعي النسب ببني إسرائيل الأقدمين . . لكنها ساقطة بالتأكيد لأن يهود العرب لم يكونوا وقت نزول الآيات جميعًا من أحفاد بني إسرائيل، فكانت اليهودية في بعض القبائل العربية الكبرى مثل حِمير التي ينتسب إليها كعب الأحبار، ومثل كندة وغيرهما[١] -ومع ذلك عمَّتهم الآية ولم يفهم أحد الصحابة أو المفسرين أنهم خارجين عن هذا العموم في لعن أمة اليهود . . هذا يعني أن العرق التاريخي هو المقصود في الآية وليس العرق الإثني (العنصري) . . وبالتالي يدخل في هذا العموم كل يهودي ولو كان من نسل قرشي وتهوَّد . .

وما نريد قوله والتأكيد عليه هنا هو عدم انفصال اليهود المذكورين في القرآن والسنة عن يهود بني إسرائيل ولا عن يهود اليوم؛ لأن المقصود ليس العرق الإثني (نسل بني إسرائيل) إنما المقصود العرق التاريخي . .

وأهم دليل على هذا أن مُقاتلَتهم ذُكرت ضمن علامات قرب

---

(١) المعارف. بن قتيبة الدينوري: ٤٣٠، ٦٢١.

الساعة، فقد جاء في الحديث المتفق عليه قول النبي: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود) . .

لقد ذاب اليهود في الجزيرة العربية وخنس ذكرهم في آخر عهد النبي بعد خيبر ولم يعد لهم شأن عالمي ولا محلي . . ومع ذلك جاءت أحاديث النبي عن قتالهم الأكيد . . ومرت القرون على الأمة والكل يتناقل الأحاديث عن قتالهم بينما اليهود فعليًا خارج التاريخ . . تخيل هذه الأحاديث النبوية إن ذُكرت في زمان كعصر المماليك مثلًا حينما كانت أخطار العالم الضخمة وصراعاته كلها ليس فيها أثر ظاهر لليهود!

مع ذلك كان الحديث ثابتًا حتى جاء الزمان وتحققت أحاديث النبي عنهم وصرنا نقاتلهم وبيننا وبينهم موعد لقتال ضخم ملحمي!

ينقض هذا الدليل النبوي كل نظرية د.المسيري وكل من يحاول فصل يهود الزمن الحالي عن يهود العصور الأخرى المذكورين في القرآن . . فبحسب نظرية الدكتور الخط ليس ممتدًا بين اليهود المتقدمين والمتأخرين . . بينما ناتج استقراء الوحي والواقع يؤكد أن الخط ممتد بالفعل واليهود في البداية كاليهود قرب قيام الساعة من حيث الصفات العامة في عرقهم التاريخي . . طبعًا

مع الانتباه لقاعدة عدم التعيين بإطلاق للاختلاف بين فرد وآخر . . فليس كل عين فرد يهودي فيه كل صفات عرقه التاريخي . . بل الكل يكون باجتماع أفراد العرق عمومًا ولا ينفي هذا إمكان وجود أجزاء من هذا الكل ليس فيها كافة جزئيات صفاتهم الكلية . .

والوصف حين قتالنا معهم في آخر الزمان مطابق لأوصاف القرآن . . سواء سموا أنفسهم صهاينة، أدلجوا أنفسهم بأيدولوجيات مادية أو علمانية، أدخلوا في أعراقهم ونسلهم عشرات القوميات الإثنية العنصرية المغايرة -فهم عند الله يهود مغضوب عليهم وهم أنفسهم أحفاد المتقدمين منهم . . والديانة اليهودية مركزية عندهم في صراعهم . . والنقطة الأخيرة لا حاجة للاستدلال عليها فتنظيرات اليهود الإسرائيليين واضحة جدًا . .

هذه المسألة مفصلية جدًّا في الصراع . . وحاسمها الأحاديث والآثار المروية عن يهود آخر الزمان كامتداد لليهود المعاصرين للنبي ويهود بني إسرائيل الأوائل النواة . .

أخيرًا: بمزيد تأمل لابد أن تقول بصدق رسول الله ﷺ: فلم يكن هناك أمارة على ذوبان الفرس . . ولا على بقاء الروم حتى آخر الزمان ككتلة حضارية عامة مضادة حتى بعدما تتفرق إلى رايات

جزئية .. وهما الإمبراطوريتان العظيمتان في زمان ..

ولم تكن هناك أمارات على صعود اليهود لهذه الدرجة في آخر الزمان حتى يتوقع أن يقاتلهم المسلمون قتال إبادة لدرجة أن الجماد يدل المسلم على اليهودي المختبئ وراءه .. وهم الذين خنِسوا في جزيرة العرب في عهده ولم يكن لهم موضع يمكنهم بناء أنفسهم فيه عالميًا حتى يتوقع النبي صعودهم المذهل لهذه الدرجة في القرون الأخيرة ..

فصدق رسول الله .. وتاهت التحليلات والتنظيرات التي تتجاهل أو تتنطع في تأويل أحاديثه وتفسيراته لتوافق هوى دين الإنسانية المشتركة ..



## التفسير بالرأي

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

الحمد لله الذي شرف أمتنا بخصائص لم يودعها غيرها، وخصها بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم خصها بعلوم لم تكن في الأمم سابقتها . .

وأشرف هذه العلوم وأرفعها قدرًا بلا ريب هو علم التفسير، لسمو محله، وشرف موضوعه، حيث يعني بتأويل كلام الله تعالى الذي هو أحسن الكلم وأصدقه، وبيان مراده ومقصوده، والكشف عن عجائبه وغرائبه، وإبراز حكمه وأحكامه، والبحث في معانيه، وإثبات أنه المعجزة الكبرى في العلم والدين معًا.

ولا يُعرف أن أمةً عنى علماؤها بتفسير كتابهم السماوي وتأويل كلامه كما عني بذلك علماء المسلمين، حتى تعددت عندهم العلوم المتفرعة عن هذا الفن فعُدت بالعشرات، وكثرت

لديهم كتب هذا الفن فعُدت بالمئات، بل هي أكثر من أن تحصى.

إن اهتمام السلف بتفسير كتاب الله تعالى على نحو ما قاموا به وبذلوه من جهد لهو أمر عظيم لم يتحقق لأمة من الأمم السابقة، لكن هذا الاهتمام دفع الجُهال وأصحاب العقائد الفاسدة والذين في قلوبهم مرضٌ إلى أن يتجرءوا على انتحال هذا العلم كل بجهله وهواه، إذ جهلهم وما هم فيه من ضلال استلزم تحريف الآي عن مواضعها، والقرآن كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حمال ذو وجوه)، فعقيدة المعتزلة ألزمتهم تأويل آيات الصفات، وعقيدة الخوارج ألزمتهم تأويل آيات الوعد، وعقيدة المُرجئة ألزمتهم تأويل آيات الوعيد، وعقيدة الروافض والصوفية ألزمتهم تحريف آيات الفضائل، ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا.

ولم يكتف هؤلاء الضالين المنحرفين عن جادة أهل السنة والجماعة بذلك، بل وضعوا الآثار تلو الآثار، وساقوا الأخبار المكذوبة تلو الأخبار، ليؤيدوا مزاعمهم وتأويلهم الفاسد، فأيقظوا الفتنة في المعتقدات، وأعقبوا الشك والوهم في تفسير الآيات، وورثوا اختلاط الحق بالمبطلات، إلى غير ذلك مما كان الله به عليمًا.

وقد شجع هؤلاء الضالين المنحرفين إلى المُضي فيما هم ماضون إليه بشأن تأويل آيات الله على غير وجهها بحسب بدعهم وعقائدهم الضالة ضعف رقابة العلماء المحققين من أهل العناية بالحديث والأثر على هذا الفن وانشغالهم بصيانة الحديث وحياطة السُّنة عنه، ولعل هذا ما دفع الإمام أحمد رحمه الله إلى أن يقول قولته المشهورة: (ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير)[1]، ويُفسر الخطيب البغدادي والحافظ ابن حجر رحمهما الله هذه العبارة بأن المراد بها الكتب المصنفة في هذه العلوم وأنها غير موثوق بها لأنها أودية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ومُنتحلوها في الجملة أقل عدالةً وأخف ضبطًا، فيقول الحافظ البغدادي رحمه الله: (وهذا الكلام محمول على وجه، وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة، غير معتمد عليها، ولا موثوق بصحتها، لسوء أحوال مصنفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القُصاص فيها)[2].

---

(١) رواها الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي رحمه الله بسنده في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٤/ ٢٢٠).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٤/ ٢٢٠).

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (ينبغي أن يضاف إليها الفضائل، فهذه أودية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، إذ كانت العمدة في المغازي على مثل الواقدي، وفي التفسير على مثل مقاتل والكلبي، وفي الملاحم على الإسرائيليات، وأما الفضائل فلا تحصى كم وضع الرافضة في فضل أهل البيت، وعارضهم جهلة أهل السنة بفضائل معاوية بدًا وبفضائل الشيخين، وقد أغناهما الله وأعلى مرتبتهما عنها)[(١)].

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيُفسر هذه العبارة بكثرة المراسيل في هذه العلوم، فيقول: (ليس لها أصل: أي إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل)[(٢)].

---

(١) لسان الميزان (١/ ٢٠٧).

(٢) مقدمة في أصول التفسير (٦٨).

وأما الدكتور مساعد الطيار فيرى أن عبارة الإمام أحمد رحمه الله غامضة مجملة، فيقول في شرح مقدمة شيخ الإسلام في أصول التفسير (١٦٨، ١٦٩) مُعلقًا عليها: (تأتي عن الإمام أحمد بعض العبارات المجملة التي لا يُدرى المراد بها على وجه التحديد؛ لأنها لم تلق تفسيرًا منه، ومن هذه الروايات المجملة هذه الرواية التي اختلفت فيها تخريجات العلماء، وتباينت فيها آراؤهم).

ثم يقول مُعلقًا على تخريج الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله قائلًا: =

وهذه بعض ضوابط التفسير بالرأي الذي يُمكن أن يُفهم به كلام الله تعالى المُنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه واستخراج حِكمه وأحكامه، استقيتها من كتب أئمة التفسير وعلقت عليها بما يُظهر فوائدها ويزيد من فرائدها.

**[القاعدة الأولى]: ألا يكون الرأي مُفسرًا لما لا يعلم تأويله إلا الله تعالى:**

لا يجوز الأخذ بالتفسير بالرأي فيما أخفاه الله ﷻ عن عباده كالغيبيات، يقول الدكتور مساعد بن سليمان الطيار: (ويشتمل على أمرين:

---

= (وهذا التخريج فيه نظر، إذ ليس في عبارة الإمام أحمد ما يدُل عليه، وما تلك التخريجات إلا للغموض والإجمال في تلك العبارة التي قالها الإمام أحمد بن حنبل، ولو عُرف المراد بمصطلح (إسناد) أو مصطلح (أصول) الذي جاءت به الرواية عن الإمام أحمد لحُلَّ المراد بقوله، ولزال الإشكال).

ثم أورد عدة تخريجات لعبارة الإمام أحمد رحمه الله:

أولها: (أن يكون أراد الإسناد المرفوع للنبي ﷺ)، وهو موافق لتخريج شيخ الإسلام رحمه الله سالف الذكر.

ثانيها: (أن يكون مراده بالتفسير أسباب النُّزول خاصةً)، وهذا بعيد وتأويل الخطيب البغدادي والحافظ الذهبي رحمهما الله أقرب منه.

أحدهما: تكييف المغيبات التي استأثر الله بعلمها كتكييف صفاته سبحانه أو غيرها من المغيبات.

ثانيها: تحديد زمن المغيبات التي ورد ذِكرُ خروجها كزمن خروج الدابة، أو نزول عيسى، أو غير ذلك).

فهذه الأمور لا سبيل للمفسر لمعرفتها إلا بالوحي الذي انقطع بوفاة النبي ﷺ.

على أنه إذا ورد شيء من هذا عن أحد الصحابة فإن هذا التفسير يكون مقبولًا؛ لأنه وإن كان إسناد الأثر موقوفًا على الصحابي إلا أنه له حكم الرفع إلى النبي ﷺ لأنه لا سبيل للصحابي لمعرفة هذه الأشياء إلا عن طريق النبي ﷺ، واستثنى العلماء من الصحابة: الذين حدثوا عن أهل الكتب أو من كتبهم كعبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار رضي الله عنهما، فقالوا بأن أحاديثهم موقوفة عليهم ليس لها حكم الرفع إلا فيما أسندوه إلى النبي ﷺ؛ لاحتمال أن تكون مما أخذوه عن أهل الكتاب فهي موقوفة عليهم تحرزًا، وزاد بعضهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لكثرة ما يرويه من كتب أهل الكتب.

وفي التوقف في آثار ابن عباس رضي الله عنهما نظر، إذ أن أكثر الآثار

المروية عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كتب التفسير لا تصح إليه -كما سيأتي بيانه إن شاء الله- وحسبنا في ذلك قول الإمام الشافعي رحمه الله: (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث)[1].

ويُؤيد ذلك ما روي عنه من طريق ابن شهاب الزهري عن عبيد الله عن عبد الله رحمهما الله، قال رضي الله عنه: (يَا مَعشَرَ المُسلِمِينَ كَيفَ تَسأَلُونَ أَهلَ الكِتَابِ؟! وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحدَثُ الأَخبَارِ بِاللهِ، تَقرَءُونَهُ لَم يُشَب، وَقَد حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ وَغَيَّرُوا بِأَيدِيهِمُ الكِتَابَ فَقَالُوا: هُوَ من عِندِ اللهِ لِيَشتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلَا يَنهَاكُم مَا جَاءَكُم من العِلمِ عَن مُسَاءَلَتِهِم، وَلَا وَاللهِ مَا رَأَينَا مِنهُم رَجُلًا قَطُّ يَسأَلُكُم عَنِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيكُم)[2]، ففي هذا دلالة صريحة على تحرزه من الرواية عن أهل الكتاب[3].

---

(١) تهذيب الأسماء (١/ ٣٨٨)، الإتقان (٢/ ٤٩٨)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٧١)، طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ١٩٣).

(٢) صحيح موقوف: البخاري في صحيحه (٢٦٨٥/ الشهادات).

(٣) وقد أجاب الدكتور مساعد الطيار في شرحه لمقدمة شيخ الإسلام رحمه الله =

## [القاعدة الثانية]: ألا يُعارض التفسير نصًّا قرآنيًا أو نصًّا نبويًّا:

لا يجوز للمُفسر أن يخالف نصًّا ثابتًا من القرآن الكريم أو السنة النبوية، والنص النبوي يشمل المُسند المرفوع إلى النبي ﷺ أو الموقوف على الصحابي الذي له حكم الرفع إلى النبي ﷺ، ذلك أن التأويل كما عرفه البغوي رحمه الله وغيره: (صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها، غير مُخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط)[1].

---

= في أصول التفسير (١٥٧: ١٥٨) عن هذا الأثر بعدة احتمالات:

(أولها: أن يكون السائل يريد طلب الاهتداء بما عندهم، أو معرفة شرع الله، أو معرفة بعض العقائد دون غيرها من الأخبار، لأن هذه الأمور لا يجوز أن تؤخذ عن غير المعصوم في خبره، أما الأخبار الأخرى فإنها مما لا يلزم تصديقه ولا تكذيبه ولا يُبنى عليها علم، وليس فيها هدى.

ثانيها: أن يكون رأيًا متأخرًا له.

ثالثها: أنه رأى كثرة الرجوع إليهم، فأراد أن يسد هذا الباب).

وهذا الكلام حسن إذا صيرناه إلى ما ثبتت نسبته بالفعل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فإذا تأكدنا من صحة الأثر وكان مما يروى عن أهل الكتاب أو من كتبهم، كانت هذه التوجيهات دفعًا جيدًا للتعارض بين قول ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم وبين ما رواه من الإسرائيليات إن كان.

(١) معالم التنزيل (١/ ٤٦)، الإتقان (٢/ ٤٧٦).

## [القاعدة الثالثة]: ألا يُخالف الرأي قولًا ثابتًا عن الصحابة:

لا يقبل تفسير التابعين ومن دونهم إذا كان مخالفًا لاتفاقٍ ثابتٍ بين جمع من الصحابة على تأويل آية ما، لأن اتفاقهم على تأويل بعينه قرينة على أنهم إنما تلقوه عن النبي ﷺ.

وأما إذا اختلف[1] الصحابة في تأويل آية، فلنا أن نأخذ بقول

---

(١) وعن أسباب اختلاف الصحابة والتابعين نقل الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله في قواعد التحديث (**٣٢٤**) عن العلامة ولي الله الدهلوي رحمه الله قوله: (رأى كل صحابي ما يسره الله له من عبادته وفتاواه وأقضيته فحفظها وعقلها وعرف لكل شيء وجهًا من قبل حفوف القرائن به، فحمل بعضها على الإباحة وبعضها على النسخ لأمارات وقرائن كانت كافية عنده ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والثلج من غير التفات إلى طرق الاستدلال، كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم وتثلج صدورهم بالتصريح والتلويح والإيماء من حيث لا يشعرون، فانقضي عصره الكريم وهم على ذلك، ثم إنهم تفرقوا في البلاد وصار كل واحد مقتدي ناحية من النواحي فكثرت الوقائع ودارت المسائل فاستفتوا فيها فأجاب كل واحد حسب ما حفظه أو استنبط وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبط ما يصلح للجواب اجتهد برأيه وعرف العلة التي أدار رسول الله عليها الحكم في منصوصاته فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألو جهدًا في موافقة عرضه عليه الصلاة والسلام، فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم ..). =

أيًا منهم إن صح الأثر إليه، واختلف في جواز الخروج عن أقاويلهم، فبعض السلف يُستفاد من عملهم الجواز، إذ يفسرون على خلاف قول الصحابة[1]، وهذا ظاهر مذهب الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

والحق أنه لا يجوز الخروج عن تفسير الصحابة بالكلية إذا ثبتت عنهم، كما ذهب إليه الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (الرسالة) القديمة قد قال بعد ذكر الصحابة والثناء عليهم بما هم أهله: (وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم أو استنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا والله تعالى أعلم، ومن أدركنا ممن أراضي أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا -فيما لم يعلموا لرسول الله فيه سنة- إلى قولهم إن اجتمعوا، وقول بعضهم إن تفرقوا، هكذا نقول إذا اجتمعوا أخذنا

---

= ثم قال: (وبالجملة فاختلفت مذاهب أصحاب النبي وأخذ عنهم التابعون كذلك كل واحد ما تيسر له فحفظ ما سمع من حديث رسول الله ومذاهب الصحابة وعقلها وجمع المختلف على ما تيسر له ورجح بعض الأقوال على بعض، واضمحل في نظرهم بعض الأقوال وإن كان مأثورًا عن كبار الصحابة ..).

(١) وقد يُجاب على ذلك بأنه لم يصل لهم العلم بتفسير الصحابة، وهذا بعيد.

بإجماعهم، وإن قال واحد منهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله، وإن اختلفوا أخذنا بقول بعضهم ولم نخرج من أقاويلهم كلهم)[١].

وكذلك قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له .. وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)[٢].

---

(١) نقله الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إجمال الإصابة (٤٠).

(٢) مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ٧)، لكنه قال بعد ذلك في سياق كلامه على تفسير التابعين (١/ ١٠): (أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنَّة أو عموم لغة =

وقال الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ: (فإن لم نجد في القرآن، ولا في السنة والأحاديث عن النبي ﷺ، رجعنا في ذلك إلى ما صح وثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم أدرى منا بتفسير القرآن الكريم، فقد بين لهم النبي معاني القرآن، وشرح لهم مجمله، وأزال مشكله، وأيضًا هم أعلم بتفسيره منا، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي أحاطت بنزول القرآن الكريم، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، والقلب المستضيء، والعقل الذكي، ولاسيما كبراؤهم، وعلماؤهم كالخلفاء الأربعة الراشدين المهديين، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وأمثالهم)[1].

**[القاعدة الرابعة]: إجماع التابعين حُجة على من بعدهم:**

إذا اتفق التابعين على تأويل بعينه ولم يُعلم لهم مخالف فلا يجوز مخالفتهم، إذ يكون إجماعهم حجة لا يجوز الخروج عليه،

---

= العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك)، وهذا يقتضي أنه يرى عدم جواز الخروج على إجماع الصحابة في التفسير، وجواز الخروج على أقاويلهم إذا اختلفوا مع استحباب الأخذ بأيٍ من أقوالهم.

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٥٦).

وهذا قول الإمام الشافعي رحمه الله ورواية عن الإمام أحمد رحمه الله، وتبعهما الحنابلة والشافعية، وعليه عمل أكثر أهل العلم وإن قالوا بخلافه[1].

---

(١) قال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في إعلام الموقعين (٤/ ١٥٥: ١٥٦): (فإن قيل فبعض ما ذكرتم من الأدلة -أي في حجية تفسير الصحابي- يقتضي أن التابعي إذا قال قولًا ولم يخالفه صحابي ولا تابعي أن يكون قوله حجة، فالجواب أن التابعين انتشروا انتشارًا لا ينضبط لكثرتهم وانتشرت المسائل في عصرهم، فلا يكاد يغلب على الظن عدم المخالف لما أفتى به الواحد منهم، فإن فرض ذلك فقد اختلف السلف في ذلك: فمنهم من يقول يجب اتباع التابعي فيما أفتى به ولم يخالفه فيه صحابي ولا تابعي، وهذا قول بعض الحنابلة والشافعية، وقد صرح الشافعي في موضع بأنه قاله تقليدًا لعطاء، وهذا من كمال علمه وفقهه رضي الله عنه، فإنه لم يجد في المسألة غير قول عطاء، فكان قوله عنده أقوى ما وجد في المسألة، وقال في موضع آخر: (وهذا يخرج على معنى قول عطاء)، والأكثرون يُفرقون بين الصحابي والتابعي، ولا يخفى ما بينهما من الفروق على أن في الاحتجاج بتفسير التابعي عن الإمام أحمد روايتين، ومن تأمل كتب الأئمة ومن بعدهم وجدها مشحونة بالاحتجاج بتفسير التابعي).

وظاهر كلام ابن القيم رحمه الله أنه يفرق بين تفسير الصحابي والتابعي فبينما هو يرى الأول حجة، لا يرى ذلك في الثاني.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (أما إذا أجمعوا على الشيء -أي التابعين- فلا يُرتاب في كونه حجة)[1].

وقال الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رحمه الله: (والتحقيق أنهم إن أجمعوا على شيء فلا يرتاب في كونه حجة ويكون تلقوه عن الصحابة)[2].

فالظاهر أن علة عدم المخالفة أن إجماعهم قرينة على أنهم تلقوه عن الصحابة رضي الله عنهم.

وإن اختلف التابعين في التفسير، ففيه خلاف:

فكان بعضهم يرى عدم جواز الخروج عن أقاويلهم بالكلية؛ لأن الغالب أنهم تلقوها عن الصحابة رضي الله عنهم، لاسيما المفسرين الكبار كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبير وقتادة، وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: (إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به)[3].

وقال بعضهم بجواز الخروج عن أقاويلهم بالكلية، لأنها من قبيل التأويل والتفسير بالرأي والاجتهاد، قال شعبة بن

---

(١) مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ١٠).
(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٦١).
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٩١).

الحجاج رحمه الله: (أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟!)[1].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح)، ثم أردف: (فإن اختلفوا -أي التابعين- فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك)[2].

وقال الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رحمه الله: (أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، وعلى من بعدهم، وحينئذ للمفسر للقرآن أن يرجع إلى الطرق والوسائل، التي يستفاد منها التفسير الصحيح)[3].

**[القاعدة الخامسة]: تأول المُفسر النص القرآني بما يوافق مذهبه قرينة على بطلانه:**

فتأويل النصوص القرآنية بما يوافق رأي المُفسر أو بما يوافق

---

(١) مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ١٠).
(٢) مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ١٠).
(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٦١).

مذهبه أو عقيدته مشهور عن المبتدعة كالخوارج والروافض والمعتزلة والصوفية، وهو من أظهر القرائن على بطلان كلامهم وتأويلهم، يقول العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله: (إذا سُئل -أي المفتي- عن تفسير آية من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، فليس له أن يخرجها عن ظاهرها بوجوه التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه، ومن فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء والحجر عليه، وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرح به أئمة الإسلام قديمًا وحديثًا)(١).

ويقول الدكتور مساعد بن سليمان الطيار: (ويكثر هذا عند أهل الأهواء والبدع، حيث إنهم يعتقدون الرأي ثم يبحثون عن دليله، وقد يحرّفون الكلم عن مواضعه ليوافق آراءهم، ولو لم يكن لهؤلاء هذا الاعتقاد والرأي لما فسر القرآن بهذه التفسيرات المنحرفة، ويقع خطأ أولئك على أقسام:

الأول: الخطأ في الدليل والمدلول: وذلك أن المفسر يستدل لرأيه بدليل، ويكون رأيه الذي استدل له باطلٌ فيستلزم بطلان دلالة الدليل على المستدل له.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٤٥).

الثاني: الخطأ في الاستدلال لا في المدلول: وفي هذا يكون المدلول بذاته صحيحًا، ولكن حَمل الآية عليه لا يصح).

ويدخل في باب التفسير بما يوافق الرأي والمذهب؛ تفسير النص القرآني بغرض المراء والغلبة والجدال، فيعمد المُفسر إلى دعم نظرته وتحكيم رأيه بما يجده من آيات متشابهة صالحة للتأويل إلى مقصده ومطلوبه، في الوقت الذي يكون فيه النص لا يهدف إلى ما ذهب إليه إلا بلَيِّهِ فيما مضى إليه المُفسر، ولذلك فإنه لو أصاب المعنى بالقصد الذي حملته عليه نفسه لم يُؤجر؛ لأنه لم يقصد تفسير كلام الله وإنما أراد الانتصار لمذهبه بتأويل مراد الله تعالى.

## [القاعدة السادسة]: أن يكون المُفسر معتبرًا:

يجب أن يكون المُفسر معتبرًا به، ومعنى (الاعتبار) أي بقوله في التفسير حسبما يذكر أهل العلم، كما ورد في ترجمة إسماعيل السُّدي رحمه الله: قال يحيى القطان رحمه الله: سمعت ابن أبي خالد يقول: (السُّدي أعلم بالقرآن من الشعبي)[(١)]، ومر به إبراهيم النخعي رحمه الله وهو يفسر القرآن فقال: (أما أنه يفسر تفسير القوم)[(٢)].

---

(١) التاريخ الكبير (١/ ٣٦١).

(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٢٧٤).

على أن هذا القيد لا يكون في حق الصحابة، فقد أثنى الله تعالى على طبقتهم جملةً، ووثقهم النبي ﷺ، وعليهم أنزل القرآن غضًا طريًا، فإن صح التفسير إلى أحدهم كان الأخذ به أولى، وسيأتي بيان ذلك.

وهذا القيد يقتضي استبعاد أقوال المتروكين من أهل التأويل كمحمد العزرمي، وأبي النضر محمد بن السائب الكلبي، وشعيب بن الأسود الجبيء، فإنهم متروكون متهمون وكلام الله تعالى أجل وأعلى من أن يترك تأويله لأمثالهم، قال أبو حاتم بن حبان رحمه الله في ترجمة الكلبي: (لا يحل ذكره في الكتب فكيف الاحتجاج به؟! والله جل وعلا ولى رسوله ﷺ تفسير كلامه وبيان ما أنزل إليه لخلقه حيث قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ومن أمحل المحال أن يأمر الله جل وعلا النبي المصطفى أن يبين لخلقه مراده حيث جعله موضع الأمانة عن كلامه ويفسر لهم حتى يفهموا مراد الله جل وعلا من الآي التي أنزلها الله عليه، ثم لا يفعل ذلك رسول رب العالمين وسيد المرسلين، بل أبان عن مراد الله جل وعلا في الآي وفسر لأمته ما يهم الحاجة إليه، وهو سننه صلى الله عليه وآله، فمن تتبع السنن

حفظها وأحكمها فقد عرف تفسير كلام الله جل وعلا وأغناه الله تعالى عن الكلبي وذويه)[1].

**[القاعدة السابعة]: ألا يستند الرأي إلى إسرائيليات إلا فيما وافق شرعنا:**

قال الله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ من النَّارِ**»[2].

---

(١) المجروحين (٢/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٦١/ الأنبياء) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُم، وَقُولُوا**: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ . . . [البقرة: ١٣٦]»[١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب فقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ**[٢] **فِيهَا يَا ابنَ الخَطَّابِ؟! وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَقَد جِئتُكُم بِهَا بَيضَاءَ نَقِيَّةً، لاَ تَسأَلُوهُم عَن شَيءٍ فَيُخبِرُوكُم بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَو بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَن يَتَّبِعَنِي**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٦٢/ الاعتصام) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال البغوي رحمه الله في شرح السنة (١/ ٢٧١): (قوله: «**أَمُتَهَوِّكُونَ**» أي: متحيرون أنتم في الإسلام، لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى).

(٣) **ضعيف**: أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩/ ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٧٠)، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٤٧) جميعهم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وظاهر هذه الأحاديث التعارض، وهو مدفوع لأن الحديث الأول أباح للمسلمين أن يُحَدِّثوا عن قصص بني إسرائيل لما فيها من العبرة والعظة ما دام أنه ليس مُكذبًا لقصصهم التي جاء بها شرعنا ممثلًا في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأن النبي ﷺ ما كان ليُبيح لهم تكذيب القرآن والسنة بالرواية عن بني إسرائيل، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال مالك: المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن أما ما علم كذبه فلا، وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوِّزونه فلا حَرَج عليكم في التحدث به عنهم)[1].

وأما الحديث الثاني فالمراد منه التوقف فيما يحدّث به أهل الكتاب إذا لم يوافقوا شرعنا أو يخالفوه وكان محتملًا للصدق والكذب؛ لأنه ربما كان صدقًا فيكذبونه، أو كذبًا فيصدقونه فيقعون بذلك في الحرج، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «(لَا تُصَدِّقُوا أَهلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُم» أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملًا، لئلا يكون في نفس الأمر صدقًا فتكذِّبوه، أو كذبًا فتصدِّقوه، فتقعوا في

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩٨: ٤٩٩).

الحَرَج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه)[1].

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذه الأحاديث تُذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدّتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٧٠).

أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نَقلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز)[1].

فحاصل الأمر: أن ما صدقه شرعنا من قصصهم فنحن نؤمن به ونصدقه كلٌ من عند ربنا، وأن ما كذبه شرعنا من قصصهم فنحن

(١) مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ٩).
وهذا الكلام نقله الإمام ابن كثير رحمه الله عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -ولم يصرح بنقله عنه- إذ قال شيخ الإسلام في مقدمة في أصول التفسير (٩٦): (ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاث أقسام أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح، والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم وعصا موسى من أي الشجر كانت وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم وتعين البعض الذي ضرب به المقتول من البقرة ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز).

نكذبه ولا نصدقه، وأما ما هو دون ذلك -أي المسكوت عنه في شرعنا- فلا نقطع بصدقه أو كذبه، لأنه ربما كان صدقًا فنكَذِّبه، أو كذبًا فنصَدِّقه، فنقع بذلك في الحَرَج، وبهذا يتبين لنا المقدار الذي أباحه الشرع من الرواية عن أهل الكتاب[1].

---

(١) أما ما جنح إليه البعض من شدة إنكار الإسرائيليات وتعنيف المتحدثين بها فهو غلو وشطط، كما ذهب إليه الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله وغفر له، حتى أخذه الحماس إلى حدِّ النيل والطعن في بعض الرواة بل الصحابة، وغمزِ المحدثين ورميهم بالتقصير وقلة الاطلاع لأنهم وثَّقوهم وخرَّجوا أحاديثهم، إذ قال في مجلة المنار (المجلد ٢٧، الجزء ١٠، جمادى الآخرة ١٣٤٥هـ، صفحة ٧٨٢): (ثم ليعلم أن شر رواية هذه الإسرائيليات، أو أشدهم تلبيسًا وخداعًا للمسلمين هذان الرجلان اللذان ترك زراعته للإطالة في الدفاع عنهما لتلك العلة الواهية التي ذكرها من قبل: كعب الأحبار ووهب بن منبه، فلا تجد خرافة دخلت في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي من أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوامهم والفتن والساعة والآخرة إلا وهي منهما مضرب المثل)، ثم قال: (ولا يهولنه انخداع بعض الصحابة والتابعين بما بثاه هما وغيرهما من هذه الأخبار، فإن تصديق الكاذب لا يسلم منه أحد من البشر ولا المعصومين من الرسل فإن العصمة إنما تتعلق بتبليغ الرسالة والعمل بها، فالرسل معصومون من الكذب ومن الخطأ في التبليغ ومن العمل بما ينافي ما جاءوا به من التشريع، لأن هذا ينافي القدوة ويخل بإقامة الحجة).

وأما النهي الوارد في الحديث الثالث فإنه لا يعارض ما قررناه وإنما يوافقه بفرض صحة الحديث، وذلك لعدة أسباب:

الأول: يحتمل أن يكون ذلك كان في مبدأ الإسلام وقبل ثبات العقيدة واستقرار الأحكام، ثم صارت الإباحة بعد أن ثبتت العقيدة وعُرِفت الأحكام وأُمنت الفتنة، قال الحافظ ابن حجر ﵀: (وكأن النهى وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية خشية الفتنة، فلما زال المحذور وقع الإذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار)[١].

الثاني: أن يكون الغضب لما وقع من كلام في هذه الصحيفة، إذ أن النبي ﷺ لم يغضب إلا عندما قرأ الصحيفة، ولم يغضب بمجرد إتيان عمر ﵁ لها كما تدل عليه ظاهر الرواية في مسند الإمام أحمد ﵀، وقد نقل ابن بطال عن المهلب رحمهما الله أنه قال: (قوله ﷺ: «**لاَ تَسأَلُوهُم عَن شَيءٍ**» إنما هو في الشرائع، لا تسألوهم عن شرعهم فيما لا نعرفه من شرعنا لنعمل به، لأن شرعنا مكتف وما لا نص فيه عندنا ففي النظر والاستدلال

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩٨).

ما يقوم الشرع منه، وأما سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، وما جاء به نبينا ﷺ من الأخبار عن الأمم السالفة فلم ننه عنه)[1].

**[القاعدة الثامنة]: رجاحة الرأي على غيره من الآراء:**

وهذا الضابط لا يُصار إليه إلا حيث أُعملت الضوابط المتقدمة عليه، وأشهر المرجحات بين الآراء: الموافقة للغة العرب، اقتضاء السياق ومناسبة الآيات، الاشتهار بالتفسير المعتبر، طول المصاحبة للمُفسرين المعتبرين، القرب من عهد النبي ﷺ ثم الصحابة ثم التابعين، وهذه المرجحات ليست على سبيل الحصر وإنما هذه أشهر المرجحات.

فهذه بعض ضوابط تفسير آي القرآن بالرأي صونًا لكلامه تعالى من الخطأ أو التناقض أو التوهم، وحتى يُدرك مراده ﷻ الذي هو أحكم مُراد وأبلغ مقصود.



---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٣٩١).

## الأندلس المفقود .. تُرَ كيف كان؟

**بقلم: محمد إلهامي**

قبل خمسمائة وعشرين سنة من لحظة كتابة هذه السطور وبالتحديد في (٢ يناير ١٤٩٢) وقع آخر ملوك غرناطة على اتفاقية الاستسلام التي أنهى بها تاريخ ثمانية قرون من الحكم الإسلامي للأرض الأندلسية، ومنذ ذلك التاريخ، وتحولت قصة الأندلس من وقائع الحاضر إلى أيام التاريخ . .

واسم الأندلس ذو شجو عميق في النفس المسلمة، وهو ذو شجو أكثر عمقا وأقرا في نفوس الباحثين في التاريخ، حتى لقد عُرِف الباحثون المسلمون في تاريخ الأندلس بأنهم من هواة البكاء على الأطلال كما قال الأستاذ الإسباني لتلميذه المصري حسين مؤنس قبل نحو ثلاثة أرباع قرن.

ولكي نؤكد أن ضياع الأندلس هو فجيعة إنسانية قبل أن تكون

فجيعة مسلمة، اخترنا أن نلتقط ملامح سريعة لصورة الأندلس كما وصفها الباحثون الغربيون، بما يناسب مقالا سريعا.

**السياسة**

١- الفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون:

«أتمَّ العرب فتح إسبانيا بسرعة مدهشة؛ وذلك أن المدن الكبيرة سارعت إلى فتح أبوابها للغزاة، فدخل الغزاة قرطبة ومالَقة وغرناطة وطُلَيْطِلة صلحًا تقريبًا . . . وأحسن العربُ سياسةَ سكان إسبانيا، كما أحسنوا سياسة أهل سوريا ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم، وكنائسهم، وقوانينهم، وحقَّ المقاضاة إلى قضاة منهم، ولم يَفْرِضوا عليهم سوى جزية سنوية تبلغ دينارًا عن كلِّ شريف ونصف دينار عن كل مملوك، فرَضِيَ سكان إسبانيا بذلك طائعين، وخضعوا للعرب من غير مقاومة»[١].

٢- الباحث الإسباني بدرو شلميطا:

«لقد كانت الأندلس بالنسبة إلى سكان الممالك النصرانية

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٦٦.

الشاملة من شبه الجزيرة الأيبيرية قطعة من الجنة وأرض المعاد»[1].

**الحضارة**

**٣**- جوستاف لوبون:

«لم يَكَدِ العرب يُتِمُّونَ فتح إسبانيا حتى بدءوا يقومون برسالة الحضارة فيها؛ فاستطاعوا في أقلَّ من قرن أن يُحْيُوا مَيت الأرضين، ويُعَمِّرُوا خراب المدن، ويُقيموا فخم المباني، ويُوَطِّدُوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب، ويُتَرْجِمون كتب اليونان واللاتين، ويُنْشِئُون الجامعات التي ظَلَّتْ وحدها ملجًا للثقافة في أوربا زمنًا طويلًا»[2]، هكذا قال الفرنسي جوستاف لوبون.

---

(١) بدرو شلميطا: صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية - بيروت، لبنان، ١٩٩٩م. ٢/ ١٠٦٠.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م. ص٢٧٣.

٤- الباحثة الإسبانية مارجريتا جوميز:

«أعطى الإسلام -الذي كان قد خلق توافقًا واندماجًا بين حضارتين متضادتين باستناده على فكره الكوني (العالمي)، وَصِفَةِ التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده على قدرته الهائلة في التمثل والإبداع، وميله المتميز إلى التجريب والاختبار- ثمارًا عظيمة في بلاد الأندلس، التي شهدت أهم اندماج عرقي وحضاري بين الشرق والغرب، وكانت قرطبة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي -أيام خلافتي عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني- عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعًا في ذلك الوقت، والأكثر تحضرًا في أوربا»[١].

٥- المستشرق الأمريكي -لبناني الأصل- فيليب حتي:

«سطرت الأندلس فصلًا رائعًا في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الأوربية، فبين منتصف القرن الثامن ومطلع القرن الثالث عشر -حسبما تَقَدَّم- كانت الشعوب العربية اللسان في مُقَدِّمة من

---

(١) مارجريتا جوميز: إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٧٨.

حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة، وبواسطة جهود هذه الشعوب -أيضًا- تسنَّى لعلوم الأقدمين وفلسفتهم أن تعود إلى أوربا مشروحة ومضافًا إليها، فسَهَّل هذا السبيل لنشوء عصر النهضة في أوربا الغربية»[١].

٦- جوستاف لوبون:

«شأن العرب المدني لم يَبْدُ في قُطْر ملكوه كما بدا في إسبانيا، التي لم تكن ذات حضارة تُذْكَر قبل الفتح العربي، فصارت ذات حضارة ناضرة في زمن العرب، ثم هبطت إلى الدَّرْك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب»[٢].

٧- الزعيم الهندي جواهر لال نهرو:

«إن حكم العرب لأجزاء من إسبانيا مدة ٧٠٠ سنة أمر يدعو إلى الإكبار، ويزيدنا إكبارًا لهم تلك المدنيَّة الرفيعة والثقافة العربية الراقية، التي وصفها أحد المؤرخين بقوله: «لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة، التي كانت مفخرة العصور الوسطى، والتي

---

(١) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، ١٩٩١م. ص١٨١، ١٨٢.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٧٢.

حملت نبارس العلوم والحضارة الزاهرة على العالم الغربي، الذي كان مغمورًا في الجهل والوحشية»»[1].

**الاقتصاد**

٨- الباحث الإسباني بدرو شلميطا:

«إذا أردنا فعلًا معرفة درجة غنى الأندلس وأهميتها، فيجب أن نتذكَّر أن اقتصادها كان قد قام على الاكتفاء الذاتي، وأن نموَّها دام ثلاثة قرون، لقد كانت الأندلس قادرة في سنة (٤٠٠هـ-١٠٠٩م)، وحتى ٧٥ سنة إضافية على أن تدعم وتُمَوِّل [دون إرادة منها[2]] نموَّ مجموعة اجتماعية أخرى، طفيلية وأجنبية: هي الدول النصرانية الشمالية، (ليس من) دليل أفضل من ذلك لحقيقة

(١) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف - القاهرة، مصر ١٩٥٨م. ص٤٥.

(٢) يقصد بهذا التمويل الجزية الباهظة التي ظَلَّت الأندلس تدفعها لمملكة قشتالة خلال عصر ملوك الطوائف، وتلك المبالغ كانت عظيمة، إلى حَدِّ أنها كانت جانبًا له تأثير عظيم في نهوض الصليبيين وتقويتهم على محاربة وتهديد الأندلسيين.

الاقتصاد الأندلسي وأهميته»[1].

٩- ففي جانب السياحة والخدمات يقول جون برند تراند:

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً -أثناء القرن العاشر- كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة؛ التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمَّام عمومي؛ فإنْ أدركتِ الحاجةُ حُكَّام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جَرَّاحٍ، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي فلا يتَّجِهُون بمطالبهم إلاَّ إلى قرطبة»[2].

١٠- وفي جانب الزراعة تقول الباحثة الإسبانية إكسبيراثيون جارثيا سانشيز:

«لقد أثَّر وصول العرب إلى شبه الجزيرة الأيبرية بداية أعمق

---

(١) بدرو شلميطا: صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ١٠٦٠.

(٢) جون براند تراند: إسبانيا والبرتغال، دراسة منشورة في كتاب «تراث الإسلام» بإشراف: توماس أرنولد، تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - بيروت، ١٩٧٢م. ص٢٧.

وأكبر تطوُّر عرفته الزراعة في هذه البقعة التي كانت قد آلت إلى حالة من التخلف والكساد في السنين الأخيرة لحكم القوطيين الغربيين»[1].

١١- وفي جانب الصناعة تقول مارجريتا جوميز:

«واشتغل المسلمون في إنتاج الحرير والورق، وقد اكتسبوهما من الصينيين، وكان هذا ثورة في ازدهار الاقتصاد الصناعي للمنسوجات والكتب، التي بلغ إنتاجها مستويات عالية من الرقي، إلى درجة أن بعض تلك الأنسجة الحريرية الموشَّاة، والمخطوطات المنمَّقَة بالصور الملونة ما تزال تُحْفَظ حتى الآن في متاحفنا، كما تُحْفَظ الجواهر والأحجار الكريمة»[2].

**الفن والعمارة**

١٢- يقول الباحث الإسباني جيمس دكي بعد حديث طويل

---

(١) إكسبيراثيون جارثيا سانشيز: «الزراعة في إسبانيا المسلمة»، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ١٣٦٧.

(٢) مارجريتا جوميز: إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٨٠.

مبهور عن قصر الحمراء في غرناطة:

«عَمَلٌ بمثل هذه الرقَّة والروعة لا يمكن أن تُنْتِجَه حضارة غير الحضارة الإسلامية»[1].

١٣- ونجد روبرت هيلينبراند سعيدا مسرورا ببقاء جامع قرطبة:

«استطاعت قرطبة -لحسن حظها العظيم- أن تُنْقِذَ أثرًا من آثار عصرها الذهبي، هو أهمها على الإطلاق، ذلك هو جامعها الكبير، الذي ذاع صيته في العصور الوسطى بوصفه واحدًا من عجائب أربع في العالم الإسلامي، فقد كان هذا الجامع إلى حدٍّ كبير يُمَثِّل تاريخ الأندلس وآمالها، ومن أجل ذلك كان من المناسب تمامًا أن يُصْبِحَ مفتاح الأثر الرئيس في فنِّ العمارة في غرب العالم الإسلامي»[2].

---

(١) جيمس دكي: الحجم والمساحة في العمارة النصرية، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ٨٩٠.

(٢) روبرت هيلنبراند: زينة الدنيا .. قرطبة القروسطية مركزًا ثقافيا عالميًّا، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ١/ ٢٠٣.

١٤- مارجريتا جوميز

«لقد ترك الفنانون المسلمون تراثًا من التقاليد في صناعة الخزف، ولاسيما في غرناطة ومَالَقَة، واشتهرت هذه المدينة الأخيرة بإنتاج (الخزف الذهبي) الصقيل أيام الحكم الإسلامي، وقد تمَّ -أيضًا- بطبيعة الحال، انتقال وتبادل حضاري في ميدان الفنِّ عن طريق المحاكاة، فنُسِخَتْ في طُرز ملابسِ المراسيم لبعض الملوك النصارى كتاباتٌ بالخط الكوفي (أدعية وآيات قرآنية)، ظنًّا بأن تلك الكتابات ليست إلا نقوشًا للزينة خالية من المعنى»[1].

**الثقافة**

١٥- أميركو كاسترو:

«إن أغلب المتخصصين يعرفون أن صدى الإسلام ظلَّ باقيًا في الآثار التي خلفها في قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، وكذلك العديد من المدن الأخرى قليلة الأهمية في هذا المقام، أما فيما

---

(١) مارجريتا جوميز: إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٨٠، ١٤٨١.

يتعلق باللغة فهناك الآلاف من الألفاظ والمصطلحات العربية التي ما زال بعضها حيًّا، بينما عفا الزمان على بعضها الآخر، كما أن الأدب استلهم المصادر العربية، ووضح هذا الإلهام في قواعد الكهنوت، فمن خلال هذا الكتاب انتشرت في إسبانيا المسيحية وأوربا -ابتداء من القرن الثالث عشر- ثلاث وثلاثون حكاية ذات أصول مشرقية . . . وعندما نفكر في الشخصية الإسبانية لا يمكننا أن نباعد جانبًا تسعة قرون من النسيج الاجتماعي الإسلامي المسيحي»[(١)].

١٦- المستشرق البريطاني الكبير توماس أرنولد:

«إن سياسة التسامح الديني -التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في إسبانيا- وحرية الاختلاط بين المتديِّنين قد أدَّتْ إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كثر التصاهر بينهم . . هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تَسَمَّوْا بأسماء عربية، وقَلَّدُوا جيرانهم المسلمين في

---

(١) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها .. المسيحيون والمسلمون واليهود، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، مراجعة: حامد أبو أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى - القاهرة، ٢٠٠٣م. ص٦٣.

إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وَفق رسوم غير المعمدين (أي المسلمين) في أمور الطعام والشراب»[١].

**الأقليات:**

١٧- باحثة الأديان الشهيرة كارين أرمسترونج

«كانت العلاقات طيبة في العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزُّون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقًا يُقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيرًا ما يُطْلَق عليهم المستعربون»[٢].

١٨- المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه

«إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذي نما في ثرى تلك القارة تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان له

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م. ص١٥٩، ١٦٠.

(٢) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، دار سطور، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، ١٩٩٧م. ص٣٢.

أبلغ الأثر في ازدهار إسبانيا العربية -على العكس من اضطهاد إيزيدورس لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين- لقد سمح لضروب الفكر -على تباين المفكرين واختلافهم- أن تتلاقح وتثمر في تساوق سامٍ وانسجام تامٍّ، دون أن يدبَّ إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها»[1].

١٩- توماس أرنولد

«وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحوَّلوا إليه من مسيحيِّي إسبانيا مبلغًا عظيمًا، حتى سحرهم بهذه المدنيَّة الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنِّه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا الفروسية العربية الرفيعة مجالًا فسيحًا لإظهار بأسهم، وما تَكَشَّفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخُلق كريم . . . لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظِلِّ الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بُعْدًا تامًّا عن الاضطهاد الديني»[2].

---

(١) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار صادر، الطبعة العاشرة - بيروت، ٢٠٠٢م. ص٥٣.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٦٤.

## الأندلس .. بعد السقوط

**٢٠**- فقرة مؤثرة جدا لجوستاف لوبون يتأسف فيها أن المسلمين فشلوا في فتح باريس، ويَرُدُّ على مَنْ قال بأن هذه المعركة أنقذت الغرب والمسيحية، فيقول:

«لنفرض جدلًا أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسا غيرَ باردٍ ولا ممطر كجوِّ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدثُ في أوربا التي تكون قد هُذِّبت ما حَدَثَ فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يَعْرِفْه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضَرَّجَت أوربا بالدماء عِدَّة قرون»[١].

## نحن .. وهم

**٢١**- الكولونيل البريطاني رونالد بودلي:

«لما غزا المسلمون إسبانيا في القرن الثامن احترم المسلمون

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣١٧.

كل شيء مسيحي، واستمرَّ الحال على ذلك حتى زوال الحكم العربي من أوربا في القرن الخامس عشر، ولم يستمرَّ الحال على ذلك لَمَّا أصبح للمسيحيين اليد العليا؛ فَحَلَّ الاضطهاد الديني محلَّ التسامح الإسلامي»[1].

**٢٢**- المستشرق الأمريكي المتعصب برنارد لويس

«وعندما انتهى الحكم العثماني في أوربا، كانت الأمم المسيحية -التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون- لا تزال هناك بلغاتها وثقافاتها ودياناتها، وحتى -إلى حَدٍّ ما- بمؤسساتها، كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقل، أما إسبانيا وصقلية فليس فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون بالعربية»[2].

---

(١) ر. ف. بودلي: الرسول، .. حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، مصر. ص٣٠٩، ٣١٠.

(٢) برنارد لويس: السياسة والحرب، منشور في «تراث الإسلام» بإشراف: شاخت، وكليفورد بوزوروث، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٧٨م. ص٢٢٨.

**٢٣**- المستشرق الروسي ف. بارتولد

«إن النصارى الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يُصبهم قطُّ ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان»[١].



(١) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، الطبعة الخامسة - القاهرة. ص٥٧.

## معادلة الثبات

بقلم: عمرو عبد العزيز

دائمًا كان يشغلني أمر عجيب قليلًا:

وهو إيجاد معادلة الثبات!

أردت أن أفهم: ما هو المسار الذي إن سار الإنسان عليه - ثبت طوال حياته على مبادئه وأفكاره في مواجهة الظالمين؟

ثم زادني همًا: تغير أطروحات كثير من المعتقلين الجهاديين، وسقوط الدعوة السلفية، وتنكُّب دعوة الإخوان لمبادئها!

ما هي معادلة الثبات؟

لقد اعتُقِل أحدهم لعقدين أو أكثر -فانتكس بعد خروجه! لا أثناء وجوده في السجن!

وظل الآخر مضطهدًا لكن ثابتًا على أصول دينه -ثم انتكس بعد وصوله للحكم!

والثالث لم يتعرض للمحن والاعتقال المُنظم والطويل لا قبل الثورة ولا بعدها -فانتكس كذلك!

هناك من ذهب لأراضي الجهاد وكان كبيرًا هناك -وانتكس منذ كان هناك!

وهناك من بقي هنا ولم يخرج -فثبت!

وهناك من ثبت في أراضي الجهاد رغم آلام المحن اليومية، وهناك من ثبت وهو قاعد لا يجاهد بمعنى القتال!

ما هي معادلة الثبات؟

هذا الأمر يثير دائمًا حيرتي وجنوني، ويثير ضيقي وخوفي عندما أغوص في التأمل فيه: تخيل ماذا لو كان سيد قطب قد ظل حيًّا ليخرج في بداية الثمانينات؟ أكان لينقض أطروحاته ويقف مع النظام ضد الجهاديين؟ أكان رأفة من الله به وبنا أن نال الشهادة على يد الطواغيت؟

ما هي معادلة الثبات التي تضمن ألا يحدث أي انتكاس لأي شخص يواجه المجرمين بالكلمة وبغير الكلمة؟!

قلت لأحد الأصدقاء يومًا: إنني أخاف هذا! أنا من كتب كل

كلمة وأعلم أنني على استعداد أن أكتب مجلدًا فيه نقض منطقي إلحادي يروج بين الكثيرين لكل حرف كتبته! ما يمنعني؟ الذي يمنعني هو أنني هنا! في تلك الجبهة! لكن كيف أضمن الثبات هنا على تلك الجبهة؟ هذه هي أزمتي الرئيسية!

لذا كنت دائمًا أخاف السجون وأكرهها متهمًا إياها بالتسبب في التغيير -لكنني قد وجدت أن الكثير والكثير من المنتكسين لم يذوقوها يومًا وإنما ظلوا خارجها بين النعم!

فما هي المعادلة الحقيقية؟ بيجوفيتش صمد أمام الجميع -لكنه اهتز يوم احتجزوه بابنته، خاف عليها فوافق على شروط لمحتجزيه لم يكن ليقبلها أبدًا في وقت آخر؛ حتى كاد جيشه نفسه أن يقتله! ثم في نهاية الحرب لجأ للمجتمع الدولي وحُكم القوى الكبرى الذي انتقده بكتابه الأول البيان الإسلامي -لم يذهب إلى النهاية كما نظَّر وقال في بداية الحرب! هكذا كان أصعب اختبار له كمفكر- أن توضع أفكاره موضع الحكم وبقيادته!

فما هي معادلة الثبات التي تمنع هذا؟ على الأقل لمن يكتب ويُنظِّر؟

وجدت يومًا حديثًا نبويًا يقول: ما من قلب إلا بين إصبعين

من أصابع الرحمن -إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه . .

مر عليَّ قبلًا لكنها المرة الأولى التي أتأمل فيه طويلًا!

ثم تنبهت إلى تلك الكارثة الإنسانية:

الحقيقة -أنه لا معادلة!

هذه هي الحقيقة المخيفة! لا معادلة!

أنت مُعلَّق بالمشيئة . . جنة أو نار بالمشيئة . . لا معادلة!

ستظل هكذا خائفًا إلى النهاية! لا معادلة! وحتى آخر نفس في حياتك لا معادلة!

هذا يثير الذعر أكثر . . يثير الهلع أكثر . . لكنه الحقيقة . .

فلا حل لديك إلا أن تردد مرتعدًا في كل وقت تتذكر تلك الحقيقة المفزعة:

اللهم يا مقلب القلوب -ثبت قلوبنا على دينك . .



## الرئيس والفيلسوف

بقلم: عمرو عبد العزيز

ارتبط اسم د. المسيري كثيرًا باسم الرئيس البوسنوي علي عزت بيجوفيتش، ليس فقط لأن الأول كان ينقل عن الثاني أحيانًا ولا لأنه قد كتب مقدمة ثريَّة للنسخة العربية من كتاب بيجوفيتش الأشهر (الإسلام بين الشرق والغرب)؛ بل لأن أطروحتيهما تتشابهان في كثير من النقاط.

وبرغم أن بيجوفيتش في البوسنة المعاصرة يُنقَل أن شأنه فيها أقل مما قد يظنه القُرَّاء العرب سواء من الناحية الفكرية أو السياسية -إلا أن الرجل قدم رؤية مميزة جدًّا في كتاباته ربما قدرها العرب أفضل من أهل بلده .. وبرغم أن د. المسيري هو الآخر يعتبره أساتذة الفلسفة المتخصصون دخيلًا عليها لذا وقع في أخطاء كبيرة في كتبه -إلا أن رؤيته مميزة كذلك وقد راجت بين الإسلاميين ..

وإذ يشترك د. عبد الوهاب المسيري وبيجوفيتش في كثير من المسائل؛ إلا أن هناك نقاط اختلاف سنرصد أبرزها . .

**أهم الاختلافات بين د.المسيري وعزت بيجوفيتش:**

**١) الرؤية العامّة للتاريخ البشري وفلسفاته**

* رؤية بيجوفيتش للفلسفات العالميَّة تقسمها إلى ثلاث مقاطعات كبرى (الماديَّة - الدين - الإسلام) . .

-فالماديَّة هي الفلسفة التي نشأت مع الإلحاد الطبيعي منذ بداية عصر إعمال العقل الفلسفي الأوروبي، ثم تطورت عبر القرون حتى وصلت للنماذج المعاصرة الحاليَّة -وهي الإيمان بأن العالم آلي متكامل مفهوم . . وتتمثل بوضوح صارخ في نموذج آلية كون نيوتن وماديَّات القرن التاسع عشر والداروينيَّة العلمية والاجتماعيَّة . .

وهي رؤية نفعيَّة صراعيَّة بحتة . . فيها القتال بين الأشياء والموضوعات هو محور الكون دون أي دافع سوى البقاء . .

-والدين عنده هو المقاطعة الثانية من مقاطعات الفلسفة الإنسانيَّة . . ويقصد به الأديان الروحيَّة أو الأنماط الصوفيَّة من

الأديان . . وهنا يضع في هذه المقاطعة كافة الأديان التي بحثت عن إبراز الجانب الروحي ووأد الجانب المادي . . فهناك الأديان السحريَّة الأفريقية والبدائية والأزتيكية والمسيحية والصوفيَّة الإسلامية وكافة الأديان تقريبًا!

ويرى بيجوفيتش أن الممارسة العملية تجعل الماديين يستخدمون الدين رغمًا عنهم ولا يقومون بمعاداته . . وتفرض على الدينيين استخدام الوسائل الماديَّة الحياتيَّة رغمًا عنهم ولا يقدرون على تركها . .

-والإسلام عنده هو (الوسط) الشبيه بوسط أرسطو الذهبي . . الجامع بتوازن بين الروح والمادة . . وهو مختلف عن (الدين) بدلالاته المذكورة بالأعلى ومختلف عن (الماديَّة) بدلالاتها المذكورة سابقًا . . إنه الجامع الأكبر . .

* فلسفة المسيري ليس فيها هذا التقسيم . . بل ترى أن الفلسفة المادية تواجهها فلسفة إنسانيَّة . . أن (الإنسان المادي/ الطبيعي) يواجهه (الإنسان الإنسان) . . وتحت عنوان (الإنسان الإنسان) هذا توجد كافة الأديان . . فالأديان المتجاوزة للنماذج الكمونية هي من تواجه الماديَّة.

**خلاصة:**

رؤية بيجوفيتش أقرب للإسلام من رؤية د.المسيري -فهي تُميِّزه وتفصله فتجعله مستعليًا عن الباقي مفارقًا لهم . .

بينما رؤية د.المسيري إنسانويَّة يمكن أن تجيء من يهودي أو كونفوشيوسي بلا اختلاف كبير . . رؤية لا تجعل الإسلام بارزًا في صراعه مع المادية بل تراه مجرد جندي مميز قليلًا وسط جنود التجاوز الآخرين . .

ورغم ذلك فرؤية د.المسيري من بعض الوجوه لها أصل إسلامي لم ينتبه إليه كالمعتاد لضعف ثقافته الإسلاميَّة فقلما أبرزه -وهي أن الله قد خاطب الإنسان (بني آدم) وخاطب العاقلين وخاطب الشعوب عامة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم . . مما يوضَّح أن هناك (كليَّات إنسانيَّة مشتركة) بين البشر تجعل الخطاب موجهًا للجميع . . فالأصل في الإنسان هو أن يعقل ويتفكر ويتأمل في خطاب ربه فيصل إلى الإسلام ويعرف حدوده وواجباته التكليفيَّة . . والخطاب القرآني في جزء كبير منه خطاب (إنساني) للبشر أجمعين . . ثم في أجزاء أخرى خطاب مخصص للمسلمين دون باقي البشر . . وفي أجزاء أخرى مخصص لتهديد الكافرين

المعاندين . . فالإنسانيَّة الكليَّة مقسَّمة إلى مسلمين وكافرين . . والخطاب قد يكون عامًّا موجهًا للإنسانية المطلقة (الفِطرة) ثم قد يكون مخصصًا للذين اختاروا طريقهم إما مسلمين وإما كافرين . .

ووجه الشبه بين هذا الوجه وبين رؤية د.المسيري أن الإنسانيَّة المطلقة هنا (الناس-العالمين-بني آدم) تشابه مقصوده في الإنسان المتجاوز أو (الإنسان الإنسان) وهي مقابل ماديَّة الكافرين (إن هي إلا حياتنا الدنيا) . . الفارق أنه يضع الإسلام في قائمة الأديان مع الفطرة تحت قسم الإنسانية المتجاوزة المقابلة للماديَّة . .

فرؤية بيجوفيتش هي الصحيحة ظاهرًا والأفضل . . لكن رؤية د. المسيري لها اعتبار آخر إن نظرنا لها من جهة أخرى . .

(د. المسيري: إنسان إنساني مقابل إنسان مادي) و(بيجوفيتش: إنسان ديني مقابل إنسان مادي مقابل إنسان مسلم) . .

**٢) الفارق في الرؤية المُتعمِّقة:**

تفكيك د. المسيري للماديَّة أعمق وأكثر كثافة معلوماتيَّة من حيث تتبع ظهورها كفلسفة . . وتفكيك بيجوفيتش لها أكثر جمالًا

في البيان والإيجاز وأفضل من حيث الانطلاق بدءًا بالرؤية الإسلاميَّة -لكنه أقل وأفقر من الأول معلوماتيًّا بما لا يقاس . .

**٣) رأيهما في التطور:**

د. المسيري وبيجوفيتش ليسا من علماء الطبيعة أو الأحياء . . لذا فقد انطلقا من الإيمان بتطور الإنسان من سلالات قرود . . ورؤيتهم للخلق مطابقة لفكرة الداروينيَّة المتأسلمة . . وهذا الأمر هو الظاهر من كلام د.المسيري . . لكنه عند بيجوفيتش واضح نصًّا في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب لأنه ناقش نظرية التطور . .

والتطور البشري بالتحديد عامَّة ضلال ليس له إثبات علميّ قطعيّ تجريبي . . وقد ناقشت هذا الأمر في كتاب (الداروينيّة المتأسلمة) فيُرجع إليه لمن رغب الاستزادة . .

وما يهمنا هنا أن من سيقرأ كتب د.المسيري عن الماديَّة والاستنارة والعلمانيَّة من حيث تاريخ الإنسان في الأرض . . ويقرأ كتاب بيجوفيتش -لابد أن ينتبه لهذه النقطة ويمر عليها سريعًا بلا اهتمام كبير، وبعدم اعتبار ضخم للاستنتاجات التي استخرجها بيجوفيتش بالذات من مناقشته لتلك النظريَّة . . فهي استنتاجات

لطيفة لكنها مبنيَّة على أصل فاسد: وهو ثبوت نظريَّة التطور . .

**٤) الفارق في رؤية الصراع الكوني:**

❋ د. المسيري رؤيته إنسانويَّة رومانسيَّة جدًا . . يريد أن (تجتمع الإنسانيَّة) ضد (الماديَّة الإمبريالية) لتقضي عليها . . وواضح لكل صاحب فهم أن الأصول الماركسيَّة لفكر د.المسيري ذات أثر واضح عليه هنا . . صورة جيفارا الثائر الأممي ضد الإمبرياليَّة هي الناتج الذي لم يتحدث عنه د.المسيري صراحةً في أغلب كتاباته . . ولن أتحدث كثيرًا عن عدم صحّة هذه الرؤية ومصادمتها للتاريخ وللواقع . . وهي طوباوية ونهاية تاريخ أخرى مُبطَّنة في فكر المسيري . .

وما كان عمله السياسي على أرض الواقع إلا نموذجًا واضحًا لتلك المثاليَّة غير الواقعيَّة (اشتراكه في حركة كفاية الجامعة لتوافقات أيدولوجيَّة متنافرة ضد نظام مبارك الوظيفي للإمبرياليَّة الماديَّة) . .

وهي الأيدولوجيَّة التي سقطت وأسقطت معها كل من آمن بها يومًا أو لهث وراءها . . فحين جدَّ الجدّ وحدثت الثورات ظهرت الاستقطابات وذهب كل صاحب دين أو مذهب إلى أصحاب دينه

ومذهبه أو تحالف مع كل قريب من دينه ضد عدوه ولو كان الأخير من حلفاء الرخاء . .

وتفسير د. المسيري للتاريخ ولظهور الإمبرياليَّة فيه نقطة عجيبة كامنة -وهي تجاهل سنن التدافع الإلهيّة واعتبار الصراع الأممي المعاصر هو نتاج الاستنارة والماديَّة! كأن الأرض قبل ظهور الفلسفة الماديَّة والعصر الاستعماري (الكولونيالي) كانت رياضًا يلعب فيه البشر ويقذفون بعضهم البعض بالمخمل والأزهار! بل يهاجم من فسروا التاريخ على أنه صراع بين الأمم (مثل هنتنجتون) معتبرًا تفسيراتهم أحد نواتج الفلسفة الماديَّة! ويبدو أنه لم ينتبه في هجومه على الثنائيات أن الإسلام أيضًا فيه ثنائية كلية عامة (مسلم - كافر)!

* رؤية بيجوفيتش إنسانيَّة كذلك لكنها (إسلاميَّة) وهذا التمييز مهم . . وظهر في حياة بيجوفيتش وسيرته المعروفة المشهورة . . فإسلاميته جعلته يرفض الاستمرار تحت لواء الصرب الصليبيين بمجرد ظهور أمل الانفصال عند تفكك الاتحاد اليوغسلافي في عهد ستامبوليتش وصعود نجم ميلوسوفيتش في بلجراد . . وخاض الحرب ضد صرب البوسنة بقيادة السفَّاحَين (ميلاديتش)

و(كرادزيتش) وحده في وسط حصار سراييفو المُهلِك . . فهو رجل مسلم صاحب أيدولوجيَّة صداميَّة أكبر من د. المسيري . .

ولكن هذا لا يجعلك أبدًا تنسى أن هناك كذلك شق (إنسانوي) في فلسفته جعله يبرز التوافق بين صرب البوسنة ومسلميها كحل للحرب التي لم يتخيَّل حجمها المخيف (يقول في أحد التسجيلات: لقد كنت أتوقع حربًا كبيرة وكنت مستعدًا لها . . لكني لم أكن أتوقع الإبادة!) وكان هذا هو مضمون اتفاق دايتون الأمريكي في النهاية . .

عامَّة رؤية بيجوفيتش وضحت من حياته العمليَّة وكانت بارزة جدًّا في كتابه الثوري المُتقدِّم (الإعلان الإسلامي):

أنا مسلم إنسانوي . . أريد أن تتوافق البشريّة والأديان لكن تحت راية الإسلام . . وإن كانت البوسنة مسلمة الأغلبية فلابد أن يكون حكامها هم المسلمون -والأديان المتعايشة معًا تنضوي تحت أمر حكامها . .

الخلاصة: من الواضح أي الفلسفات أقرب للإسلام وأيهما أبعدها عنه!

لكن لا بد ألا ننسى كذلك أن بيجوفيتش تحالف كثيرًا مع

الكروات ومع أمريكا وناشد العالم بأجمعه لمواجهة الصرب من ناحية إنسانية .. ففي الممارسة العمليَّة تخفف من صلابة أيديولوجيته كثيرًا ..

وإن كان الناتج النهائي هو ما كان يرغبه إلى حد كبير (ولن نتحدث عن جزئيات دايتون ولا عن ريببلكا صيربسكا) -فقد حصل على دولة يحكمها المسلمون ويعيش بداخلها الدينيون تحت أمره ..

**٥) الفارق في الأسلوب:**

كتابات د.المسيري موسوعيَّة لكن الأفكار متكررة والتطويل كثير والألفاظ مستوحشة وله ألفاظ خاصة به تحتاج إلى طول معاشرة لكتاباته كي يعرفها القارئ .. بل إن له اعتراف بتعمده هذا الأسلوب الملتوي المستوحش من مُذكِّراته (قصة بنائه لكومة الرمال على البحر مع ابنته ثم اختياره اسمًا يوحي بعمق مزيف لتلك الكومة) .. وليس هذا حادثًا في كتابات بيجوفيتش المترجمة بالطبع .. ولا نعرف كيف حالها في لغتها الأصلية ..

ولا مقارنة بالطبع بين ما كُتِب بالعربية وما تُرجِم؛ لكن عامَّةً جُمل بيجوفيتش أكثر وضوحًا في المغزى ..

**٦) الفارق بين بيجوفيتش ود.المسيري من حيث (الانتماء الفكري) والجرأة على الحديث في أمور الأحكام الشرعيَّة:**

* رؤية د. المسيري التفسيريَّة لأمور من صميم الدين الإسلامي (مثل العلمانيَّة) خارجة من انطلاقه الإنسانوي الخالص والذي يرغب في التوافق وإزالة التمييزات بين الناس .. لذا فلا تلتفت كثيرًا لها ولأحكامها الشرعيَّة: مثل زعمه أن العلمانيَّة الجزئيَّة إسلام واستدلاله الخاطئ -والمعتاد من العلمانيين- بحديث تأبير النخل على هذا الرأي .. ومثل نفيه المستمر للشر اليهودي العام ومحاولة تصويرهم مجرد جماعة إنسانيَّة فيها الجيد (الذي يريده أن يتخندق معه في مظلة الإنسان الإنسان) والمادي الصهيوني (الذي ينتمي إلى الفلسفة الماديَّة) بلا فارق عن أية أمة أخرى!

فلا تأخذ من د.المسيري الحكم الشرعي للعلمانيَّة .. ولا تأخذ منه الأحكام العامَّة عن اليهود والتي يخالفها الإسلام قطعًا في وصفه تلك الأمة عمومًا بالشرّ -فقط خذ تفسيراته وتفكيكه للماديَّة وظهور العلمانيَّة ومعرفة تاريخ اليهود وكلامه النظري عن الجماعات الوظيفيَّة والفيمينزم ..

ولا تنس أبدًا أن الرجل ليس بإسلامي وإنما التفَّ حوله

الإسلاميّون لغياب رؤية مواجِهة ومضادة للماديَّة والعلمانيَّة عندهم بمثل عمق رؤيته -فنسبه كثير منهم إلى (الإسلاميَّة) عنوةً!

هو مفكِّر إنساني بكل ما تحمله الكلمة من دلالات شرعيَّة!

* كفاك بيجوفيتش كل هذا الكلام وذكر مبدأيًّا في كتابه الأكبر والأشهر أنه ليس بعالِم وإنما هو مفكر مُسلم يطرح رؤية .. فهرب من إصدار الأحكام الشرعيَّة وأعباء تصدره فيما لا يحسن .. وهذه حركة ذكيَّة لم يحاول القفز فوقها أو التحايل عليها في كتاباته .. وهو يُعرِّف نفسه صراحة بأنه (إسلامي) وتاريخه لا يحتاج لطويل بيان لتلك النقطة!

**٧) مسالك الوصول لفهمهما:**

* بيجوفيتش له كتابين بارزين فيهما الرؤية الأيدولوجيَّة الواضحة والتفسير للفلسفة الكونيَّة .. وكل منهما يُقرأ على هذا التوالي:

كتاب الإعلان الإسلامي (بسيط وخفيف وسريع وثوري جامح) ..

ثم كتاب الإسلام بين الشرق والغرب (رزين وهادئ وتفكيكي للماديَّة وتفسيري للكون ومركزيّة الإسلام فيه).

❋ د. المسيري طريقه صعب لضرورة التعود عليه . . لكن أبرز كتاب يشبه (المانيفستو) له هو فكر حركة الاستنارة وتناقضاته . . إن فهمته كان متيسرًا عليك قراءة سِفر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة . . وله مُلحق بالمصطلحات الشهيرة المتكررة في كتاباته موجود في نهاية كتاب اللغة والمجاز (وهو كتاب ثقيل الظل إلى حد ما) . . وهناك (مانيفستو) آخر جامع لرؤيته في تاريخ ظهور الفلسفة العلمانيَّة الماديَّة في صفحات قليلة يقع في مقدمة كتيب (حركة التمركز حول الأنثى) . .

أما في رأيي أجمع وأجمل ما يمكن أن تقع عليه بعد تمكنك من فهم المصطلحات هو كتاب (الفلسفة الماديَّة وتفكيك الإنسان) . . ومنه ستكون قد فهمت الفلسفة الماديَّة إلى حد معقول جدًّا . .

كتاباته عن اليهود برغم اختلافي معها إلا أنها مميزة في السرد التاريخي وإبراز بعض الأفكار النافعة مثل نفي قصة كتيب حكماء صهيون وفكرة الشر اليهودي الماسوني العالمي وغير ذلك . .



## سيد قطب .. بين الغالين فيه والجافين عنه

**بقلم: محمد وفيق زين العابدين**

الأستاذ الأديب والداعية السياسي سَيِّد بن قطب بن إبراهيم بن حسين الشاربي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، ولد في التاسع من أكتوبر

---

(١) ترجم له: خير الدين الزركلي (٣/ ١٤٧: ١٤٨ الأعلام)، والدكتور سيد حُسَين عفاني (١/ ٤٤٤: ٤٥٠ سكب العبرات)، والدكتور يوسف القرضاوي والدكتور عبد الله عزام في مقدمة كتاب (لماذا أعدموني؟!)، وعمر بهاء الأميري في مجلة الشهاب ببيروت (العدد الرابع والعشرون، جمادى الأولى ١٣٩٤هـ)، ومجلة البيان (العدد الثالث والعشرون، جمادى الأولى ١٤١٠هـ، ص ٨)، ومجلة كلمة الحق (العدد الثاني، مايو ١٩٦٧م، السنة الأولى، ص ٤٠)، وصحيفة عكاظ (التاسع عشر من ذي القعدة ١٣٨٨هـ)، وصحيفة أخبار اليوم (الحادي عشر من سبتمبر ١٩٦٥م).

وممن أفرد في ترجمته: إبراهيم بن عبد الرحمن البليهي (سيد قطب وتراثه الأدبي والفكري)، وصالح الخالدي (سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر).

١٩٠٦م (شعبان ١٣٢٤هـ) في قرية (موشا) من أعمال محافظة أسيوط بصعيد مصر، وهو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات، وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل.

نشأ واشتد ساعده ودرس في قرية (موشا)، وفيها حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة، وفي سنة ١٩٢١م غادرها وهو في سن الرابعة عشرة ليكمل دراسته في القاهرة العاصمة، وفيها التحق بمدرسة المعلمين (عبد العزيز) الأولية، ثم انتقل إلى كلية (دار العلوم)، وفيها برزت مواهبه الأدبية إبان دراسته حتى إن أستاذه مهدي علام في تقديمه لرسالة (مهمة الشاعر في الحياة)، التي ألقاها قطب كمحاضرة في دار العلوم قال عنه: (لو لم يكن لي تلميذ سواه لكفاني ذلك سرورًا وقناعةً، ويعجبني فيه جرأته الحازمة التي لم تسفه فتصبح تهورًا ولم تذل فتغدوا جبنًا، وتعجبني فيه عصبيته البصيرة، وإنني أعد سيد قطب مفخرة من مفاخر دار العلوم).

ارتبط قطب رحمه الله في شبابه -إبان كونه طالبًا- بعباس بن محمود العقاد، وتتلمذه عليه، وكذا اتصل بحزب الوفد الذي كان العقاد أحد أعضاءه، والذي وجد فيه ضالته، ورأى فيه شبعًا

لرغباته السياسية وكبحًا للجام حنقه على الحكومة وزبانيتها، ونقمته على الأوضاع السياسية السائدة آنذاك مع حالة دينية متردية، الأمر الذي كان له أثر كبير في رفع مُكناته الأدبية والسياسية.

تأثر بالعقاد وطه حسين وحمل لواء المعارضة للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي ﷺ، وكان هجومه عليه عنيفًا، حتى إن الرافعي ﷺ لم ينج منه بعد موته، فقد نقده إثر موته نقدًا لاذعًا، فقام الأستاذ علي الطنطاوي ﷺ يدافع عن الرافعي، فقابله قطب برد مقذع حاد.

تخرّج ﷺ من كلية دار العلوم سنة **١٩٣٣**م[١]، ثم عُين مدرسًا للعربية في دمياط ثم بني سويف، ثم انتقل إلى حلوان بالقاهرة مدرسًا في مدرستها الابتدائية، وهنالك اشترى مسكنًا وانتقل وأسرته إليها لتصبح حلوان مُستقرًّا لإقامته، وذلك بعد وفاة والده، وما لبثت أن توفيت والدته بعد انتقالهم بقليل.

وقد كتب أولًا في المجلات الأدبية المشهورة: كالرسالة، والثقافة، والمقتطف، واللواء، كما كتب في صحيفة الأهرام، ثم

---

(١) وقال الزركلي في الأعلام (٣/ ١٤٧): سنة ١٩٣٤م.

أصدر في الأربعينيات عدة كتب، كما تولى رئاسة تحرير مجلة (الفكر الجديد) لصاحبها محمد حلمي المنياوي، وقد تدرج في وظائف التعليم حتى صار مفتشًا في التعليم الابتدائي سنة ١٩٤٤م، ثم انتقل إلى الإدارة العامة للثقافة التي كان يرأسها أحمد أمين.

وقد اتصل قطب رحمه الله بجماعة الإخوان المسلمين منذ سنة ١٩٤٦م، وبدأت بالازدياد تدريجيًا خاصةً مع نشوب حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م.

وفي نوفمبر ١٩٤٨م أُرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بعثة تدريبية لدراسة برامج التعليم هناك، وقد أكسبته هذه البعثة خبرة واسعة بطبائع الناس هناك وأساليبهم في الحياة، وعن هذه الرحلة سجل كتابات منها مقال بعنوان (أميركا التي رأيت) في مجلة (الرسالة)، وفيه يصف هذه البلد بأنه: (شعب يبلغ في عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء، بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى، بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك)، وله مقال آخر بعنوان (إسلام أمريكاني) ضمن كتابه (دراسات إسلامية)، وقد جمع هذه المقالات والكتابات أحد المهتمين بمصنفات الأستاذ قطب رحمه الله

في كتاب أسماه (أميركا من الداخل بمنظار سيد قطب).

عاد من الولايات المتحدة في أغسطس **١٩٥٠**م[(١)]، ليعمل موظفًا بديوان وزارة المعارف، ثم مراقبًا فنيًّا، إلا أنه نُقل أكثر من مرة، إذ كان يطالب بتغيير مناهج التعليم التي كان يرى أنها من وضع الإنكليز، تغييرًا يتمشى والفكرة الإسلامية، وازداد الأمر سوءًا بعدما تأكدت صلته بجماعة الإخوان المسلمين التي توثقت علاقته بها منذ سنة **١٩٥٢**م، فنشبت بينه والملك فاروق -حاكم مصر آنذاك- معارك سياسية، مبعثها طغيان الأخير وفساد الأحزاب وهيمنة المستعمر الإنكليزي، كل هذا وطد علاقته بضباط ثورة يوليو **١٩٥٢**م، الذين تعرفوا عليه وأعجبوا به، وقامت بينهم وبينه علاقات، واستعانوا به وغيره من جماعة الإخوان على الاستيلاء على الحكم حتى إن فاروق كتب في مذاكرته: (إن الإخوان المسلمين هم الذين قلبوا عرشي .. وما كان ضباط الثورة إلا أُلعوبة بأيديهم).

وبعد قيام الثورة واستيلاء القائمين بها على الحكم، وفي

---

(١) وقال الزركلي في الأعلام (٣/ ١٤٧): سنة **١٩٥١**م، والراجح ما أثبته نقلًا عن أكثر مصادر الترجمة.

أغسطس ١٩٥٢م أعدّ رجال الثورة حفلًا لتكريم الأستاذ قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي استمدوا منه قوتهم وارتفعت بكلماته معنويتهم، وفي الحفل قال قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مشيرًا إلى هاجس كان في صدره: (.. ولقد كنت في عهد الملكية، مهيئًا نفسي للسجن في كل لحظة، وما آمن على نفسي في هذا العهد أيضًا، فأنا في هذا العهد مُهيأ نفسي للسجن ولغير السجن أكثر من ذي قبل)[1].

أُختير قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستشارًا لمجلس قيادة الثورة، ثم أمينًا عامًا مساعدًا لمديرية التحرير، ورشح لتقلد منصب وزير المعارف، لكنه رفض المنصب لما لمس سوء نوايا قادة الثورة، وأدرك بأنهم ليسوا جادين في تحكيم شرع الله، وارتاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اتصالاتهم المشبوهة بدول الكفر، فقدم استقالته في أكتوبر ١٩٥٢م.

وفي أول سنة ١٩٥٣م دُعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليشارك في تشكيل الهيئة

---

(١) وهنا وقف جمال عبد الناصر قائلًا بصوت جهوري: (أخي الكبير سيد، والله لن يصلوا إليك إلا على أجسادنا جثثًا هامدة، ونعاهدك باسم الله، بل نجدد عهدنا لك: أن نكون فداءَك حتى الموت)، ومما يُثير العجب أن عبد الناصر الذي أقسم على هذا، هو الذي طارد قطب، وفعل به ما نطق به قطب في هذا الحفل بعد قيام الثورة وقبل أربعة عشر عامًا من يوم حُكم عليه بالإعدام.

التأسيسية لجماعة الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة، ثم فيما بعد صار رئيسًا لتحرير صحيفة الجماعة في الفترة ما بين عامي ١٩٥٣/ ١٩٥٤م.

وقد خاض قطب رحمه الله معركة سياسية أخرى شبيهة بالتي خاضها مع فاروق حاكم مصر وأعوانه، إلا أنها كانت مع طرف آخر وهو جمال عبد الناصر وقادة الثورة[١]، انتهت باعتقاله سنة **١٩٥٤**م ثم أُفرج عنه، وما لبث أن عاد في العام نفسه إلى المعتقل بعد (حادث المنشية) ضمن ألف نفس اقتيدت إلى المعتقل، حيث اتهموا بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر حاكم مصر، وأحيل إلى (محكمة الشعب) حيث حُكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا مع الأشغال الشاقة، وقد ذاق خلال الأعوام التي قضاها في السجن

---

(١) يقول خالد محيي الدين أحد أقطاب ثورة يوليو يصور رؤية النظام لقطب رحمه الله: (كان سيد قطب قلب الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحًا، ومن العجيب أنه انقلب - بعد قيام الثورة: ناقمًا متمردًا على كل ما يحدث حوله، لا يراه إلا جاهلية مظلمة)، وليس في الأمر عجب كما قال، وإنما مبعث نقمة قطب رحمه الله وتمرده -كما ذكرنا- أنه لمس سوء نوايا قادة الثورة، وأدرك بأنهم ليسوا جادين في تحكيم شرع الله، وارتاب في اتصالاتهم المشبوهة بدول الكفر.

ألوانًا من التعذيب والتنكيل الشديدين، حتى مايو **١٩٦٤**م حيث أُفرج عنه بعفو صحي إثر شفاعة عبد السلام عارف حاكم العراقي وغيره.

والحق أن جمال عبد الناصر ما وافق على العفو عن قطب ﷺ والإفراج عنه إلا بعدما تيقن أن سيد قطب قد أنهكه المرض وانكسر فأضحى حطام إنسان لا يقوى على الكلام أو الكتابة أو إثارة الناس بأي وسيلة.

بيد إن قطب ﷺ كان -كما قال عن نفسه- قد أضحى خيرًا من أيِّ وقتٍ مضى في إيمانه وأفكاره، فما لبث أن أخرج كتابه (معالم على الطريق) إلى النور الذي نفذت طبعته الأولى في وقت قصيرٍ جدًّا وهو الكتاب الذي أثار حفيظة الحكومة المصرية.

وفي نهاية يوليو **١٩٦٥**م قُبض على أخيه محمد قطب، فبعث سيد ﷺ برسالة احتجاج إلى رجال المباحث، على إثرها اُعتقل في التاسع من أغسطس من ذات العام، وقُدم وآخرين للمحكمة العسكرية بقيادة الفريق الدجوي بزعم اشتراكهم في تنظيم سري يسعى نحو قلب نظام الحكم في مصر، فحُكم عليه وسبعة آخرين

من قيادي الإخوان ومعارضي عبد الناصر[1] بالإعدام في محاكمة عاسفة غير عادلة.

ومن كلماته الباسلة في هذه المحاكمة قوله: (لقد عرفتُ أن الحكومة تريد رأسي هذه المرة، فلست نادمًا، ولا متأسفًا لوفاتي، وإنما أنا سعيد للموت في سبيل دعوتي)، وقوله في تقريره الذي كتبه لهيئة المحكمة: (إنه آن أن يقدّم إنسان مسلم رأسه ثمنًا لإعلان وجود حركة إسلامية)[2].

ولما سُئل عن صراحته أثناء المحاكمة، قال: (ليس للقائد أن يأخذ بالرُّخص).

وحين ساوموه ليرجع عن موقفه في معاداة الحكومة والدعوة إلى تحكيم شرع الله تعالى، قال: (لماذا أسترحم؟! إن سُجِنتُ بحقٍ، فأنا أرضى حُكمَ الحق، وإن سُجِنتُ بباطلٍ، فأنا أكبرُ من أن أسترحم الباطل!! إن إصبع السبابة الذي يشهدُ لله بالوحدانية في الصلاة ليرفضُ أن يكتبَ حرفًا يقر به حكم طاغية)[3].

---

(١) منهم: يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل رحمهما الله.
(٢) لماذا أعدم سيد قطب وإخوانه؟ (٢).
(٣) لماذا أعدموني؟ (٧).

ولما سيق إلى المشنقة لتنفيذ حكم الإعدام، وتقدم إليه أحد مشايخ الدولة الذين يمثلون عادةً ليلقنوا الذي سيعدم الشهادتين فقال: (يا سيد قُل: أشهد أن لا إله إلا الله . . )، أجابه قطب ﷺ: (يا بُني نحن نُعدم لأننا نقول لا إله إلا الله، وأنتم تأكلون خبزًا بلا إله إلا الله)[1].

وفي مطلع صباح الاثنين التاسع والعشرين[2] من أغسطس ١٩٦٦م (الثالث عشر من جمادى الأولى ١٣٨٦هـ) نُفذ في قطب حكم الإعدام، تغمده الله بواسع الرحمة والمغفرة.

وقد أثار إعدام قطب ﷺ غضب شعوب كثيرة في عدد من البلدان، ونَعَته الصحف والمجلات العربية والإسلامية، وصلى عليه الناس في عدد من الدول صلاة الغائب.

وفي العام التالي عندما وقعت (النكسة) في حرب المصريين مع اليهود قال علال الفاسي الزعيم المغربي كلمته المشهورة: (ما

---

(١) لماذا أعدموني؟ (٥٢).

(٢) وقيل في السادس والعشرين (مجلة البيان، العدد الثالث والعشرون، جمادى الأولى ١٤١٠هـ، ص٨)، وقيل في الثامن والعشرين (١/ ٤٤٨ سكب العبرات)، وما ذُكر هو الصواب، والله تعالى أعلم.

كان الله لينصر حربًا يقودها قاتل سيد قطب).

قطب ﵀ كان ولا زال الشيخ الذي احتدم الخلاف حوله وحول كتاباته، والعلماء والعوام بين غالين فيه، وجافين عنه .. والحق أنه رجلٌ فاضلٌ بذل للإسلام من وقته وماله ونفسه على نحو قلَّ أن يُبذل مثله ممن كان في شهرته ومكانته، لكنه كسائر الفضلاء بشر، يُحسن ويُخطأ، فكل إنسان يُأخذ من قوله ويُرد عليه.

وقد كان ﵀ يمتاز بأسلوب أدبي قوي في كتاباته جذب إليه المفكرون والأدباء بجميع مستوياتهم الثقافية ومراحلهم العمرية، ولا زال العلماء والفضلاء في شتى بقاع الأرض يذكرون أفعاله وصبره على الأذى، ويَستشهدون بأقواله الرقراقة العذبة، من ذلك استشهاد الشيخ الألباني ﵀ في تعليقه وتحقيقه لكتاب (مختصر العلو) بكلامه في سبب غياب الجيل القرآني بقوله: (ولقد تنبه لهذا أخيرًا بعض الدعاة الإسلاميين فهذا هو الأستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله تعالى، فإنه بعد أن قرر تحت عنوان (جيل قرآني فريد) أن هذه الدعوة أخرجت جيلًا مميزًا في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه، وأنها لم تعد تخرج من ذلك الطراز مرة أخرى، تساءل عن السبب مع أن قرآن هذه الدعوة لا يزال وحديث

الرسول وهديه العملي وسيرته الكريمة كلها بين أيدينا كما كانت بين يدي ذلك الجيل الأول ولم يغب إلا شخص رسول الله ﷺ؟!

فأجاب بأنه لو كان وجود شخص رسول الله ﷺ حتميًّا لقيام الدعوة وإيتائها ثمراتها ما جعلها الله دعوة للناس كافة، وما جعلها آخر رسالة، وما وكل إليها أمر الناس في هذه الأرض إلى آخر الزمان . .)[1].

وإلى اليوم لا زال شباب الأُمة يتغنون بأبيات قصيدته (أخي) فتوقد في قلوبهم الحماسة وتُثير في نفوسهم الرغبة على البذل والتضحية لهذا الدين؛

**أخي أنت حرٌّ وراء السُّدود**

**أخي أنت حرٌّ بتلك القيود**

**إذا كنت بالله مستعصمًا**

**فماذا يضيرُك كيدُ العبيد**

**أخي هل تراك سَئمتَ الكفاح**

**وألقيتَ عن كاهِليكَ السِّلاح**

---

(١) مختصر العلو (١/ ٥٨).

فمن للضحايا يُواسي الجراح

ويرفعُ راياتها من جديد

أخي إنني اليوم صَلبُ المراس

أدُكُّ شموخَ الجبالِ الرَّوَاس

غدًا سأشيح بفأس الخلاص

رؤوس الأفاعي إلى أن تبيد

أخي إن ذرَفتَ عليّ الدموع

وبللت قبري بها في خُشوع

فأوقِد لهم من رُفاتي الشموع

وسيروا بها نحو مجدٍ تليد

أخي إن أنا مُت نلقَ أحبابَنا

فرَوضاتُ ربِّي أُعَدَّت لنا

وأطيارُها رفرفَت حولَنَا

فطوبى لنا في ديارِ الخلود

أخي إنني ما سئمتُ الكفاح

ولا أنا ألقيتُ عني السلاح

**فـإن أنـا مـتُّ فـإنـي شـهـيـد**

**وأنـتَ سـتـمـضـي بـنـصـرٍ مـجـيـد**

**سـأثـأر لـكـن لـربٍّ وديـن**

**وأمـضـي عـلـى سُـنّـتـي فـي يـقـيـن**

**فـإمَّـا إلـى الـنـصـرِ فـوقَ الأنـام**

**وإمّـا إلـى الـلـه فـي الـخـالِـديـن**

**أخـي فـامـضِ لا تـلـتـفـت لـلـوراء**

**طـريـقُـك قـد خـضَّـبـتـه الـدِّمـاء**

**ولا تـلـتـفـت هـا هـنـا أو هـنـاك**

**ولا تـتـطـلـع لـغـيـر الـسـمـاء**

أما زعم البعض بأن قطب ﷺ كان له أفكار تُخالف عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ومنهجهم في الدعوة والإصلاح[1]، فهذا مما

---

(١) ومن أكثر كتب الأستاذ قطب ﷺ التي زعم أن ما فيها من مخالفات لعقيدة أهل السُّنَّة كتابي (العدالة الاجتماعية)، (في ظلال القرآن)، ومن الكتب التي عنيت برصد هذه المخالفات؛ (المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال) لعبد الله بن محمد الدويش (١٣٧٣: ١٤٠٩هـ)، (العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم)، (نظرات في كتاب التصوير الفني في القرآن الكريم) وكلاهما لربيع بن هادي عمير المُدخلي. =

غالى فيه البعض، إذ لم يُراعوا أسلوبه الأدبي وحماسه لهموم المسلمين وقضاياهم، يقول الدكتور عبد الله عزام رحمه الله: (لقد حز في النفوس أن يُنسب القول بوحدة الوجود إلى الأستاذ سيد الذي جلى حقيقة التوحيد من كل غبش، بل ركز معظم كتاباته على شرح معنى لا إله إلا الله، ونقل المعنى النظري للتوحيد إلى واقع حي متمثل في سلوك وحركات ودماء وتضحيات، ولقد كانت حياته المليئة بصور الاعتزاز بالله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه خير شاهد على أن توحيد الربوبية -التوحيد العملي والنظري في القلب والنفس، توحيد المعرفة والإثبات- قد جمع معه توحيد الألوهية -التوحيد العملي بالفعل- في واقع الحياة مشاعر وشعائر وكلمات ومواقف، حتى غدا المؤمن بهذا التوحيد كالشم الرواسي لا تزعزعه قوى الأرض، ولا يهزه جبروت الطغيان)[1].

---

= وقد انبرى الشيخان عبد الله عزام وبكر بن عبد الله أبو زيد رحمهما الله للرد على الاتهامات التي وجهت للأستاذ قطب رحمه الله والشبه التي أُلصقت به، وحملا كلامه المُبين على كلامه المجمل وكلامه الموضح على كلامه المبهم ليؤكدا صفاء عقيدة قطب رحمه الله.

(١) لماذا أعدموني؟ (٤٢).

ويقول الشيخ الألباني رحمه الله: (في كلام سيد قطب رحمه الله وفي بعض تصانيفه مما يُشعر الباحث أنه كان قد أصابه شيء من التحمس الزائد للإسلام في سبيل توضيحه للناس، ولعل عذره في ذلك أنه كان يكتب بلغة أدبية، ففي بعض المسائل الفقهية كحديثه عن حق العمال في كتابه (العدالة الاجتماعية) أخذ يكتب بالتوحيد، وبعبارات كلها قوية تُحيي في نفوس المؤمنين الثقة بدينهم وإيمانهم، فهو من هذه الخلفية في الواقع قد جدّد دعوة الإسلام في قلوب الشباب، وإن كنَّا نلمس أحيانًا أن له بعض الكلمات تدل على أنه لم يساعده وقته على أن يحرر فكره من بعض المسائل التي كان يكتب حولها أو يتحدث فيها)[1].

فإذا أضفنا إلى الأسلوب الأدبي والحماسة الدينية ضغوط الحقبة الزمنية التي كانا يعيش فيها قطب رحمه الله، إذ كانت الغربة شديدة، وتصدي قطب وأقرانه من أهل العلم رحمهم الله للدعوة كان في مواجهة قوى كثيرة خارجية[2] . . . . . .

---

(١) نقله عن الشيخ الألباني الشيخ بكر أبو زيد رحمهما الله في معجم المناهي اللفظية.

(٢) من احتلال واستعمار للبلاد الإسلامية، واعتداء على حرمات المسلمين وأعراضهم ومقدساتهم.

وداخلية[1] تُعادي الإسلام وأهله.

ومع ذلك فإذا كان في كلام قطب رحمه الله بعض المخالفات أو الأخطاء، فهو في النهاية بشر يُؤخذ من قوله ويُرد، يقول العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله: (من قواعد الشرع والحكمة أن من كثُرت حسناته وعظُمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يُحتمل له ما لا يُحتمل لغيره، ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره، فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قُلتين لم يحمل الخبث، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**وما يُدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[2]، وهذا هو المانع له ﷺ

(١) من سن وتحكيم للقوانين الوضعية وتبديل بقايا شرع الله بغيرها من الشرائع والأنظمة الوضعية، ومن انحرافات وبدع لبعض الفرق الضالة التي كانت منتشرة آنذاك، وكان لها وقع كبير وتأثير عظيم في نفوس الناس عامةً.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٠٧/ الجهاد)، ومسلم في صحيحه (٢٤٩٤/ فضائل الصحابة) كلاهما من حديث علي رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال له والزُّبير والمِقداد بن الأسود رضي الله عنهم: «**انطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنهَا**»، يقول علي رضي الله عنه؛ (فَانطَلَقنَا تَعَادَى بِنَا خَيلُنَا حَتَّى انتَهَينَا إِلَى الرَّوضَةِ، فَإِذَا =

من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدرًا، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات، ولما حض النبي ﷺ على الصدقة، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال: «ما ضر عثمان ما عمل بعدها»، وقال لطلحة رضي الله عنه لما طأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: «**أوجب طلحة**»، وهذا موسى عليه السلام كليم الرحمن عز وجل: ألقى الألواح

---

= نَحنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلنَا: أخرجي الكِتَابَ، فَقَالَت: مَا معي مِن كِتَابٍ، فَقُلنَا لَتُخرِجِنَّ الكِتَابَ أَو لَنُلقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخرَجَتهُ مِن عِقَاصِهَا، فَأَتَينَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ مِن حَاطِبِ بنِ أَبِى بَلتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشرِكِينَ مِن أَهلِ مَكَّةَ، يُخبِرُهُم بِبَعضِ أَمرِ رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: «**يَا حَاطِبُ مَا هَذَا**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ تَعجَل عَلَيَّ، إني كُنتُ امرَءًا مُلصَقًا في قُرَيشٍ، وَلَم أَكُن مِن أَنفُسِهَا، وَكَانَ مَن مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُم قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحمُونَ بِهَا أَهلِيهِم وَأَموَالَهُم، فَأَحبَبتُ إِذ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِم أَن أَتَّخِذَ عِندَهُم يَدًا يَحمُونَ بِهَا قرابتي، وَمَا فَعَلتُ كُفرًا وَلاَ ارتِدَادًا وَلاَ رِضًا بِالكُفرِ بَعدَ الإِسلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَد صَدَقَكُم**»، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعنِي أَضرِب عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ: «**إِنَّهُ قَد شَهِدَ بَدرًا، وَمَا يُدرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَن يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهلِ بَدرٍ فَقَالَ اعمَلُوا مَا شِئتُم، فَقَد غَفَرتُ لَكُم**».

التي فيها كلام الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض حتى تكسرت، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ فقال: «**شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي**»، وأخذ بلحية هارون عليه السلام وجره إليه وهو نبي الله، وكل هذا لم ينقص من قدرة شيئًا عند ربه، وربه تعالى يُكرمه ويُحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره والأذى الذي أوذيه في الله، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور، ولا تغير في وجهه ولا تخفض منزلته.

وهذا أمر معلوم عند الناس مُستقر في فطرهم؛ أن من له ألوف من الحسنات فإنه يُسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، كما قيل:

**وإذا الحبيب أتى بذنب واحد**

**جاءت محاسنه بألف شفيع**

وقال آخر:

**فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا**

**فأفعاله اللاتي سررن كثير**

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة والذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعهم أحيانًا من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم)[1].

وأما مصنفات قطب رحمه الله، فتتبع التغيرات الكبيرة في حياته الاجتماعية رحمه الله له أبلغ الأثر في فهم كلامه وكتاباته، فإننا نستطيع أن نقسمها بحسب مراحله العمرية ونضوجه العلمي والأدبي[2] إلى ثلاثة أقسام:

كتب ألفها في بداية عمره، وقبل الرحلة إلى الولايات المتحدة، ومنها:

(١) التصوير الفني في القرآن الكريم.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٦ : ١٧٧).

(٢) آية ذلك أنه يقول عن نفسه وتصوراته في رسالة أرسلها من خلف أسوار السجن: (أمّا أنا فأجدني خيرًا من أيِّ وقتٍ مضى، في عقيدتي وإيماني، وفي وضوح هذه العقيدة وهذا الإيمان في نفسي .. وفي وضوحِ إدراكي وتصوري لهذا الأمرِ ومقتضياته .. ووضوحِ الهدفِ والوسيلةِ والطريقِ والغاية).

(٢) طفل من القرية (سيرة ذاتية).

(٣) كتب وشخصيات.

(٤) النقد الأدبي: أصوله، مناهجه.

(٥) العدالة الاجتماعية في الإسلام.

(٦) مشاهد القيامة في القرآن.

وكتب ألفها بعد العودة من الولايات المتحدة، وقبل اعتقاله:

(٧) معركة الإسلام والرأسمالية.

(٨) السلام العالمي والإسلام.

(٩) دراسات إسلامية.

وكتب ألفها في فترتي اعتقاله وبينهما، وهي التي كتبها في آخر سنين عمره، وتُمثل أهم كتاباته:

(١٠) معالم على الطريق.

(١١) المستقبل لهذا الدين.

(١٢) هذا الدين.

(١٣) خصائص التصور الإسلامي.

(١٤) الإسلام ومشكلات الحضارة.

(١٥) في ظلال القرآن (تفسير للقرآن الكريم).

ومن مصنفاته أيضًا والتي لم أستطع تمييز الحقبة الزمنية لتصنيفها:

(١٧) قضية فلسطين.

(١٨) قصة المدينة المسحورة.

(١٩) قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة.

(٢٠) وظيفة الفن والصحافة.

(٢١) أين الطريق؟.

(٢٢) الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية.

(٢٣) هل نحن متحضرون؟.

(٢٤) أين أنت يا مصطفى كامل؟.

(٢٥) فلنعتمد على أنفسنا.

(٢٦) ضريبة الذل.

(٢٧) أشواك.

(٢٨) كيف وقعت (مراكش) تحت الحماية الفرنسية؟.

(٢٩) دعوة الأخوان المسلمون وعبقرية بناء جماعتها.

(٣٠) الأطياف الأربعة.

وله مقالات وكتابات ورسائل عديدة منثورة في الصحف والمجلات، جُمع الخاص منها برحلته ومشاهداته في الولايات المتحدة في كتاب بعنوان (أميركا من الداخل بمنظار سيد قطب)، كما جُمع الخاص منها بعلاقاته بجماعة (الإخوان المسلمين) وأسباب اعتقاله -وجُلها كتبها من وراء القضبان- في كتاب (لماذا أعدموني؟!)[١] الذي نُشر بعد إعدامه وقدم له الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور عبد الله عزام رحمه الله.

وله قصائد عدة منها: الصبح يتنفس، حدثيني، هم الحياة، هتاف الروح، أخي، تسبيح، جُمعت في ديوان له طُبع بعد موته.

---

(١) ولا زال هذا الكتاب إلى اليوم يكتنفه الغموض، حيث حوى وثيقة بعلاقات قطب رحمه الله بجماعة (الإخوان المسلمين) وبعض التنظيمات والعمليات، وهذه الوثيقة وإن كانت قد وصلت إلى يد ناشرها والمتتبعين لآثار قطب رحمه الله بخطه، إلا أنهم جزموا بنقصانها وأنها تداولت مرارًا بأيدي رجال الضبط والمحققين على نحو يمكن القول معه بأنها زورت وحُرفت وزيد فيها ونقص بقصد تشويه سيرة قطب رحمه الله أو غيره، فالشك الذي يحيط بهذه الوثيقة يحمل المنصف على طرحها ما خلا ما تأيد منها بثمة بينة أخرى، والله تعالى أعلم.

وقد انتشرت كتب الأستاذ قطب ﵀ انتشارًا واسعًا، خاصةً بعد إعدامه، وتُرجم كثير منها إلى غير اللغة العربية، وكان ﵀ يكتب في مجالات عديدة، إلا أن الجانب الاجتماعي وقضية الدعوة استأثرتا بنصيب الأسد من جملة كتاباته.

وكانت كتاباته ﵀ جزلة، ألفاظها سهلة، كالتباشير مسموعة، وأزاهير الرياض مجموعة، كلامه يسر المحزون، ويُسَهل الحُزون[1]، فمن بديع كلامه في الدعوة ومخاطبة الناس: (وحين ندرك حقيقة الإسلام، فإن هذا الإدراك بطبيعته سيجعلنا نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة .. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق، وأن ما عليه الناس هو الباطل، وعطف الذي يرى شقوة البشر وهو يعرف كيف يسعدهم، ورحمة الذي يرى ضلال الناس وهو يعرف أين الهدى الذي ليس بعده هدى .. لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسسًا، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة .. سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة .. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس، والله يريد أن يطهركم .. هذه الأوضاع التي أنتم فيها

(١) **الحُزون**: جمع الحَزْن: ما غلُظ من الأرض.

خبث، والله يريد أن يطيّبكم .. هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يريد أن يرفعكم .. هذا الذي أنتم فيه شقاء وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم .. والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها).

ويقول في سبب قوة التعبير وحيويته: (إن السر العجيب في قوة التعبير وحيويته ليس في بريق الكلمات والعبارات، وإنما هو كامن في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلول، وإن في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية، والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس).

ويقول في خطورة الكلمة وأهميتها: (إنه ليس كل كلمةٍ تبلُغُ إلى قلوب الآخرين، فتحركُها وتجمعُها وتدفعُها .. إنها الكلماتُ التي تقطرُ دماء، لأنها تقتاتُ قلب إنسانٍ حي .. كل كلمةٍ عاشت قد اقتاتت قلب إنسان .. إن أصحابَ الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئًا كثيرًا، ولكن بشرطٍ واحد أن يموتوا هم لتعيش أفكارُهُم .. أن يُطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم .. إن

أفكارنا وكلماتنا تظلُ جُثثًا هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء، انتفضت حية وعاشت بين الأحياء)[1].

ويقول في ضرورة الإيمان ورجوع الناس إلى ربهم حتى ينصلح حالهم: (لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة، ولا طهارة، ولا تناسق مع سُنَن الكون وفِطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله له صورة واحدة، وطريق واحد، واحد لا سواه، إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده في شئونها، وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة)[2].

وقد رثاه يوسف العظم بأبيات مؤثرة .. تلهب الحماس، جاء فيها:

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر (١١٨).
(٢) في ظلال القرآن (١/٨).

اكـــتـــب حـــيـــاتـــكَ بـــالـــدَّم
واصـــمـــت ولا تَـــتَـــكـــلِّـــمِ

فـالـصـمـتُ أبـلـغُ فـي جـراحِ
الـــحـــادثـــاتِ مـــن الـــفَـــمِ

والـــصـــمـــتُ أقـــوى مـــن
رنـيـنِ الـقـيـدِ حـول الـمِـعـصَـمِ

والـــصـــمـــتُ أكـــرمُ عـــنـــد
رَبـــكَ مـــن سَـــفـــاهَـــةِ مـجـــرمِ

إِن تـاهَ بـالـظُّـلـمِ الـغـشـوم ..
فَـــتِـــه بـــعـــزّةِ مـــســـلـــمِ

ولـئـن خَـطـوتَ إلـى الـعـلـى
فـــعـــلـــى حـــيـــاهِ الأنـــجُـــمِ

اكـتـب حـيـاتـك بـالـيـقـيـن
واسـلـك دروب الـصـالـحـيـن

وظـلام سـجـنـك فـي فـؤادك
غُـــرَّةُ الـــصـــبـــحِ الـــمُـــبـــيـــن

إِن طـأطـأ الـبـاغـي الـجـبـيـنَ

فــأنـــتَ وضـــاءُ الـــجــــبـــيــــن

أو عـــربـــد الـــجـــلّادُ يـــومــًا

واســـتـــبـــدَّ بـــغـــيـــرِ ديـــن

فـلأنـت حـصـنٌ لـلـعـقـيـدة

لا يَـــــذِلُّ ولا يـــــلـــــيـــــن

اكـــتـــب حـــيـــاتـــك بـــالألـــم

واصـــرع عـــدوَّكَ بـــالـــقَـــلَـــم

فـمـدادُه أقـسـى عـلـى صـدرِ

الـــغـــشـــومِ مـــن الـــسَّـــقَـــم

وسـطـوره فـيـهـا الـبـراكـيـنُ

الـــتـــي تُـــلـــقـــي الـــحِـــمَـــم

فـــي وجـــهِ (فـــرعـــون) الـــذي

داس الـــكـــرامـــة مُـــذ حـــكـــم

وقـسـا عـلـى شـعـبٍ ضـعـيـفٍ

بـــاعـــه بـــيـــع الـــنَّـــعَـــم

جـــلاّدُه الـــمـــأفـــون لَـــم

يَــذُقِ الــســكــيــنــةَ أو يَــنَــم[1]

قد مضى سيد قطب إلى ربه بسجل حافل في البذل لدينه، والدعوة لشريعته، والصبر على الأذى دون ذلك حتى فاضت روحه إلى بارئها، فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، وآخرته خيرًا من دنياه.



---

(١) قصيدة (بسمة الشهيد الصامت)، من ديوان (في رحاب الأقصى) ليوسف العظم، (ص ٩٥ : ٩٨).

## الجهاد دواء الفساد

**بقلم: محمد إلهامي**

لو أن الناس يهتدون بمجرد بيان الحق لما احتاج النبي أن يحمل السيف . .

بل ولما احتاج أحد من المصلحين أن يجاهد ويعاني، ولما تعرض أحدهم للنكال والعذاب . .

بل ولاختفى من التاريخ الإنساني كافة مظاهر العشيرة والعصبية والعائلة والقبيلة، ولما ظهر في الدنيا شيء اسمه «دولة» أو «إمبراطورية» أو «نظام عالمي» . .

لو أن الناس يهتدون بمجرد بيان الحق لما احتاجت الدول إلى أجهزة أمن واستخبارات وجيوش، ولا كان في الدنيا سلاح وقتال وعساكر ومعدات حربية وأسلحة فتاكة . .

لكن كل هذا ظهر؛ لأن الحقيقة أن مجرد بيان الحق للناس لا

يعني اهتداؤهم إليه، الحقيقة ببساطة تقول إن مجرد «وجود» الحق وحده لا يكفي!!

الإنسان يعلم من نفسه وذاته أنه لا يلتزم بكل ما يعرف أنه الحق، بل ربما ارتكب الذنب والخطيئة والجريمة وهو يعلم أنه ذنب وخطيئة وجريمة . .

والأصح أن نقول إن الذين لا يستسلمون لرغباتهم ويكبحون جماح أنفسهم وشهواتهم وطغيان نفسهم إنما هم القلة الفاضلة، بينما الكثرة الغالبة لا يردعها عن الخطيئة والجريمة إلا العجز والخوف من العاقبة والعقوبة.

الإنسان إنما هو مسرح لمهمة الشيطان الذي قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ **[الأعراف: ١٦، ١٧]**.

والمفاجأة أن غالب البشر ينجح معهم الشيطان ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقد قال النبي ﷺ: «**إنه من كل مائة** (وفي رواية: **من كل ألف**) **سيدخل الجنة واحد فقط**»!!

فإذا كان ذلك في الإنسان نفسه، فهو في حالة الدول أشد وأخطر، إذ هي مظنة اجتماع الشهوات والرغبات والمطامح والمطامع، وشهوة المُلك والسلطة أقوى من شهوات الفرد بنفسه، حتى قالت العرب «المُلك عقيم»، إذ في سبيل الملك يقتل الرجل ابنه أو أباه أو أخاه فضلا عن أبناء عمومته وأهل عشيرته، فأما قرار قتل الناس فهو أسهل ما يأخذه المتسلط تمكينا لحكمه وإرساء لملكه، وإذا كان قرار قتل الأقربين سهلا فكيف بالإغارة على الأباعد؟! وإذا كانت المؤامرة تدبر للتخلص من الأقوياء والأذكياء فكيف إذا كان الخصم ضعيفا مهيض الجناح سهل المأخذ؟!

وإذا كانت رابطة الدم والعصبية وسنوات الوداد والوصال وأزمان العشرة والصحبة والفضل القديم، إذا كان كل ذلك لا يقف مانعا أمام رغبة فاسدة، فكيف نتوقع أن يكون الوعظ والبيان والنصح كافيا في تغيير الحال وردع المجرم وكبح جماح الفساد؟!!

قد يبلغ الجرح من الفساد ما لا يكون له دواء إلا الكيّ، وقد يبلغ المرض من التمكن ما لا يكون علاجه إلا البتر، وكذلك الفساد في النفوس والعقول والأمم قد يبلغ حدا لا يصلح له إلا الحسم!

إن ضلال النفس قد يحمل على غرائب مدهشة؛ فإن هؤلاء الذين عبروا البحر بمعجزة كونية هائلة، بجسر تكون فعبروا عليه ثم تلاشى فأغرق عدوهم، هؤلاء لم يلبثوا إلا قليلا حتى قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولو لم يكن عندهم نبيهم الذي ردعهم بقوة وحسم لاتخذوا صنما وعبدوه في تلك اللحظة!

بل ذلك ما فعلوه حين غاب عنهم أياما ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ولم ينفع معهم حينئذ وجود نبي الله هارون فلقد استضعفوه حتى أوشكوا أن يقتلوه، وما انتهى الباطل إلا حين أتى موسى -النبي القوي المُهاب- فحرق العجل ونسفه، ثم لم يكن علاجهم إلا بعقاب شديد ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

هؤلاء الذين تمنوا عبادة صنم واتخذوا عجلا صنعوه بأيديهم، قالوا لنبيهم: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] . . فانظر كيف اعتنقوا ما هو شديد البطلان ثم يمتنعون

عن الإيمان بمن أنجاهم بالمعجزات وأنعم عليهم بالخيرات إلا أن يروه جهرة . . ولم تكن العقوبة إلا حسما شديدا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

وكم في ضلالات الناس من غرائب نراها صبحا وعشيا، لاسيما في زمان الإعلام الفاسد الذي يحيل الناس إلى كائنات عجيبة، يحبون من يقتلهم ويستبد لهم، ويبغضون من يكافح عنهم ويعمل لخدمتهم، وتنغلق عقولهم وقلوبهم أمام حقائق الحياة البسطية فلا يعرفون ما ينفعهم مما يضرهم، حتى لتبدو لهم أغلال الطغيان فخرا مجيدا، ويغدو من يحاول الخروج منها متمردا عنيدا!!

تجد المرء يرى قتل الآلاف في يوم واحد عملا جميلا، بينما ردة فعل واهنة قتلت واحدا أو جرحت غير واحد عملا إرهابيا مجرما!! تراه لا يهتز لمذابح المسلمين في كل مكان بينما يهتز لعملٍ مُقاوِمٍ فيهتف ضد الإرهاب!! وعلى رغم أن المسلمين هم المُعتدى عليهم في كل مكان، وهم المستباحة دماؤهم فلا يكاد يرى إرهابًا إلا هم، وتصل القناعة حدا يصير عقيدة راسخة تذهب دونها كل الحقائق، ومثالها ذلك الجندي الإنجليزي الذي قتل

إفريقيا ثم نظر في دهشة إلى زملائه وصاح متعجبا «يا له من همجي؟! تصور أنه عضني وأنا أقتله»!!!

فإذا بلغ الضلال في النفوس إلى هذا الحد، فبأي شيء ينفع الوعظ والنصح وبيان الحق!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقد يتبين الحق، لكن النفوس لا تقبله رغم اعترافها بأنه الحق . .

قد يكون لمجرد الكبر ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد يكون لطغيان الشهوة ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد يكون لطغيان العادة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]

وقد يكون اتباعا للمنافع التي ارتبطت بوجود الباطل والفساد ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]، فانظر كيف اعترفوا أنه «الهدى».

وفي كل الأحوال، فما دام الحق ضعيفا فلن يستجيب له إلا أولئك القلة النادرة الفاضلة، فيما يكون الرد التلقائي على نحو قولهم:

﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

بل قد يبلغ التحدي والكبر مبلغا غريبا ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وانظر إلى بني إسرائيل الذين شهدوا معجزات الله كيف لم ينضبط أمرهم إلا حين كانت تظللهم العقوبة، وذلك حين رفع الله فوقهم جبل الطور حتى كانوا يخشون إذا عصوا أن يقع عليهم، ثم لم يبلغوا شأنا إلا حين كانت أنبياؤهم ملوكهم كداود وسليمان عليهما السلام، وكما في الحديث «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي»[1]. أما حيث كان أنبياؤهم غير ذوي سلطان فلقد كان حالهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠] وحيث لم يكن عليهم سلطان قاهر فقد بلغوا في الاستهزاء والاستخفاف أن قالوا ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] أي مغلقة، بل تجرؤوا أن يقولوا لأمر الله ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] وأن يحرفوا في دين الله ويجاهرون بالتحدي ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ﴾ [النساء: ٤٦].

لكل هذا كان لا بد للحق من قوة، وإلا حاربه أقوام وفيهم

---

(١) البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (١٨٤٢). وقال الحافظ في الفتح «فيه إشارة إلى أنه لا بد للرعية من قائم بأمورها يحملها على الطريق الحسنة وينصف المظلوم من الظالم».

من يعرفون أنه الحق لمخالفته شهواتهم وعاداتهم ومصالحهم . . ولقد كان أهل الكتاب يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، وكان كفار قريش يعرفون في النبي الصدق والأمانة، لكنهم كذبوه وحاربوه وكادوا أن يقتلوه! فلولا أن وقفت للحق سيوف تحملها الألوف لما انتفع أهل الحق بمجرد حمله ولا أثمرت جهودهم في بيانه والدعوة إليه.



## عقلانية النمل!

بقلم: عمرو عبد العزيز

هل النمل عاقل؟

إن أكبر إفادة نستخرجها من قصة النملة مع نبي الله سليمان:

هي كون الإنسان ليس مُتفردًا بالعقل وحده .. إنما تفرَّد بالقدرة على التفكير المُعمَّق وتجاوز واقعه والتأمل والتدبُّر وإدراك المفاهيم السامية من التكليف والحكمة فوق مُتطلبات الحياة اليومية كالسوائم .. لكنه لم يتفرد بالعقل مُطلقًا وحده .. وأن العقل بين الحيوانات درجات أعلاها وأسماها درجة الإنسان وأدناها الأنعام ..

فالنملة التي رأت جيش سليمان (تصوَّرت) ماهيَّة الجيش و(عرفته) أي أن حدَّ الجيش بالنسبة لها كان معلومًا (جمع غفير من الناس متوجه لقِتال) وكانت ماهية القيادة معلومة (زعيم ورأس

الجيش) وماهيَّة القائد نفسه معلومة ومتميزة عن باقي البشر: (سليمان). فكل هذه التصورات كانت في عقل تلك النملة .. بحدود واضحة جعلت ما ترتب على ذلك من تصديقات وقضايا أمرًا ميسورًا:

كل جيش بشري يتجه نحو موضع النمل -فسيمر فوقه. وكلما مر جيش بشري فوق موضع النمل- فسيهلكه.

النتيجة: إذن كل جيش بشري يتجه نحو موضع النمل - فسيهلكه.

أو:

إذا استمر الجيش في مساره -فسيمر فوق موضع النمل. وإذا مر الجيش فوق موضع النمل- فسيهلكه. النتيجة: إذا استمر الجيش في مساره فسيُهلِكُ النمل.

وبهذه النتيجة العامَّة كانت النتيجة الخاصَّة بالنازلة:

أن جيش سليمان المُتجه إلى موضع النمل -سيُهلكه.

فالنملة هنا قد أدركت التصورات وركَّبت القضايا فأنتجت قضية ثالثة سليمة من قياس اقتراني، مقدمتيه مسلمتين من لوازم

العادة والعقل ولا خلاف في كونهما صحيحتين . .

فهل هذا فعل من لا يعقل؟!

إذن الصحيح هو ما ذكرناه في المُقدِّمة:

ليس العقل مُطلقًا هو ما تفرد به الإنسان، بل هو من هذه الجهة ليس مُتفردًا . . إنما التفرُّد في الحكمة والتعمق والتدبر والقدرة على الارتفاع فوق مستوى الكائنات الأخرى فكريًّا وعمليًّا: فلا يقضي حياته كالأنعام والهوام والحشرات: راغبًا في النجاة بطعام أو شراب أو حفاظ على النفس فقط، عازفًا عن محاولة التفكُّر في ماهية تلك الدنيا وسعيه فيها . .

لهذا كان الذمُّ لمن يُنقِصُ مرتبة عقله وينزلها من سمو عقل البشر إلى عقل الأنعام . . لكن نفي العقل مُطلقًا ليس صحيحًا . . ونفي وجود درجات في سمو العقل بين الكائنات خطأ كذلك . .

هذه قضيَّة هامٌّ إدراكها . . لأن أغلب من يستعمل مُحاججات الداروينية المُتأسلمة يفترض أن كائن ما قبل آدم (أبو آدم شبيه القرد) لم يكن صاحب عقل . . وبذا يتم تأويل آيات خلق آدم بأن المقصود بها خلق العقل لآدم . . وهذا الكلام يقتضي نفي العقل عن باقي الكائنات . . وهذا أمر غير صحيح . . بل الآيات القرآنية

- والملاحظات مع الدراسات العلميَّة الحديثة لسلوك الحيوان الأعجم: تبين أن نفي العقل عن تلك الكائنات هو وهم أكيد . . فالقرد ليس معدوم العقل حتى يتأول بعضهم الآيات ليخبرنا أن القرد تميَّز إلى إنسان بالعقل -وأن هذا هو معنى الخلق المذكور في الآيات! كذلك أنواع الكائنات تتفاوت -ثابت علمي آخر- في الذكاء والفهم . .



## المُعتزلة!

بقلم: عمرو عبد العزيز

عن حُجَّة اعتزال السلطة واستخدامها لضرب العاملين في السياسة بطريقٍ ملتوٍ غير مباشر، تحدث عزمي بشارة ضاربًا المثل بحالة فلسطين بعد الانتفاضة، وما روَّجهُ أنصار المجتمع المدني هناك (مرة أخرى لعب المجتمع المدني خارج أوروبا دورًا مشبوهًا، دور القابِلة المتسترة على عملية إجهاض سياسية، عملية (لا-تسييس) أو دور العميل المزدوج الذي يُعادي السياسة باسم الديمقراطيَّة، ثم يدير ظهره للديمقراطيَّة باسم كونها «معركة سياسية ليس خوضها هو الواجب»(!!) وإنما بناء المجتمع المدني)[١].

من يتابعون أصحاب حُجَّة اعتزال صراع السلطة الآن أو للأبد، سيجد أنهم يُقدِّمون بديلًا مساويًا لهذا الذي قدمه (العملاء

---

(١) عزمي بشارة. المجتمع المدني: ٢٤.

المزدوجون) بعبارة بشارة! فقط بدلًا من تقديم البديل العلماني (تقوية المجتمع المدني وترك العمل السياسي ومسألة السلطة) قدموا بديلًا إسلاميًّا مناسبًا لخلفيتهم ومناسبًا لجمهورهم كسلفيين (تقوية مجتمع طلبة العلم الشرعي وترك العمل السياسي ومسألة السلطة) . .

إن هذا في الحقيقة هو (إجهاض) بعبارة بشارة مرة أخرى؛ حيث قال: (المجتمع المدني من دون سياسة، ومن خارج سياق المعركة من أجل الديمقراطية -هو عملية إجهاض)!

تطابقت الحُجَّة واختلفت المفردات والأهداف بحسب الأيديولوجيَّة، لكن من دواعي التأمل: أن هذه الأطروحة أو تلك ظهرتا في ساحة كئيبة عقب هزيمة كبيرة . . أما الأولى فقد ظهرت وراجت بعد هزيمة الفلسطينيين وسقوط الانتفاضة أمام القمع العسكري الإسرائيلي -وأما الثانيَّة فظهرت وراجت بعد هزيمة الإسلاميين في مصر وسقوط الانتفاضة أمام القمع العسكري المصري)!

فقط الهزيمة الأولى كانت لمنظمة التحرير العلمانيَّة فكانت مُفردات الإجهاض علمانيَّة -وفي الثانية إسلامية فكانت مُفردات الإجهاض إسلامية!

أما الحُجَّة مُجرَّدة -فهي بين مُغالطة ماكرة، وبين حُجَّة شِعريَّة تُهدئ مُستثار عواطف المهزومين بإنارة طريق سلامة هروبي لم يتفطنوا له وقت انشغالهم بالمواجهة .. وسواء كانت مُغالطة أم حجَّة شعريَّة فهي تُقدَّم -كالمعتاد- في هيئة حُجَّة بُرهانيَّة (أن كل عمل ينتمي للمواجهة الصريحة السياسية أو العسكرية مع النظام العالمي الحالي وأنظمته -فهو مهلكة وبلا فائدة)! ويكون الحل هو حتمية بناء عمل لا ينتمي بأي شكل للمواجهة الصريحة -لتفادي المهلكة.

هذه الحُجَّة ربما كانت رائجة في فلسطين بداية الألفية، كما هي رائجة حاليًا عند بعض المصريين الإسلاميين: لكن الميزة أننا نستطيع أن نرى المآل لنعرف هل تلك الحُجَّة المعروضة يوميًا أمامنا من أهل التخذيل صحيحة أم لا.

واضحة الإجابة بلا؟!

لقد تلقت إسرائيل في حربها الأخيرة ضد غزَّة (٢٠١٤) هزيمة حقيقية لأول مرة على يد من لم يستمع لأطروحات الاعتزال! للمرة الأولى تخرج بقتلى وجرحى وانسحاب جبان وموقف تفاوضي ضعيف وخنس عن معاودة القتال وارتباك من انثيال الصواريخ

الفلسطينية عليها من السماء .. ولم تُنكِ في صفوف عدوها إلا تدمير بضعة أنفاق وانتقام أهوج من مدنيين أبرياء!

أليس هذا انتصارًا لمن لم يستمع لأطروحات التخذيل الهروبي واعتزال مسألة السلطة التي راجت في ساحات خراب المقاومة أثناء بداية الألفية؟

برغم فخامة الحُجَّة المُقدَّمة من أرباب الاعتزال وحربهم الضروس من أجل إثبات أنها برهانيَّة لا شعريَّة ولا مُغالطة -إلا أنها في الحقيقة ليست سوى ذلك!

وبرغم الاستماتة لتأصيل الاعتزال شرعًا وفقهًا وجعله هو صحيح الفقه الإسلامي -إلا أن تأصيلًا مشابهًا قُدِّم قبلًا بالفعل من العلمانيين بمفردات وأهداف علمانية وظروف قاهِرة مُشابِهة! إذن المسألة ليست مرتبطة بالدين والفقه الإسلامي والعقل كما يروِّج هؤلاء -إنما هي مرتبطة بطبيعة ذات الإنسان نفسه سواء كان ملحدًا أو سلفيًّا: طبيعة حب السلامة وكراهية الموت أو ما يُهدِد به من آليات فيها مواجهة مع عدوٍ قاهِر.

أخيرًا .. أنقل كلام الإمام الأستاذ ابن تيمية، في كتابه عن حادثة غزو قازان للشام، والأطروحات التي ظهرت وقتها، وقد

ربطها الإمام ببراعته المعهودة مع الآيات النازلة في غزوة الخندق؛ فقال:

(لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلاميَّة تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصَّة: ما بقيت أرض الشأم تُسكنُ -بل ننتقل عنها إما إلى الحجاز واليمن وإما إلى مصر، وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك.

وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مُقام لكم بهذه الأرض، ونفي المُقام بها أبلغ من نفي المقام ... فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان، فكيف يُقيمُ به؟)[١].

---

(١) م. فتاوى/ ٢٨: ٤٥٠-٤٥١.

تأمل كلام الإمام، والمقالات التي انتشرت وقتها، في ظرف مشابه: انسوا الدولة الإسلامية المهزومة وارضخوا للأمر الواقع واندمجوا في دولة التتار مُدعي الإسلام مُحاربي الشريعة .. اهربوا إلى أي موضع .. استسلموا وادخلوا في طاعة المتغلبين ..

وتأمل أوصاف الإمام لمن قال ذلك، وهو الذي لا يُزيِّن كلامه بباطل إرضاءً لخاصَّة أو لمكانة قائل منتسب لأهل العلم: قال عن هؤلاء المُخذِّلين أنهم بين منافق أو -على الأقل- في قلبه مرض.

فالله أكبر الله أكبر!

وسبحان الله ممن يُنكِر على المُتصدي لهذا التخذيل والإرجاف بأشدَّ عِبارة: صراحته وتنكيله بمروجي وهن القلوب بين المسلمين!

بل الواجب المشاركة بأشد عبارة في التصدي لمن يريد للمسلمين أن يعودوا غنمًا أو أفراخًا داجنة يسوقها ظالم أو مُفترٍ أو كافر أو مرتد أو صليبي أو يهودي -بأحقر قصب أجوف عنده!

لا والله: ليس من عمل سلفنا السكوت عن هؤلاء .. بل

ليس من عمل سلفنا عدم التنكيل بهم والتغاضي عن فضحهم للتستر عليهم . .

من يرغب في ذلك مُجامِلًا في دين الله فليفعل - لكن عليه ألا يُنكِرُ على من لا يرضى بذلك.



## شيخ الأزهر .. والدولة

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

شيخ الأزهر أعظم منصب ديني في الديار المصرية، المنصب الذي لطالما كان محط أنظار الأزهري منذ نعومة أظفاره، بالجدِّ والاجتهاد يحدو به الأمل في أن يصل إليه لا يهم أصله أو عرقه ولن يُعيقه مذهبه الفقهي أو ظروفه الاجتماعية، لكن الأزهري لم يعد كسابق عهده فقد أيقن منذ سنوات أن الموالاة للسُّلطة هي معيار القبول وإرضاء الحاكم هو سبيل الوصول.

فقد كان هذا المنصب مُنذ عُرِف يُنتخب من بين (جماعة كبار العلماء) ودون تدخُّل من السُّلطة الحاكِمة، حتى زادتِ الخلافات بين شيوخ الأزهر المتعاقبين وهذه السُّلطة ممثلة في الملك ثم رئيس الدولة الحاكم، وعلى إثر إفتاء الشيخ الأنبابي بعدم صلاحية الخديوي توفيق للحُكم بعدَ موالاته الشديدة للإنكليز، مناصرًا

الثورة عليه، ثم معارضته للخديوي عباس الثاني، تدخَّلتِ السلطة الحاكمة في شئون الأزهر بإنشاء مجلس إدارة له نال من صلاحيات شيخه.

ثم ازداد الأمرُ سوءًا سنة ١٩١١م حيث صدَر قانون الأزهر الذي أسَّس ما يُعرف بـ(هيئة كبار العلماء)، ثم تغيَّر اسمها فيما بعدُ إلى (جماعة كبار العلماء)، وكانت تتكوَّن من ثلاثين عالمًا من كبار علماء الأزهر، واشترط القانون المذكور أن يكون ترشيح شيخ الأزهر من بين أعضاء هذه الهيئة، وكان التجاوز الوحيد في هذا الشأن من جانب الملك فاروق سنة ١٩٤٥م، حينما عيَّن الشيخ مصطفى عبد الرازق برغمِ أنَّه لم يكن حينئذٍ عضوًا في جماعة كبار العلماء.

ثم تغيَّر الأمر في عهد حاكم مصر جمال عبد الناصر، حيث فعَل ما لم يجرُؤ على فعله الملك، فأصدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، الذي حوَّل الأزهر إلى جامعة، وأدخل فيها الكليات المدنية العِلميَّة والنظرية المماثلة للكليات النظامية، كما ألغى (هيئة كبار العلماء)، وحولها إلى ما يُعرَف بـ(مجمع البحوث الإسلامية)، الذي يتكوَّن من خمسين عضوًا على الأكثر، من

بينهم عشرون عضوًا من كبار علماء المسلمين غير المصريِّين، ولا تسقط العضوية في المجمع إلا بالوفاة أو الاستقالة أو العجز الصحي، والمجمع هو الذي يقرِّر إسقاط العضوية، وهو الذي يملأ المكانَ الشاغر بانتخابِ أحد المرشَّحين بالاقتراع السِّرِّي وبأغلبية الأصوات.

ومنذُ إنشاء (مجمع البحوث) صار شيخ الأزهر يُعيَّن قانونًا من بين أعضاء (مجمع البحوث الإسلامية) بقرار من رئيس الدولة وباختياره، وهو ما فتَح الباب لتدخُّل السلطة في عمل شيخ الأزهر ونشاطه، وقلّص دَوره الفعَّال والرِّيادي في القضايا الاجتماعية والسياسية الكبرى، وقضايا الإصلاح التي طالما كانت محلَّ اهتمام وعناية شيوخ الأزهر فيما سبَق، بل حاول معظمُ شيوخ الأزهر منذ ذاك تطويعَ الفتوى لخدمة السياسات السائدة.

ففي المرحلة الأولى من عمر الأزهر إبَّان كان اختيار شيخ الأزهر يتمُّ من خلال الترشيح بمعرفة علماء الأزهر ومِن بينهم، نرى الإمام محمد بن سالم الحفني ﵀[1] يُسيِّر شئون الدولة،

---

(١) ولد على رأس المائة الحادية عشرة، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١١٧١هـ إلى أن تُوفي سنة ١١٨١هـ.

فلا يتمُّ أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطِّلاعه وإذنه كما أشار إلى ذلك الجبرتيُّ المؤرِّخ.

ونرى الشيخ أحمد العروسي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] يقود احتجاجًا على إساءة الوالي العثماني أحمد أغا لأهالي (الحسينيَّة)، ممَّا أدى إلى صدور فرمان سلطاني بعزل هذا الوالي، واضطرَّ خلفه إلى أن يحضر إلى الأزهر ليسترضيَ علماءه.

والشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي رَحِمَهُ اللَّهُ[2] قاد المصريين ضد الحملة الفَرنسية، وحشَد طاقات الأزهر في طليعة مقاومة الاحتلال، حتى اضطرَّ نابليون بونابرت إلى تعيينه ضمنَ عشرة في (مجلس الشورى) الذي أنشأه كحيلة لاسترضاء الشعب.

وكان الشيخ حسن العطار بن محمد العطار رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا من قادة الحركة الوطنية ضد الحملة الفرنسية.

---

(١) ولد سنة ١١٣٢هـ وبقِي في المشيخة من سَنة ١١٩٠هـ إلى أن تُوفي سنة ١٢٠٨هـ.

(٢) ولد في حدود سنة ١١٥٠هـ، وتولى المشيخة خلفًا للشيخ العروسي، وتُوفي سنة ١٢٢٧هـ.

والشيخ إبراهيم الباجوري رحمه الله[1] حرَص على إعلاء كرامة علماء الأزهر في مواجهةِ السلطة.

وبرغم أن الشيخ محمدًا المهدي العباسي رحمه الله[2] لم يتحمَّس للثورة العرابية وامتنع عن التوقيع على عزل الخديوي توفيق، فأزاحه العرابيُّون من منصبه سنة **١٢٩٩**هـ حتى أُحبطتِ الثورة وأعاده الخديوي توفيق في نهاية ذات العام، بَيدَ إنه لم يلبث أن اختلف مع توفيق خلافًا شديدًا واستقال من منصبه سنة **١٣٠٤**هـ.

أما خلفه الشيخ محمد الأنبابي رحمه الله[3] فقد كان أجرأَ من سلفه وأحسنَ منه حالًا، حيث أفتَى بعدم صلاحية توفيق للحكم بعدَ موالاته الشديدة للإنكليز، مناصرًا بذلك الثوريين، ولم يقف الأمر على هذا الحد، بل أدَّت معارضته للخديوي عباس الثاني إلى قيامِ السلطة الحاكمة بإنشاء مجلس إدارة له نال من صلاحياته كشيخ

---

(١) وُلِد سنة **١١٩٨**هـ، وتولى المشيخة من سنة **١٢٦٣**هـ حتى تُوفِّي سنة **١٢٧٧**هـ.

(٢) تولى المشيخة مرَّتين أولهما سنة **١٢٨٧**هـ.

(٣) تولى المشيخة مرتين أيضًا؛ الأولى حين تم عزل المهدي العباسي، والثانية بعدَ تقديم الأخير استقالته.

للأزهر، حتى اضطرَّ الأنبابي رَحِمَهُ اللهُ إلى تقديم استقالته سنة ١٣١٢هـ.

كما أدَّت معارضةُ خلفه الشيخ حسونة بن عبدالله النواوي رَحِمَهُ اللهُ(١) للحكومة إلى إقدامِها على تعديلِ قانون المحاكم الشرعيَّة، وإبعاد النواوي عن منصبه.

وكذا استقال من منصب المشيخة كلٌّ من الشيخ علي بن محمد الببلاوي رَحِمَهُ اللهُ(٢)، والشيخ عبدالرحمن الشربيني رَحِمَهُ اللهُ(٣) والشيخ محمد مصطفى المراغي رَحِمَهُ اللهُ(٤)، وذلك عندما حالتِ الحكومة بينهم وبين تفعيل ما كانت تصبو إليه أنفسُهم من إصلاح للأزهر وإداراته ومناهِجه.

---

(١) تولى المشيخة مرتين؛ الأولى سَنة ١٣١٣هـ ثم فُصل سنة ١٣١٧هـ، والثانية سنة ١٣٢٤هـ ثم استقال سنة ١٣٢٧هـ، وكانت وفاته سنة ١٣٤٣هـ.

(٢) تولاها سنة ١٣٢٠هـ، واستقال سنة ١٣٢٢هـ لكنه ما لبث أن تُوفي في ذات العام.

(٣) تولاها خلفًا للشيخ الببلاوي، واستقال سنة ١٣٢٤هـ، وكانت وفاته سنة ١٣٢٦هـ.

(٤) ولد سنة ١٢٩٨هـ، وتولى المشيخة مرتين؛ الأولى سنة ١٣٤٧هـ واستقالَ في العام التالي، والثانية سنة ١٣٥٤هـ إلى أن تُوفي في رمضان سنة ١٣٦٤هـ.

وعارَض الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] ما انتواه الملكُ فؤاد من إعلان نفسه خليفةً للمسلمين بعدَ سقوط الخلافة العثمانية مُبرِّرًا ذلك بوقوع مصر تحتَ الاحتلال الإنكليزي، وعدم صلاحيتها لأن تكون دارًا للخلافة، كما رفَض الجيزاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاستجابةَ لطلب الإنكليز بإغلاق الجامع الأزهر حينما اندلعت ثورة ١٩١٩م.

ثم الإمام محمد مأمون الشناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] أصدر ومجموعة من علماء الأزهر وغيرهم بيانًا شهيرًا دعى إلى جهاد اليهود بعدَ صدور قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧م.

وأدَّت المواقف الوطنية للإمام عبد المجيد سليم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] إلى عزله إثرَ معارضته فسادَ الملك فاروق قائلًا عبارته الشهيرة حين قرَّر الملك تخفيض المخصَّصات المالية للأزهر؛ (تقتيرٌ هنا وإسراف هناك)، مُشيرًا إلى فساد الملك وحاشيته.

ومن بعد سليم رَحِمَهُ ٱللَّهُ استمرَّ الخلاف أيضًا بين خلفه شيخ

---

(١) تولى المشيخة سنة ١٣٣٥هـ حتى سنة ١٣٤٧هـ.

(٢) تولى المشيخة سنة ١٣٦٦هـ حتى سنة ١٣٦٩هـ.

(٣) تولاها خلفًا للشيخ الشناوي ولمدة عام واحد.

الأزهر الإمام إبراهيم حمروش رحمه الله والملك فاروق، الذي أعفاه من منصبه بعد أن رَفَض طلب الملك عدمَ اشتغال علماء الأزهر بالسياسة.

وكذا فقد استقال الإمام محمد الخضر حسين رحمه الله من منصبه احتجاجًا على إلغاء المحاكم الشرعية واندماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي، حيث كان يرى توسيعَ اختصاص المحاكم الشرعية، لأن الشريعة الإسلامية يَنبغي أن تكون المصدر الأساسي للأحكام والتشريع.

وهذه المواقف هي غيضٌ من فيض، وقليل من كثير، وقطرة من سَيح، ومَن شاء تتبُّع مواقف مشايخ الأزهر وعلمائه، فسيظفر بالكثيرِ الذي ربما تتَّسع له مجلدات.

وحين نأتي للمرحلة الثانية من عُمر الأزهر عندما أصبح شيخ الأزهر يُعيَّن من قبل رئيس الدولة، نرى شيوخَ الأزهر في الغالب الأعم يُفتُون بما هو موافقٌ لتوجهات السلطة مؤيدًا لسياساتها، فالشيخ عبدالرحمن تاج[1] يُفتي لجمال عبد الناصر بسريان عقوبة

---

(١) عُيِّن بعد استقالة العلامة الخضر حسين وظل حتى سنة ١٣٧٨هـ.

التجريد من شرف المواطنة على من يتآمر ضد بلاده قاصدًا بذلك سلفه محمد نجيب، والشيخ محمود شلتوت[1] يُفتي بأن القوانين الاشتراكية التي كان يسنُّها جمال عبد الناصر موافقة للشريعة الإسلامية، ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لئن يجهرَ برفضه القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م الذي ألغى (جماعة كبار العلماء)، وجعل اختيار شيخ الأزهر وتعيينه بيدِ رئيس الدولة.

أما الشيخ حسن مأمون[2] فقد كان من المدافعين عن القوانين الاشتراكية، واصفًا مُعارضي جمال عبد الناصر بأنهم (مجرمون) على حدِّ تعبيره.

والدكتور محمد الفحَّام[3] اعتبر ثورة التصحيح التي قام بها الساداتُ سنة ١٩٧١م هي (خُطوة تأتي من أجل كفالة الحريَّات للوطن والمواطنين، وسيادة القانون، وبناء الدولة الجديدة).

والدكتور محمد سيد الطنطاوي[4] كان يُفتي بحل فوائد البنوك

---

(١) عُيِّن خلفًا لعبد الرحمن تاج واستمرَّ حتى وفاته سنة ١٣٨٣هـ.
(٢) عُيِّن خلفًا لشلتوت وظل حتى سنة ١٣٨٩هـ.
(٣) عُيِّن خلفًا لمأمون وظل حتى سنة ١٣٩٣هـ.
(٤) عُيِّن سنة ١٤١٦هـ حتى وفاته سنة ١٤٣١هـ.

وحرمة ختان الإناث وجواز بناء جدار فولاذي بين مصر وفلسطين وجواز أن تسنَّ الحكومة الفَرَنسية قوانين تمنع ارتداء الحجاب في المدارس، وغير ذلك من الفتاوى التي وافقت سياسات الدولة، حتى اشتهر بمجاراته السلطة السياسية في قراراتها ومواقفها وسياساتها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يرى محارمَ الله تُنتهك وحدوده تُضاع ودينه يُترك وسنّة رسول الله يُرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطانٌ أخرس كما أن المتكلم بالباطل شيطانٌ ناطق، وهل بليّةُ الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سَلِمت لهم مآكلُهم ورياساتُهم فلا مبالاة بما جرى على الدين)[1].

ولاية السلطان ليست هي الولاية الحقيقية وإن طالت مهما طالت في الزمن . . بل الاستقامة على طريق الله بعلم وحزم وقوة وحكمة ويقين هي الولاية الحقيقية، فإذا تعارضت مصلحة الدين ومصلحة الدنيا عند من يلي المسلمين ويُؤمهم، فآثر مصلحة الدين

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٧٧).

على مصلحته الدنيوية، ومضى على ذلك لا يُبال بما يُقال عنه أو يُعتقد فيه أو يُفعل به فهو من أولياء الله، ومن كان ولي الله فإنه ينصره ولو بعد مماته، ومن أراد الله نصرته بعد مماته خلد ذكره وجعل له لسان صدق في الآخرين من حيث حسب الناس أنه خُذل وتُخلي عنه.



## جناية الأنظمة العلمانية على الأوقاف الإسلامية

**بقلم: محمد إلهامي**

لعله سيكون غريبا إذ نقول بأن هذا الموضوع إنما هو فرع عن الصراع الكبير بين الشرق والغرب، بين النظام الإسلامي والنظام العلماني، فللوهلة الأولى لا يبدو الأمر كذلك لكن بقليل من التعمق والنبش وراء ظواهر الأحداث يتبدى وجه الحقيقة المخبوء.

وإجمال ذلك أن الدولة المركزية هي بنت الفكرة العلمانية والمسار التاريخي الغربي، بينما المجتمع الفعال -والأوقاف من أبرز سماته- هو ابن الفكرة الإسلامية والمسار التاريخي الإسلامي، وأما التفصيل فإليك بيان ما يسمح به المقام.

### فكرة الأوقاف وآثارها

إن الأوقاف من الابتكارات الحضارية الإسلامية، فلم يكن

موجودا في العالم القديم إنفاق على أوجه الخير -اللهم إلا ما كان ينفق منه على المعابد وكهنتها، مما لا يمثل إلا جزءا ضئيلا من فكرة الأوقاف- حتى جاء الإسلام فأوقف رسول الله ﷺ ثم أوقف صحابته جميعا أوقافا كثيرة، واستمر نمو مؤسسة الوقف في العالم الإسلامي لتشكل المصدر الذاتي الذي تمول الأمة به انطلاقتها الحضارية، فبما أوقف المسلمون من ممتلكاتهم توفرت أموال غزيرة أنفق بها على العلماء وطلبة العلم وإنشاء المدارس وعلى الجهاد وبناء الثغور وتحرير الأسرى وعلى الفقراء والضعفاء والمحتاجين وعلى تنمية البلدان بشق الأنهار وتعبيد الطرق وإنشاء الجسور ورعاية الحيوانات، وسائر ما يُمكن أن يُتَخَّيل من وجوه الخير ضربت فيه الأمة بسهم عبر مؤسسة الأوقاف.

ومن بين الآثار الكثيرة للوقف يهمنا التركيز على أثر استقلال مسار الأمة عن مسار السلطة، فلم يكن انهيار السلطة أو ضعفها السياسي والعسكري منعكسا على نمو الأمة الحضاري إلا قليلا، بل قد تسقط البلدان عسكريا ثم تأسر الغازين حضاريا وثقافيا كما حدث مع الصليبيين في الشام والنورمان في صقلية والإسبان في الأندلس والمغول في الشرق الإسلامي.

ونقف بالمشهد الإسلامي هنا، لنلقي نظرة مهمة على المشهد الغربي وتطوره التاريخي.

### التطور الغربي إلى الدولة المركزية

حين تخلصت أوروبا من الكنيسة ومن أباطرة العصور الوسطى ومن الإقطاعيين، استبدلت بهم نموذجا آخر، ذلك هو «العلمانية» (بديلا عن الكنيسة) و«نظام الدولة المركزية» (بديلا عن نظام الإمبراطورية والإقطاع)، وكلا الأمرين -العلمانية ونظام الدولة المركزية- تابع للآخر، فلا بد لأي مجتمع من قيم حاكمة ومبادئ عليا، ثم لابد لهذه القيم والمبادئ من أناس يطبقونها ويحكمون بها، فكانت العلمانية هي المبدأ وكان نظام الدولة المركزية هو نموذج التطبيق.

فأين يكمن الضرر؟

يكمن في أن انتهاء وجود الإله من حياة البشر قد جعلهم عبيدا لأنفسهم وشهواتهم وأهواءهم، لا يؤمنون إلا بما ينفع ويضر بشكل مباشر واضح، وبهذا انتفى مبدأ الأخلاق والقيم العليا والمُثُل العظيمة التي انزوت مع الدين في جنبات الكنائس وصارت اختيارا شخصيا بحتا، ولهذا أنتج الغرب كل البشائع الإنسانية التي جعلته

«أكبر مجرم في التاريخ»[١]، «وحينما سئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلا: هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئا أعلى مرتبة منهم، شيئا مفعما بالأسرار، وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز، هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس وأُفُقًا لهم ولكنها فقدت الآن، وتكمن المفارقة في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية التي أصبحت تسير بدون تحكم من جانبنا، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعْدَه الإنساني»[٢].

وهنا تحققت نبوءة توماس هوبز الذي «أعلن أن حالة الطبيعة

---

(١) رجاء جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م. ص١٩.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، فبراير ٢٠٠٩م. ص٢١٩.

(أي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون) هي حالة من حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خَيِّرة فيهم وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء، فيُنَصِّبون الدولة التنين حاكما عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا ولو قدرا ضئيلا من الطمأنينة»[١].

وهنا صارت الدولة في مكان الإله، بل هي -كما يقول هيجل- «الحلول الإلهي على الأرض»، وسيادتها هي السلطة المطلقة، وعلى الأفراد أن يخضعوا لهذه السلطة التي تحدد من الداخل إرادة الأفراد[٢].

وصارت كفاءة الدولة تقاس بمدى قدرتها على السيطرة التامة على كافة ما يحدث على أرضها من أنشطة، ولم يختلف هذا بين مذهب ومذهب في الفكر الغربي «فالسيطرة على السكان مهمة

---

(١) السابق.

(٢) جان بيار لوفيفر وبيار ماشيري: هيجل والمجتمع، ترجمة: منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م. ص٧٢، ٧٣. وفيما يبدو من باقي كلام هيجل فإنه لم يتوقع وجود استبداد جديد من قِبَل الدولة، فلقد كان من المفتونين بالثورة الفرنسية ويحسب أنها شيء مثل «نهاية التاريخ».

أساسية لأي سلطة حكومية تهيمن عليها جماعات المصلحة، وعلى الرغم من أن القوتين الدوليتين في زمن الحرب الباردة (أمريكا والاتحاد السوفيتي) كانتا على طرفي نقيض . . . فإنهما اشتركتا في قوة السلطة المحلية عند تعاملهما مع قضية السيطرة على شعبيهما»[1].

وحين حلت الدولة محل الإله لم يكن لها لا علم الإله ولا رحمته ولا ارتفاعه عن النقائص، وحين حلَّ السياسيون والنخبة محل العلماء والمفتين لم يكن لهم لا تقوى العلماء ولا خشيتهم، بل دخل البشر في حكم البشر، فاستعبد البشرُ البشرَ فأذلهم وقهروهم، غير أن الأشكال تغيرت فصارت أكثر خداعا وتلوينا، وأشهر نمطين لهذا الخداع: الشيوعية والرأسمالية.

فأما الشيوعية فقد ادعت أنها سبيل العدالة الاجتماعية وضد الإقطاعيين والملوك المستبدين ولمنع احتكار السلع، ثم كان تطبيقها أعنف استبدادا من كل الملوك وأشرس من كل الإقطاعيين ولم يتحقق في ظلالها إلا العدالة في الفقر حيث صارت الشعوب

---

(١) ناعوم تشومسكي: النظام العالمي، ترجمة: عاطف محمد عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م. ص٥.

فقيرة لا تجد الكفاف فيما تركزت الثروة في يد «الرفاق» الذين يحكمون باسم الشعب، ويقيمون المذابح والسجون باسم الشعب، ويتصرفون في مال الشعب بأهوائهم زاعمين أنه «إرادة الشعب»، وقد طُوِيت صفحة الشيوعية مخلفة وراءها سجلا من المذابح والحروب والفقر العام والفساد الكبير.

وأما الرأسمالية فقد ادعت أنها ضد الاحتكار الاقتصادي وضد الاستبداد السياسي، لكنها أنتجت أكبر المحتكرين ورعت ودعمت أكابر المستبدين، وهي تسيطر على الشعب عبر الإعلام والأموال، يظن الناس أنهم يختارون رؤساءهم وأنهم يغيرونهم كل فترة فيما تظل الحقيقة أنهم يدورون في مسرح يتحكم فيه رجال الأعمال الذين يتحكمون في الإعلام وفي الاقتصاد، فبالإعلام يخدعون الجماهير ويسوقون رجالهم للحكم، وبه وبالاقتصاد يتحكمون في السياسيين والبرلمانيين وصناع القرار[1].

(١) طالع في تفصيل هذا كتاب «السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية» للألمانية نورينا هيرتس، من إصدارات عالم المعرفة، الكويت، يناير ٢٠٠٧م.

### حين جاءت «العلمانية» و«الدولة المركزية» إلينا

هذه الأزمة القائمة في الغرب حين زُرِعت في بلادنا كانت أسوأ وأشد فتكا وتدميرا!

فالعلمانية كانت رغبة شعبية ونتيجة طبيعية لانحرافات الكنيسة ولم تكن كذلك في بلادنا، ولذا غُرِست بالقهر والعسف والاستبداد، وكان لا بد من وجود حكومات عسكرية تذيق الشعوب الويلات كي تتمكن من ترسيخ أمرها، وهذا الترسيخ لا يتم إلا بنظام الدولة المركزية الذي ينزع عن الأمة فاعليتها وترابطها وتماسكها ومصادر قوتها.

أثمر نظام الدولة المركزية في بلادنا أسوأ الثمر، فقد سيطرت الدولة على الأوقاف الخيرية التي هي تمويل الأمة لنفسها وحضارتها، وضربت الدولة نظام القبائل والعصبيات لحساب النزعة الفردية التي تجعل العلاقة قائمة بين الدولة والفرد على نحو ما هي بين الإله والعبد، ولنضرب مثالا على ذلك بمحمد علي الكبير أول من أدخل العلمانية والدولة المركزية في بلاد المسلمين.

لقد كسر محمد علي كافة ما يجعل المصريين أقواما ليكونوا بين يديه أفرادا على نحو ما تطمح الدولة المركزية أن ترى الناس

أفرادا مواطنين لا تجمعات أو عائلات أو عشائر، ثم نزع منهم كل ما أمكنه من الأوقاف لتكون مصادر الأموال في يده فيمنح ويمنع فتذل له الرقاب جميعا.

وحين يؤرخ الشيخ محمد عبده لآثار محمد علي نراه يقول: «أخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولًا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلًا لجمع السلاح من الأهلين وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها فلم يبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فمحق بذلك جميع عناصر الحياة

الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده»، وفي جنايته على الأوقاف يقول الشيخ محمد عبده «نعم: أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامه لا يساوي جزءًا من الألف من إيراده. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم (ربيع الأول ١٣٢٠ = يونيو ١٩٠٢) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة»[(١)].

إنها المتلازمة الطبيعية بين العلمانية ونظام الدولة المركزية، حيث لا يُسمح أن تكون ثمة قوة في البلاد إلا قوة الدولة، ولقد كان الغرب آنئذ يبدو عملاقا كبيرا ساحرا يغري بالاقتداء به كل غافل عن كوامن القوة والنهضة في النظام الإسلامي، فكيف برجل عسكري ألباني لم يتكلم العربية حتى مات، لقد كان أجهل من أن يقتبس اقتباسا واعيا، وإنما جرت عملية صبغ مصر -كما يقول

(١) محمد عبده: آثار محمد علي في مصر، مجلة المنار ٥/ ١٧٥ وما بعدها، وانظر: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م. ١/ ٨٥١.

أرنولد توينبي- بالصبغة الغربية «أكثر شمولا من أي محاولة سعى إليها أو أنجزها السلاطين الأتراك»[1].

لقد كانت البداية باستيلاء محمد علي على ستمائة ألف فدان من الأرض الموقوفة وهي تمثل ثلث الأرض المزروعة في مصر والبالغة في ذلك الوقت مليونين من الفدادين[2]، ثم تطور الأمر عبر الزمان -بفعل الاستبداد ثم الاحتلال ثم الاستبداد- إلى أن «انقطع الوقف بشطريه: الأهلي والخيري، فالأهلي مقطوع بحكم القانون (الصادر ١٩٥٣: أي في عهد عبد الناصر)، والخيري قُطع لما لوحظ من الانقطاع بين ذرية الواقف والوقف، والتصرف المطلق لوزارة الأوقاف في إدارته، بل لوحظ أن الذين وقفوا وكان لهم حق الرجوع، رجع كثيرون منهم عن أوقافهم»[3].

ووصل الحال بالأمة إلى أن تحكمت الدولة في المساجد

(١) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م. ٣/ ٣١٣.
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ٣/ ٣٤٤.
(٣) محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م. والاقتباس في المتن من ص٤٦.

ونظم التعليم ومنافذ الثقافة، وصار المواطن لا يستطيع أن يدرس أو يتعلم أو يقرأ أو يسمع إلا ما تريده الدولة أو تسمح به، وهو لا يستطيع أن يمارس نشاطا ولو خيريا إلا إذا سمحت الدولة، وصار العلماء في يد الدولة إن نطقوا بما أرادت أعطتهم الرواتب والمناصب وإلا أعطتهم المعتقلات والمشانق، ولا يستطيع الخطيب أن يخطب في الناس ولا أن يدرسهم ولا أن يقرئهم القرآن إلا بعد تصريح من الدولة، وصار الفقراء رهنا لدى الدولة إن كانت صالحة أسعفتهم وإن كانت فاسدة أهلكتهم، وصار طلاب العلم أسرى لدى الدولة إن كانت حريصة على العلم مهدت سبيله وخفضت تكاليفه وأنفقت عليه وإن كانت غير ذلك أفسدتهم . . . وهكذا صارت وجوه الحياة جميعها. فإذا استحضرنا حقيقة أن الذي حكمنا في عصور ما بعد الاحتلال كان على مذهب الغرب عرفنا أي مصيبة نزلت ببلادنا على يد أناس من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتا.

### الأوقاف تهديد للعلمانية والتبعية الغربية

لم يكن محمد علي أول من حاول السيطرة على الأوقاف، حاول ذلك بعض الحكام قبله مثل الظاهر بيبرس -في النصف

الثاني من القرن السابع الهجري، وقت حاجته للمزيد من النفقة لمواجهة المغول والصليبيين- فوقف له الإمام النووي ومعه جمع من العلماء حتى ردَّه عن ذلك، وحاولها بعدئذ الظاهر برقوق -في أواخر القرن التاسع الهجري، ليستعيد لبيت المال الخاوي ما احتال الأمراء على وقفه تحصينا لأموالهم- فوقف له سراج الدين البلقيني وبرهان الدين بن جماعة وأكمل الدين وكان أقصى ما سمحوا له ما وُقِف على الأبناء ومنعوا عنه ما وُقِف للخير العام، وحاول ذلك والي مصر العثماني إبراهيم باشا القبودان -في القرن الثاني عشر الهجري، وبالتحديد (١١٢١هـ = ١٧٠٩م)- فتصدى له علماء المذاهب الأربعة، فبقيت الأوقاف على ما هي عليه، بل وعجز السلطان العثماني نفسه بعد ذلك بربع قرن (١١٤٨هـ = ١٧٣٥م) عن مثل ذلك، ولئن أفلح الأمراء في التحايل على الاستيلاء على أموال الوقف إلا أن ذلك من الفساد الإجرائي الذي كان يمكن إصلاحه في كل وقت[١].

---

(١) محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف ص٢٠ وما بعدها، د. محمد عمارة: هل الإسلام هو الحل، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م. ص١٢١، ١٢٢.

لكن الذي فشل فيه السلاطين والأمراء الكبار المجاهدون نجح فيه فيما بعد شراذم العسكر الذين وصلوا للحكم عبر انقلابات -خططت لها ودعمتها مخابرات دول الاحتلال- ولم يحققوا لأمتهم شيئا ذا بال، ذلك أن المظلة العلمانية ونظام الدولة المركزية نزعت من الأمة كل قوة لتضعها في يد الحاكم، ولم يعد ثمة علماء يستطيعون المواجهة بعد أن صاروا أجزاء من آلة الدولة، كما لم تعد ثمة قوى اجتماعية بعد أن صفيت عشائر الدولة أو سكتت رغبًا أو رهبًا.

ومن هنا تحكمت القوى العالمية في الأمة الإسلامية عبر التحكم في أنظمة الحكم، واختفت «الأمة» من معادلة الصراع، فنزل بنا من النكبات ما هو معروف مشهور طوال القرنين الماضيين.

إن الصراع الإسلامي الغربي متوقف في أهم وجوهه على قدرة الأمة على استعادة فاعليتها مرة أخرى، ونظام الوقف واحد من أهم هذه الوسائل التي تعيد الأمة إلى ساحة الفعل، وتعيد تمكينها من ثرواتها وتمويل نهضتها الحضارية.

## منح العلم للطاعن أم منعه؟!

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

للإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله كتاب شهير جدًّا اسمه مقالات الإسلاميين .. معروف ومتداول ويتناول فيه الفرق وعقائدها ..

عليك أن تعلم أن هذا الكتاب الشهير لهذا الإمام الأشهر والذي ينتسب إليه الأشاعرة أحد أكبر المكونين لأهل السنة والجماعة عمومًا -هناك شكوك في صحة نسبته إليه!

معذرة! الأمر يحتاج منك إلى تدبّر:

هذا إمام شديد الشهرة كبير القدر لدرجة أن الأشاعرة كلهم تسموا أشاعرة نسبة إليه .. وهذا كتاب عظيم القدر شديد الشهرة وأحد الكتب المعتمدة لتقسيم الفرق في تاريخ الإسلام -مع ذلك هناك من المحققين من شكك في نسبة الكتاب إليه بسبب أن

الأسلوب فيه اختلاف عن المعتاد منه ولأمور أخرى . .

تخيَّل رجاءً!

وتخيّل أن هناك كتب أخرى كثيرة لأئمة كبار من أهل العلم إما مفقودة أو وصلت إلينا مع تشكيك في صحتها أو وصلت مع التأكد من صحتها . . وهذا عمل المحققين . .

نحن نتحدث عن أئمة كبار كالسيوطي وغيره . . أئمة ملئت كتبهم الدنيا علمًا وأساميهم أشهر من نار على علم -ومع ذلك لم يعدموا من نسب بعض الكتب إليهم . .

والأسباب كثيرة لهذا الفعل . . أي أن يكتب المرء كتابًا وينسبه لشخص آخر . . وهذا أيضًا من أشغال المحققين في التراث . .

لماذا هذا الأمر هام معرفته؟

لأنه عليك أن تفهم جيدًا أنه إذا كان هذا هو الحال مع أئمة كبار في تاريخ المسلمين يكتبون في علوم شرعية معقدة -فمن الطبيعي إذن أن نجد أضعاف أضعاف هذا مع من هم دونهم شهرة ومقامًا . . خاصة ممن اهتم بهم الأدباء في التاريخ . .

فتجد أشعارًا قيلت ونسبت لفلان . . هذا شعر قيل في كتاب أدبي ونسب لهارون الرشيد، وهذا قيل ونسب لولادة بنت المستكفي . . وهذا كلام قيل ونسب لفلان الخليفة أو الوزير المشهور . . ناهيك عمن هم أدنى مكانة ومنزلة . .

لهذا لم ولا يعتمد أحد من أهل العلم على كتب الأدب أو التاريخ في استخراج الأحكام الشرعية الأصولية . . بل لها خطوات أخرى يعلمها من تعرف على أصول الفقه -لأن كتب الأدب مليئة بالأشعار والقصص بلا تحقيق لا روية: نساء عظيمات القدر يقلن أشعارًا ماجنة وقصص خليعة أو غريبة قبيحة عن خلفاء . . وهكذا هلم جرًّا . .

الأدباء والشعراء لم يكونوا يمتلكون الورع بصورة دائمة . . كان من السهل أن يأخذوا حديثًا أو قصة أو شعرًا من أحد الكتب الأخرى منسوبًا لخليفة أو زوجة خليفة؛ زورًا وعدوانًا لكراهية سياسية قديمة أو غيرها من الأسباب -وحتى أسباب حب ذيوع شهرة أبيات شعر وضعها مغمور عن طريق نسبتها لمعروف مشهور . .

هذه كلها حركات معروفة جدًّا ومشهورة جدًا . . وفي كتب

الأدباء والمؤرخين مصائب كثيرة . . وبعضهم لم يكن من أهل السنة أصلًا ولم يكن في حياته متورعًا أساسًا في البحث والتدقيق بل كان يضع هو نفسه ما يعجبه . .

نرجع مرة أخرى لما ذكرناه في صدر المقال: إذا كان الأشعري الأشهر وكتاب مقالات الإسلاميين الأشهر -هناك تشكيك من المحققين في نسبته إليه . .

فما بالك بمن هم دونه مقامًا وعلمًا وشهرةً وأكثر إثارة للجدل السياسي والعقدي من خلفاء ونساء خلفاء وعموم شعب؟ كيف لا تتيقن -لا أن تشك- أن غالب المرويات عنهم قصص مخترعة أو منتحلة؟

ثم نجيء للمصيبة الختامية:

كيف بعد كل هذا نجد شخصًا يأخذ حكمًا شرعيًا بجواز الاختلاط -بناءً على مروية في كتاب الأغاني للأصفهاني مثلًا؟!

بل وجواز أن تقول المرأة أشعارًا في الغزل الصريح، بله العهر القبيح: مثل سماحها لأي شخص أن يقبلها . . بناءً على أن هذا كان موجودًا في عهد الخلفاء وكان معمولًا به بلا مشاكل ولم ينكر عليهم أحد!

فأنت أمام عدة أزمات علمية وعقلية عند من يستولد الأحكام الشرعية بناءً على هواه من تلك الكتب والمرويات الأدبية والتاريخية:

أولًا:

جهله الشديد -أو تجاهله- لخطوات أصول الفقه التي تعارف عليها الفقهاء في الدنيا -فحتى الإباضية والشيعة يا رجل يذهبون للقرآن والسنة (السنة يمثلها الكافي عند الشيعة وعند الإباضية يضيفون كتابًا آخر لكتب السنة هو مسند الربيع) وأقوال العلماء والقياس ولا يعتمدون على مرويات تاريخية وأدبية بهذا التوسع أو الثقة!

ثانيًا:

عدم دقته علميًّا بكل مقاييس الدنيا -فهو يعتمد على مصادر متعارف عليها بين المسلمين أنها لم تخضع للتحقيق ولا التركيز على صحة نسبة كل قول لقائله ولم يكتبها أصحابها أصلًا بهدف استقاء الأحكام الشرعية منها .. كانت هذه الكتابات عند الكثير منهم بديلًا معاصرًا وقتها لمسلسلات وأفلام تزجية وقت الفراغ .. هذا شبيه بأن يجيئنا شخص بعد مائتي عام ليعتمد على فيلم

وا إسلاماه في استخراج أحكام شرعية عن جواز الاختلاط والرقص أمام الأغراب بملابس فاضحة!

ثالثًا:

الاعتماد على قاعدة فاسدة أصلًا وهي أنه:

ما دام قد حدث كذا تاريخيًّا ولم يكن هناك إنكار شديد عليه -فهو فعل مباح شرعًا!

وهو قول فاسد . . يعتمد أصلًا على مقدمات فاسدة:

فما يقينك أن هذا قد حدث تاريخيًا؟ فكلامك إما من مرويات أدبية أو فلسفية أو غير ذلك من كتب تاريخية لم تكن في دقة روايتها لما بعد عصر النبوة والراشدين بنفس دقة روايتها لهم . .

وما دليلك أنه لم يحدث إنكار لهذا الحدث؟ ألا يجوز أن يكون قد حدث إنكار من بعض العلماء وجرى قمعهم؟ وما أدراك أن العلماء وقتها أصلًا كان يصل إليهم ما يحدث وراء أسوار القصور الملكية؟ إذا كان بعد كل هذا الزمان والتقدم لازلت أنت غير قادر على معرفة تفصيل مما يجري في قصور الملوك والأمراء حتى لو تفرغت لهذا الأمر!

ثم كيف قفزت إلى الاستنتاج الختامي: وهو إباحة فعل منكر على أساس مستند إلى قصة منكرة أو بيت شعر ماجن -وهذا ضد الأصول العلمية المعروفة في الدنيا قبل الشريعة؟ بيت شعر ماجن أو قصة منكرة (بافتراض ثبوت صحتهما وصحة نسبتهما) أمام عشر آيات وخمسين حديثًا مع إجماع لأهل السنة: بأي عقل -هداك الله- اعتبرته هو الصحيح الذي تأخذ منه الحكم وتتجاهل كل ما أمامه من مذكورات الأدلة؟

ثم من في الدنيا يأخذ فعل من لسنا مأمورين بالاقتداء بهم سندًا لإباحة منكر؟

هل هو جهل؟ أم هوى؟

عرفت من قرأ في أصول الفقه ويعلم مكانة كتب الأدب وما فيها من قصص وأعاجيب -ومع ذلك يستمر في التدليس على الناس دائمًا بهذه الطريقة:

يقول لك مثلًا: قالت فلانة العظيمة كذا وكذا من أبيات الشعر وسط الرجال -فيجوز أن تخالط المرأة الرجال ويجوز أن تقول لهم كلامًا كهذا بلا مشكلة!

ومثلًا: كان الخليفة فلان يحب الغلمان ولم يُنكِر عليه أحد

وله أشعار في حب غلام عنده -وهذا يدل على جواز اللواط وأنه لم يكن فيه مشكلة قبلًا وإنما حرمه المتطرفون!

ومثلًا : كان خلفاء الدولة كذا وكذا يأتمنون اليهود ويولونهم مراكز كبرى في الدولة ويحبونهم ويفضلونهم -وهذا يدل على جواز حب وموالاة اليهود وتوليتهم مراكز كبرى في الدولة!

كل هذه الأمثلة حدثت فعلًا ومن يتتبع أصحاب الأهواء يعرف أنها قيلت بعشرات الصيغ . . وقيل ما هو ألعن وأفحش منها!

والفاهم منهم من بحث عن حديث ظاهر الوضع على رسول الله أو ضعيف يتعارض مع أحاديث أخرى متواترة -ثم استخرج منه الحكم الشرعي ونسبه للرسول نفسه!

وكل هؤلاء أصحاب هوى واضح .. وحججهم حتى لا ترتقي لمرتبة الحجة الشعرية أو المنطقية ناهيك عن العلمية الأصولية!

ودائمًا يعتمدون على تفشي روح الجهل وقلة التفكير في عموم شباب هذه الأيام في بث شبهاتهم: فتجد في كل مرة نفس التعليقات على مثل منشورات الإباحة هذه (إباحة اللواط -إباحة غناء الفتيات للرجال واختلاطهم- إباحة تولية أهل الذمة لأرفع

مناصب الدولة وحبهم وتقديرهم):

المتفاجئ الأول: يا ربي! لم أكن أعلم هذا! المتطرفون الأقذار خبئوا كل هذا عنا!

الحكيم العالم: يا عزيزي هذا أمر معروف وكان مشهورًا في تاريخ المسلمين! أزيدك بأبيات لفلان وفلان وقصة عن فلان مروية في كتب المسلمين! (يفترض هنا أن أي كتاب تراثي هو مصدر للأحكام!)

المتفاجئ الثاني: كل هذه الأدلة؟!! يا ربي! تبًا للحمقى المغفلين الذين حرموا علينا الدنيا وجمالها!

الرومانسي: الإسلام جميل جدًا .. هؤلاء المتطرفون هم من شوهوه .. بعض العلم والقراءة ستجعلك تعلم كم الجناية التي ارتكبوها في المسلمين بجماعاتهم وتزمتهم!

طالب علم: أخي! تعال نتناقش في تلك الأدلة: لقد كان هارون الرشيد يقصد كذا وربما يقصد كذا .. وكانت بنت المستكفي تقصد كذا ..

أكثر هؤلاء استفزازًا في رأيي هو طالب العلم الذي ناقش في النهاية!

لقد دخلت ابتداءً لتجادل صاحب هوى . .

ثم ناقشت تفاصيل المنشور ولم تنظر لكلي الأمر الذي أمامك: هذا الاستدلال ليس من أصول الفقه أساسًا . . ولم يجرؤ أحد العلماء على الاستدلال بتلك الطريقة . .

ثم أنك أصلًا تناقش مجموعة من القصص والحواديت لا نعلم صحة نسبتها أساسًا لقائليها!

فعلام النقاش أصلًا؟

ثم إن من أسوأ الأمور أن يُنصح صاحب الهوى هذا بالاطلاع على علوم الشرع: فسيدخل ليتعلم إحكام الإفساد أصلًا . . فنيته الأولية نتنة . . وضياع العلم توريثه لأهل الأهواء وفساد الفطرة والعقل!

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ كأنه بيننا:

من منح الجُهَّال عِلمًا أضاعه . . . ومن منع المستوجبين فقد ظلم



## جناية الطوبيا .. أرض الجهاد النقية سلوكيًّا وعقديًّا!

بقلم: عمرو عبد العزيز

زاد مؤخرًا انتشار فكرة تطهير الإسلاميين لصفوفهم من الأفكار المخالفة لهم في مواطن الجهاد ضد أعداء الأمة أمر لدرجة الهوس الخطير، حتى صار هذا أحد الأسباب الكبرى لما وصل إليه الشأن السوري من حرج وضيق وفتنة بين المجاهدين . .

هذا وكان على الإخوة المجاهدين نصرهم الله أن ينتبهوا لملاحظتين هامتين تفوتان عموم الجنود:

أولًا:

أن جهاد العدو والانتصار عليه -خاصة ما نحن فيه من جهاد دفع- يستلزم أن يكف المسلم عن بعض التصرفات والمجادلات التي قد ترفع المفسدة إلى درجة عالية في أرض الجهاد؛ كأن تجيء

في بلد صوفية مثلًا وتجاهد أعداء الله ثم تثير معركة عقدية هائلة مستشهدًا بإخنائية شيخ الإسلام! والوقت ليس وقت ذلك قطعًا ويقينًا . .

وقد سُئِل شيخ الإسلام ﵀ عن مدمني خمر زناة يجاهدون الأرمن في الثغور . . هذا والشيخ كان يعيش في ظلال دولة مملوكية من أقوى الدول في تاريخ المسلمين؛ فقال ردًا على السائلين الذي استفسروا عن كون قتلى هؤلاء القوم من الشهداء أم لا :

(إن كانوا يغيرون على الكفار المحاربين -فإنما الأعمال بالنيات . . وقد قالوا : يا رسول الله! الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً : فأي ذلك في سبيل الله؟

فقال : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا -فهو في سبيل الله) .

فإن كان أحدهم لا يقصد إلا أخذ المال وإنفاقه في المعاصي -فهؤلاء فساق مستحقون للوعيد . . وإن كان مقصودهم أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين لله -فهؤلاء مجاهدون) #م. فتاوى الإمام ابن تيمية : ٢٨/ ٩٠#.

قام الإمام ابن تيمية هنا بتوضيح قاعدة كلية استدل عليها من حديث رسول الله . . وهي أن المجاهد في سبيل الله هو من كانت نيته رفع كلمة الله فوق كلمة الكافرين . . وظاهر كلام الإمام واضح في اعتباره هؤلاء الزناة مدمني الخمر داخلين في المجاهدين إن كانت نيتهم صالحة لرفع كلمة الله . . وهو ما سيزيده توضيحًا بقوله فورًا:

(لكن إذا كانت لهم كبائر كان لهم حسنات وسيئات)

وهذا هو توضيحه لهؤلاء . . أن حسناتهم كونهم يجاهدون الأرمن أعداء المسلمين لرفع كلمة الله . . وسيئاتهم هي الكبائر التي يصنعونها -بشرط عدم الاستحلال- ولا يتوقفون عنها . . فهؤلاء لم ينف الإمام عنهم وصفهم بالمجاهدين . .

وكل ما فعله الإمام منطقي تمامًا عند أهل السنة -فهم لا يكفرون صاحب الكبيرة غير المستحل لها . . إذن فأصحاب الكبائر هؤلاء مسلمون لهم حقوق وإن تهاونوا في الواجبات . . وما دام داخلًا في الإسلام فعمله السيئ مترافق مع عمل جيد وهو الجهاد لرفع كلمة الله إن صلحت النية . . فكلام الأستاذ الإمام ابن تيمية سليم تمامًا . .

أما الصنف الذي حذر منه الإمام وهاجمه وأخرجه من الدين فهو:

(أما إن كانوا يغيرون على المسلمين الذين هناك -فهؤلاء مفسدون في الأرض محاربون لله ورسوله مستحقون للعقوبة البليغة في الدنيا والآخرة)[1].

إذن الإمام واضح تمامًا: حتى أصحاب الكبائر إن جاهدوا فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم . . وسيكون من الترف غير العقلاني ولا الشرعي أن ننزع عنهم صفة المجاهدين بله طلب رقابهم لتنفيذ الحكم الشرعي فيهم بينما هم على ثغور المسلمين يقومون بحمايتها!

وإن عكس كلام الإمام تمامًا هو ما جرى -فالصورة الذهنية التي كانت في عقول الشباب عن المجاهدين ضد النظام العالمي أنهم في نقاء ملائكي جعلت من يسافر ويرى الأمر على أرض الواقع يُصدم ويكون الحل الوحيد أمامه هو نفي صفة المجاهدين عن هؤلاء الذين صدموه: فقد يكون فيهم سارق - بخيل - زاني -

---

(١) المصدر السابق: ٣٥/ ٩١.

شارب خمر . . . إلخ إلخ من سائر الكبائر والموبقات . . والصورة الذهنية النبيلة التي تشربها تجعل هؤلاء في صف الأعداء لا صف المجاهدين -فالحل الأكيد بعد نفي الصفة هو تشمير الساعدين لنفي خبث كبائرهم من الأرض: حتى وهم في وسط معركة عالمية كبرى كتلك!

ولا يُفرِّق حينها المرء بين وضع المسلمين في وقت وجود إمام مطاع يجاهد المرء في وجوده وسلطان على الأرض يسمح بالقيام بواجبات الحسبة -وبين حال المسلمين المعاصر الذي فيه استضعاف وقهر وطغيان وضياع أوليات المفاهيم والتصورات من أذهان المسلمين أو المجاهدين . .

فالفكر التطهيري الذي بدأ هناك أساسه الصورة الوردية عن الجهاد والمجاهدين وما سوى ذلك -فليس بجهاد!

وربما لا يدرك الكثير ممن يهاجم هؤلاء لأنهم (شوهوا صورة الجهاد والمجاهدين) -أنه هو نفسه أحد أسباب تلك المشكلة! فهو يريد صورة يوتوبيا جهادية وسوبرمان مجاهد -أما غير ذلك فهو غير مجاهد ساعٍ لنقيض اليوتوبيا؛ لذا يجب هدمه وهدم مشروعه!



ثانيًا: أن الجهاد يُسمح فيه بالاستعانة حتى بالخوارج، فيُذكَر في شرح الإمام السرخسي على السير الكبير: (لا بأس بأن يقاتل المسلمون، من أهل العدل مع الخوارج، المشركين من أهل الحرب.

لأنهم يقاتلون الآن لدفع فتنة الكفر، وإظهار الإسلام، فهذا قتال على الوجه المأمور به، وهو إعلاء كلمة الله تعالى، بخلاف ما سبق، فالقتال هناك لإظهار ما هو مائل عن طريق الحق، وها هنا لإثبات أصل الطريق)[١].

ويقول الإمام ابن تيمية: (الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض: جهاد من يستحق الجهاد، كهؤلاء القوم المسئول عنهم -يقصد الطائفة الممتنعة عن تطبيق الشريعة- مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم، إذا لم يكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله ولا يطيعهم في معصية الله)[٢].

فانظر إلى فقه الأئمة، في تقديم الأولى فالأولى: فإن جهاد

---

(١) شرح السير الكبير: ٤/ ٢٥٢.

(٢) م. فتاوى: ٢٨/ ٥٠٨.

دفع فتنة الكفر يستلزم إيقاف بعض ما لا يجوز إيقافه في الأحوال العادية كالتحالف مع الخوارج الذين يُكفِّرون المسلمين أو الانضواء تحت راية جائرة أو مبتدعة لكنها أولى بالإسلام من أعداء الشريعة أو الكفار الأصليين . .

فإن كنا في النقطة الأولى ننبه إلى خطأ تقديم الهوس بالنقاء السلوكي الكامل في وقت جهاد الدفع . . فإننا هنا نتحدث عن خطأ تقديم الهوس بالنقاء العقدي للراية التي تخوض جهاد الدفع . .

فالواجب على المسلم في حالة جهاد الدفع أن لا يسعى في تشتيت انتباهه بالخلافات البينية وتسليط التركيز الكامل نحو مدافعة عدوه . . وإن كان هذا لا يمنع استمرار إنكاره للمنكر وأمره بالمعروف . . لكن بما لا يسبب فرقة الصف والنزاعات والفتن في وقت الدفع . .



## الشريعة .. والقانون

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

لكل قانون طبيعته وسماته وخصائصه التي تميزه عن غيره من القوانين، وهذه السمات والخصائص تُستمد بصفة أصلية من عنصرين:

الأول؛ شخصية واضعيه والعوامل النفسية والاجتماعية التي تؤثر في سلوكهم.

الثاني؛ طبيعة المجتمع الذي يُنظم القانون العلاقة بين أفراده ويُوضع لحفظ أمنه ورعاية مصالحه.

ولأجل ذلك فمهما ارتقى القانون فإنه لن يكون حلًّا أو علاجًا إلا بأثرٍ محدود أو فترة معينة؛ لأن فلسفته في النهاية منوطةٌ بعقول البشر القاصرة وبأفهامهم المحدودة المشوبة بتسلط الهوى والشهوة، وهنا تبرز مكانة التشريع الإسلامي الذي هو من صنع

خالق البشر الأعلم بأحوالهم وما فيه صلاحهم وأدرى بما تؤول إليه عاقبة أمرهم، وهذا ما يجعل هذا الشريعة ضربًا فريدًا مُعجزًا من التشريعات والقوانين التي لم تعرفها البشرية من قبل ولن تعرفها بعدُ، إذ لا تتحكم في سنها الآراء، ولا تعبث في وجهتها الأهواء.

يقول الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة ﵀: (خلق الله سبحانه النوع الإنساني لعمارة الأرض وإصلاح الكون، وركب فيهم عقولًا وجعلها مناط التكاليف، وخلق في الإنسان غير القوة العقلية القوة الشهوانية والقوة الغضبية وغيرهما من الغرائز النفسية التي تُضعف سلطان العقل وتقلل من شأنه، بل تتغلب وتنتصر عليه في بعض الأحايين، ومهما سما العقل واكتمل فما هو بمستطيع أن يهدي المرء إلى جميع ما يحتاج إليه في تحصيل السعادة الدنيوية فضلًا عن الأخروية، لقصوره عن إدراك هذه المنزلة، فكان لابد للعقل من هاد يُكمل هدايته، ويرسم له الطريقة المُثلى في الحصول على الكمال الديني والدنيوي، وكان هؤلاء الهداة رسلًا مبشرين ومنذرين يصطفيهم الله ممن زكت فطرتهم وكملت عقولهم ويفيض عليهم من أنواع وحيه ما يشاء، فيأخذون بزمام العقل ويدلونه على المنهج الواضح والصراط المستقيم، وهؤلاء الرُسل يستمدون

هدايتهم من المُشرع الأعظم، وهو الله ﷻ العليم بما كان وما يكون، الخبير بالنفس البشرية وغرائزها وطبائعها، الحكيم في كل شئونه وتصرفاته، المنزه عن العبث واللهو والهوى والشهوة، فلذلك كان تشريع الله عادلًا كل العدل صادقًا غاية الصدق، لا يطرق ساحته خلل أو نقض أو إبطال، وهذا فرق ما بين شرع الله وقوانين الإنسان.

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون رسالات الأنبياء السابقين محدودة بالزمان والمكان، فجاءت شرائعهم ملائمة لزمان خاص، ولبيئة خاصة، فلما بلغت البشرية كمالها العقلي وسن الرشد وجأرت إلى الله تطلب الغوث مما حاق بها من صنوف الفساد في الحياة الدينية والخلقية والاجتماعية، اقتضت رحمة الله أن يُرسل خاتم النبيين وسيد البشر محمدًا صلوات الله وسلامه عليه بشريعة هي خاتمة الشرائع، فجاءت على أتم وأكمل ما تكون شريعة في الوفاء بحاجات البشر لتحصيل السعادة الدينية والدنيوية).

ولما كانت مقومات الشريعة مستمدة من صفات مُنزلها ﷻ، فقد ميزها هذا بخصائص ليست لغيرها من الشرائع المحرفة أو التقنينات المؤلفة، فمن جهة العدالة فعدالتها مطلقة لا تُجامل فئةً

ولا تُحابي أحدًا، ومن جهة فلسفتها فحكيمة لا تقدم مفسدة ولا تغفل مصلحة راجحة على حساب مصلحة مرجوحة، ومن جهة دوامها فثابتةٌ لا تتبدل ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ومن جهة عموميتها فهي عامة صالحة لكل مجتمع وكل شعب، ومن جهة شمولها فهي غنيةٌ محيطةٌ لا تُغفل شيئًا، ومن جهة أثرها فهي طريق السعادة ولا بد لمن امتثل أوامرها وتجنب نواهيها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وإعجاز التشريع الإسلامي ليس كأي إنجاز تشريعي تاريخي، بل هو إعجاز مطلق متجدد غير محدود بزمان أو مكان، فكلما ارتقى الناس في حياتهم وتقدمت حضارتهم تجلت قواعد الشريعة من مظاهر خمس:

الأولى؛ خصائصها والأسس التي قامت عليها من حيث الثبات والدوام والعمومية وتكامل قيمها ومبادئها.

الثانية؛ المقاصد والغايات التي استهدفتها لرفع أسباب التخاصم والتنازع في المقام الأول ثم لتحقيق العدالة المطلقة بين الناس.

الثالثة؛ المصادر المتنوعة التي استمدت منها أحكامها متمثلةً

في القرآن والسُّنة فالإجماع والقياس والعرف ثم مذاهب الصحابة والاستصحاب والمصالح المرسلة والاستحسان وشرع من قبلنا ما لم يخالف شرعنا.

الرابعة؛ الأحكام التي جاءت بها سواء من القرآن الكريم أو السُّنة المطهرة مباشرةً أو ما استمد منهما باستعمال أصول الفقه وضوابطه وقواعده الكلية والجزئية التي وضعها الفقهاء المسلمون، يقول الأستاذ الدكتور علي حسب الله رحمه الله: (وإذا كان علماء الإسلام جديرين التقدير والشكر، لما بذلوا من جهد في بيان المعارف الإسلامية، فإن من بواعث فخرهم سبقَهم إلى وضع قواعد لاستنباط الأحكام من النصوص التشريعية، مما لم يجارهم فيه أحد من أهل الشرائع الأخرى، وإنما دعاهم إلى هذا ما امتاز به الإسلام من العناية بأمري الدين والدنيا، والملائمة لكل زمان وكل مكان، فإن ذلك العموم وتلك المرونة جعلا مصادر التشريع فيه صالحة للاستنباط في كل آن).

الخامسة؛ اختلافات الفقهاء وتنوع مذاهبهم على نحو يُثري التشريع بالحلول المتعددة حتى في أحدث النوازل وأعقد القضايا، مستلهمين إياها من سوابقهم وسوابق أسلافهم والأشباه والنظائر

إذا لم يجدوا في كتاب الله تبارك وتعالى وسُنة نبيه ﷺ بُغيتهم، وقد اجتهدوا في ذلك أيما اجتهاد على نحو عجزت سائر الأمم عن الإتيان بمثله، يقول الأستاذ الدكتور علي الخفيف رحمه الله: (لقد كان الفقه الإسلامي من أهم الأسس والعوامل التي ساهمت في بناء الأمة الإسلامية وتكوين حضارتها واتساع عمرانها وامتداد سلطانها وانضواء الشعوب المختلفة تحت لوائها؛ لأنه فقه يقوم على العدالة ويشرع الحقوق ويصونها ويكفل الحرية ويلائم الفطر السليمة ويُزيل الفوارق ويقضي على الطبقات ويُساير التطور ويُمسك بالأصول والقواعد العادلة، لا تسيطر عليه شهوات الأفراد ولا أطماع الأحزاب والجماعات ولا يخضع لهوى الأمراء والرؤساء، ذلك بأنه مستمد من شرع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وإرشاد من رسول أمين لا ينطق عن الهوى، ولا يحيد عن الحق، فجاء أول ما جاء ثابت القواعد راسخ الأساس سليم المبادئ صحيح النتائج متفقًا مع الأعراف الصحيحة والعادات الحسنة والأخلاق الكريمة، يهدف إلى الإصلاح لا الهدم، ويدعو إلى السمو وينأى بجانبه عن الركود والقعود).

فهذه المظاهر الخمس تثبت أن الإسلام ليس دينًا لاهوتيًا

صرفًا حاكمًا لعلاقة الإنسان بربه ﷻ على النحو الذي يعرفه الغربيون، وإنما هو تشريع كامل شامل لكل شئون الإنسان منظم لعلاقته بكل ما في الكون.

يقول الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري -رئيس مجلس الدولة الأسبق وأستاذ القانون المدني بكليات الحقوق وهو بلا ريب أشهر واضعي القانون الوضعي في العصر الحديث (١٨٨٥ : ١٩٧١م): (الفقه الإسلامي نظام قانوني عظيم له صنعة يستقل بها، ويتميز عن سائر النظم القانونية في صياغته، وتقتضي الدقة والأمانة العلمية علينا أن نحتفظ لهذا الفقه الجليل بمقوماته وطابعه، ونحن في هذا أشد حرصًا من بعض الفقهاء المحدثين، فيما يُؤنس فيهم من ميل إلى تقريب الفقه الإسلامي من الفقه الغربي، ولا يعنينا أن يكون الفقه الإسلامي قريبًا من الفقه الغربي، فإن هذا لا يُكسب الفقه الإسلامي قوة، بل لعله يبتعد به عن جانب الجدة والابتداع، وهو جانب للفقه الإسلامي منه حظ عظيم).

ويقول الأستاذ الدكتور صوفي حسن أبو طالب -أستاذ تاريخ وفلسفة القانون بكليات الحقوق ورئيس جامعة القاهرة ورئيس مجلس الشعب المصري الأسبق (١٩٢٥ : ٢٠٠٨م): (لا يجوز

القول بأن العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يعتبر ردة إلى الوراء واحتكام إلى قانون أصابه القدم، فالواقع أن الفقه الإسلامي يحتوي من الحلول ما يضارع أحدث ما وصل إليه الفكر القانوني الحديث، وقابل للتطور في الأمور التي لم يرد في شأنها حكم قطعي، فالأحكام الاجتهادية تخضع لقاعدة تغير الأحكام بتغير الزمان، والدليل الواقعي على صحة ما نقول نجاح لجان تقنين أحكام الشريعة الإسلامية التي شكلها مجلس الشعب المصري عام ١٩٧٨م في وضع تقنيات تضارع أرقى ما وصل إليه العقل البشري في الوقت الحاضر، كما أن بعض الشعوب الإسلامية أصدرت بعض تقنيات مأخوذة من الشريعة الإسلامية منها الأردن واليمن وبعض دول الخليج والسودان وباكستان).

لقد عاشت بلادنا في ظل الحكم الإسلامي لعقود طويلة من الزمان، وظل أهلها منذ فتحها يحتكمون إلى شرع الله تعالى المتمثل في القرآن والسُّنة، والأحكام التي استمدت منهما باستعمال أصول الفقه وضوابطه وقواعده الكلية التي وضعها الفقهاء المسلمون، مستلهمين الحلول من سوابقهم وسوابق أسلافهم والأشباه والنظائر إذا لم يجدوا في كتاب الله تبارك

وتعالى وسُنة نبيه ﷺ بُغيتهم، وقد اجتهدوا في ذلك أيما اجتهاد، وصنفوا في أصول التقاضي والأحكام والدعاوى ما عجزت سائر الأمم عن الإتيان بمثله، بل سبقوا إلى تأصيل النظريات التي يُفاخر القانونيون المعاصرون بتأصيلها وذِكرها في كتبهم، وبلغ بهم الشأن العظيم أن كانوا مرجعًا للأوروبيين في المسائل الحقوقية والمعضلات القانونية يفزعون إليه كلما دعتهم الحاجة ليجدوا لدى المسلمين كلمة الفصل فيما يهمهم ويشغل بالهم.

عن ذلك يُحدثنا الأستاذ العلامة علي حيدر رحمه الله -وزير العدلية في الدولة العثمانية، والأستاذ بكلية الحقوق في الأستانة، ورئيس محكمة التمييز (النقض)، وأمين الفُتيا- فيقول: (وقد استُفتِيَت دارُ الاستفتاء هذه في بعض الأحوال من قبل دول أوروبا في بعض المسائل الغامضة الحقوقية)[1].

وفي الجملة كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس والأوحد للأحكام حتى نهاية القرن الماضي حين تزايد النفوذ الأجنبي، وأُنشئت المحاكم المختلطة، وأُلغيت المحاكم الشرعية،

(١) درر الحكام شرح مجلة الأحكام (٤/ ٥٦٦).

واستمدت القوانين من مصدر أجنبي غير شرعي لا يتصل بانتماء البلاد الإسلامي ولا بخصائصها الثقافية والاجتماعية التي حددت ذاتية البلاد وهويتها الإسلامية، وكان من الأولى أن تنعكس على القانون الذي يحكمها ويسود فيها، فقانون أي أمة هو مرآة أحوالها المادية والفكرية والاجتماعية، وإذا كان من المفترض أن يكون القانون هو مصدر سعادة كل مجتمع ونهضته كما يقول فلاسفة القانون، فإنه لن يكون كذلك إذا لم يحقق متطلباتهم وآمالهم الثقافية والفكرية والمادية التي تمليها طبيعة بيئتهم الدينية والاجتماعية، بل سيكون وبالًا عليهم، وسيكون مصدرًا لتعاستهم وشقاوتهم لا إسعادهم ونهضتهم، فالتشريع الصحيح وليد روح الأمة ونتيجة عرفها وعاداتها، إذ كل فرد أسير قيمه ومبادئه الدينية والاجتماعية، وهي أعلى عنده من أي تقنين وتشريع، وما يدفعه إلى احترام أي قانون عادل سوى عدالته، ولا يدفعه إلى انتهاك أي قانون ظالم إلا ظلمه وجوره.

لقد أثبت الواقع بما لا يدع مجالًا للشك أن تطبيق القوانين الوضعية كان ولا زال هو أهم أسباب انتشار الجريمة وازدياد معدلاتها وتنوعها على نحو لم يكن في أسلافنا، وأن تلك القوانين

لم تؤد دورها في الوفاء بمتطلبات المتقاضين وحل خصوماتهم وفض نزاعاتهم، فلا هي زجرًا حققت، ولا هي قضايا أنجزت، ولا هي حقوقًا لأصحابها سلمت، بل أدت الثغرات التي تملأ عباءتها إلى اللدد في الخصومات، والمماطلة في الإجراءات، وكثرة الاستئنافات، والامتناع عن أداء الحقوق والواجبات، وزيادة البغي والعدوان، وإثارة الفوضى والهمجية، وبث روح الانتقام والثأر لدى المتخاصمين.

إن المقارنة بين الشريعة الإلهية والقوانين الوضعية في أتقن صورها وأحدث أشكالها تُبين لنا مدى جلال الشريعة وإعجازها وعظمتها وتفردها، والحق أنه لا مجال للمقارنة بحال من الأحوال بين ما شرَّعَ الله العليم الحكيم، وما قنن البشر القاصرة عقولهم، المحدودة أفهامهم، المشوبة بتسلط الهوى والشهوة، لا مجال للمقارنةِ بين شرعٍ رباني محكمٍ ثابتٍ لا يتبدل ولا يتغير، وبين قانونٍ وضعي بشري دائم التبديل والتعديل، لا مجال للمقارنة بين شريعة سماوية سليمة المنطق سامية الغايات، وبين قانونٍ وضعي مُضطرب المنطق متناقص الغايات، ومن أحسنُ من الله حُكمًا لقوم يوقنون.

## موجز تاريخ الإجابة الإسلامية
## عن سؤال الديمقراطية

بقلم: محمد إلهامي

في مرحلة ما قبل الثورات العربية كانت كل بلادنا يحكمها مستبدون مجرمون، حتى لو تغطى بعضهم بقشرة ديمقراطية رقيقة كالحال في الأردن والمغرب، أو يضع لافتة ديمقراطية كالحال في مصر والسودان والجزائر، فيما كان الباقون يمارسون الاستبداد علانية وصراحة!

في هذه الأجواء كان مجرد النظر إلى الغرب يكشف عن نموذج يسيل له لعاب عشاق الحرية، هناك تجري انتخابات نزيهة، يتغير البرلمان، يتغير الرؤساء، يختار الشعب من يحكمه، مع جرعة عالية من حرية التعبير والنقد دون خوف، واحترام واضح لحقوق الإنسان . . . إلى آخر ما هو معروف للجميع.

ونحن في هذه السطور لا يهمنا سوى الإسلاميين وموقفهم

من سؤال الديمقراطية الجديد، وهو سؤال ما كان بوسعهم تجاهله في ظل القصف الإعلامي المتواصل لهم كإسلاميين، وفي ظل القصف الإعلامي المتواصل من الغرب والعلمانيين للإسلام نفسه.

وفي إطار الدفاع عن الإسلام نفسه اجتهد الإسلاميون في إثبات أن الإسلام يرفض الاستبداد ويحرر الناس ويجعل الأمة هي صاحبة الحق في نصب الحاكم ومراقبته وعزله، واجتهد كثير من العلماء في أن تأقيت مدة الولاية للحاكم لا تنافي الإسلام لأن عقد الولاية يمكن أن يضيف فيه العاقد (الأمة) شروطا.

وظلت مسائل كثيرة عالقة تتراوح فيها الأقوال مثل حدود حرية التعبير، حرية نشر الكفر، حرية الردة، تطبيق الحدود الشرعية كالقطع والجلد والرجم، التعامل مع الفنون التي عمادها (في الواقع الآن) العري والإباحية والكفر أحيانًا.

ولكن هذه المسائل في الحقيقة ليست مختصة بالديمقراطية، بل هي مختصة بالفلسفة الغربية نفسها التي تعد الديمقراطية بصيغتها المعاصرة واحدة من إفرازاتها . . فالمتبادر إلى الذهن لدى سماع كلمة ديمقراطية هو اقتصارها على الجانب السياسي وشؤون الحكم، وهذه النقطة يجب أن تكون واضحة؛ لأنها كانت سبب

التباس كبير في التعبير عن الفكرة.

وفي إطار الدفاع عن الإسلاميين، كان الأسئلة الرئيسية تدور حول:

أ- هل إذا وصل الإسلاميون للسلطة بالطريق الديمقراطي سيستمرون في هذه الديمقراطية حتى لو أدت إلى إقصائهم من السلطة وتنصيب غيرهم؟

ب- وإذا لم يكن غيرهم هذا إسلاميًّا، بل كان شيوعيًّا أو كافرًا، فما حكم الشعب حينئذ، وهل يكون قد كفر؟ وهل يجيز الإسلاميون لأنفسهم التنازل عن الحكم إلى كفار أو ملاحدة ينشرون الكفر في الأرض؟

ج- ما هي رؤية الإسلاميين للمساحة التي يسمونها «أحكام الله غير القابلة للنقاش» في مقابل المساحة التي يجوز للشعب فيها أن يشرع لنفسه؟

وصحيح أن هذه الأسئلة كان يطلقها الغرب والعلمانيون بكل ما في نفوسهم من حقد -وهو كثير فياض- إلا أن الصحيح كذلك أنها أسئلة نوازل ليس للإسلاميين فيها سلف، إذ لم يواجه الفقه

الإسلامي في عصوره السالفة مسألة قوم يتسمون بالمسلمين ولا يريدون إسلاما.

وكطبيعة أي موضوع إنساني اختلف الإسلاميون فيما بينهم على إجابة هذه الأسئلة، فكان أكثرهم تنازلا من اشتاق إلى وجود الحرية ولو من غير شريعة؛ لأن الحرية تتيح لهم أن يمارسوا الدعوة إلى الله وأن ينشروا أفكارهم، وهذا خير من حكم المستبدين المجرمين (الكفار عند أغلبهم: بأفعالهم أو بأعيانهم) الذين لا ينشرون إلا الكفر في بلاد المسلمين ولا يتركون فرجة للدعوة إلى الله.

فيما كان أشدهم محافظة وتشددا من رمى كل هذه المسائل عن قوس واحدة، ولم ير سبيلا إلا حمل السلاح لجهاد الأنظمة الكافرة مع اقتناع بأنه ما إن تزول هذه الأنظمة إلا ويمكنهم إعادة شرع الله إلى واقع الحياة!

وبين الفريقين طيف واسع من الآراء والاجتهادات والرؤى!

فالأولون كانوا الأكثر اشتباكا مع الواقع وتفاعلا معه وكانوا كذلك الأكثر (تنازلا/ مرونة) فيما كان الآخرون الأكثر فهما لطبيعة الصراع وأنه ليس صراع فكري نظري بل هو صراع حضارات

ومشاريع، فكانوا الأكثر تفاعلا معه من جهة كونه صراعا والأقل اجتهادا في الفقه والدين لإخراج إجابات على هذه النوازل، فكانوا كذلك الأكثر (تمسكا/ تشددا).

واعتزلت فرق هذا الصراع كله، وبحثت عن جانب تخدم الإسلام فيه، كالدعوة والتربية ونشر العلم .. وهؤلاء لا يدخلون في حديثنا الآن!

كان الأولون تدعمهم تجارب تاريخية كثيرة تدلل لهم على أن الشعوب تختار الإسلاميين في أي انتخابات (شبه) نزيهة، الجزائر والأردن والمغرب وغزة ومصر وتركيا .. وكان الآخرون يستدلون بنفس هذه التجارب على فشل نظرية الأولين: إذ لم تستطع أي تجربة أن تحقق نصرا يمكن وصفه بالإسلامي دون تحفظات!

كان الأولون يرون أنه تقدم على الطريق في ظل العجز عن دخول معركة حاسمة، وكان الآخرون يرون أنه تأخر على الطريق وهدر للطاقات والجهود، فحقيقة الأمر ليست بيد الشعوب بل بيد الجيوش: جيوش الغرب التي تحرس بقاء الهيمنة الصليبية (أو العلمانية، حسبما يختلف الناس في تحليل الغرب).

وكل إخفاق للأولين (الواقعيين، المرنين، المتنازلين .. لسنا

في إطار تقييمهم الآن) كان يصب في خانة هؤلاء الآخرين (المتمسكين، المحافظين، المتشددين .. لسنا في إطار تقييمهم الآن) .. وأبرز الأمثلة: الجزائر ومؤخرا مصر، كذلك هزال الحركة الإسلامية في الأردن والمغرب وعجزها عن تحقيق أي تغيير ملموس، وحتى تجربة غزة وتركيا -الأحسن حالا من بين كل هذه التجارب- لا يستطيع أحد أن يصفهما بالنصر الحاسم في ظل الظروف والمعرفة.

حتى جاءت الثورات التي أسفرت عن سقوط غير متوقع لعدد من أساطين المجرمين: بن علي، مبارك، القذافي، بن علي .. مع بشائر مستمرة لسقوط بشار، وما أحدثه ذلك من زلازل في المغرب والجزائر، وبراكين في دول الخليج التي وجد حكامها أنفسهم -لأول مرة- أمام تهديد شعبي غير متوقع، وقد كانت نكباتهم مقتصرة على صراعات أجنحة الحكم.

وكان طبيعيا أن يكون الأكثر واقعية (مرونة، تنازلا) هم الأقرب للتصرف في الواقع الذي خبروه واشتبكوا معه .. فيما لم يظهر الأكثر تمسكا (محافظة، تشددا) إلا حين تحولت الثورات إلى التسلح والجهاد كما في ليبيا وسوريا.

وهنا كانت النازلة الثانية التي لم ينتبه لها إلا النادرون جدا (حتى ليصح أن نقول: لم ينتبه لها أحد)، وهي: هل الديمقراطية تعبير حقيقي عن إرادة الناس، أم لها دهاليز وكواليس وخفايا وخبايا غير منظورة؟

لم يكن طبيعيا أن من حاول عبر عقود إثبات أن الديمقراطية من الإسلام، وأن الفروق بين الديمقراطية والشورى ليست جوهرية (فيما عدا محكمات الإسلام وثوابت الشريعة التي يريد الجميع تطبيقها فعلا لكن يختلفون في حدودها وفي الكيفية) وأنه كإسلامي ليس ضد الديمقراطية ولا ضد التنوع الثقافي ولا التعدد الحزبي ولا أنه ينوي أن «يأخذ السلم معه فوق .. فوق» .. أقول: لم يكن طبيعيا أن يتحول هذا الشخص من هذه الحالة إلى حالة البصر بما في الديمقراطية من كمائن!

لكن الإخفاقات المتوالية نبهت الكثيرين إلى هذه الكمائن، إلى دور المال الذي يحرك الإعلام الذي يحرك الجماهير، ودور المال الذي يحرك الجريمة، وإلى النظام القديم الراسخ الذي لم يسقط بطبيعة الحال لمجرد أن قيل له: «ارحل، مش هنمشي هو يمشي .. إلخ».

وساعتها وجد الكثيرون مادة غزيرة من كتب ونظريات غربية تتحدث عن عيوب الديمقراطية، وكيف أنها لا تؤدي إلى تعبير حقيقي عن إرادة الناس، بل هي في الحقيقة تعبر عن إرادة أصحاب السلطة والمال ومراكز القوى، لكن هذه الإرادة لم تعد تفرض قهرا (كما في النموذج الشيوعي) بل صارت تصاغ عبر الإعلام وضخ الأموال في ترتيب المصالح والمواقف وتصنيع القناعات حتى يذهب المواطن لينفذ هذه الإرادة وهو يتخيل أنها إرادته هو! (وهذا بخلاف مشكلات أخرى أقل تأثيرًا وأكثر تفصيلًا).

هذا بالإضافة إلى فارق كبير آخر، وهو أن الغرب يمارس الديمقراطية بعد أن استقرت قيمه الأساسية (الهوية: التوجه السياسي والاقتصادي والثقافي) فالديمقراطية -ولو كانت تعبر عن إرادة حقيقية- فهي في النهاية تحكم على التفاصيل، على المذهب، على المدرسة .. فيما الحال مختلف تماما في بلادنا التي تشهد صراعا على هذه القيم الأساسية (وهذه القيم الأساسية تحسم بالحرو كما حدث في الغرب نفسه).

ولكن بدأ كثير من الشباب ينشرون هذا المعنى، ووجدوا فيما كتبه ناعوم تشومسكي -وغيره من اليساريين والأناركيين وبعض

الصحافيين والخبراء- مادة غزيرة في نقد الديمقراطية وبيان خدعتها . . إلا أن هذه المحاولة كانت ضعيفة ومحدودة الانتشار والتأثير . . وكيف لا والتيار العام مزهو بالديمقراطية (التي نفوز فيها رغم كل الأموال والمؤامرات والإعلام الذي يعمل ضدنا)؟!!

لقد كانت النشوة أكبر من محاولات الإيقاظ بكثير!!

تلقى الأولون (الواقعيون، المرنون، المتنازلون) ضربات هائلة قوضت تجربتهم في مصر وتونس واليمن، رغم أنهم بذلوا كل ما قدروا عليه من تنازلات في هذه البلاد الثلاثة لمحاولة «تجنب الصدام، تحقيق التوافق، عدم الانجرار إلى الفخ» . . إما بانقلابات عسكرية صريحة كما في مصر واليمن، وإما باضطرابات وقصف إعلامي كما في تونس!

بينما بقيت تجربتا الآخرين (المتمسكين، المحافظين، المتشددين) تراوح مكانها: فلم تنجح بعد، ولم تفشل بعد، وإن كان الثمن باهظا (وكل ثورة لها أثمان باهظة في الحقيقة).

لكن الحقائق الملموسة لكل التجارب تسفر عن:

أ- السلاح يحسم المعارك، ويضرب بالسياسة وتفاهماتها عرض الحائط.

ب- المال والإعلام غيرا الخريطة الشعبية التي كانت من قبل تعطي الإسلاميين المركز الأول باكتساح، فصارت تضيق الفوارق (مرسي، شفيق - انتخابات ليبيا)، ثم صارت تميل بالكفة عليهم (انتخابات تونس ٢٠١٤).

ج- الخارج واقف بسلاحه وأمواله ومؤسساته في قلب المعركة، وعلى المخدوع بالشرعية وحقوق الإنسان أن يظل مخدوعا حتى يستيقظ على المذبحة.

وهنا نصل إلى الخلاصة المرجوة من هذا المقال الذي طال:

أ- الديمقراطية كـ«آلية اختيار» لا تنافي الإسلام!

ب- الديمقراطية كـ«إفراز من الفلسفة الغربية» جزء أصيل من المعركة الحضارية القائمة والدائمة بين الإسلام والغرب، وهذه هي التي يحرسها الغرب بجيوشه وأمواله، ويحاصر ويقتل من أفلتوا منها كما فعل في الجزائر وغزة ومصر.

ج- الذين أرادوا أن يصلوا إلى مرحلة «الحرية بدون إسلام» ظنًّا منهم بأنه يمكن منها الوصول إلى «إسلام من خلال الحرية» غفلوا عن التفريق بين هذين النوعين من الديمقراطية، وظنوا أن الصراع الحضاري يمكن أن يُحسم بغير حروب مسعرة . . ولذلك

كانت دماؤهم وحدها هي الثمن المسفوك دون النتيجة المرجوة.

ورغم أن عددًا من المواقف كان يدل على استحالة ذلك (مثل اضطرارهم للتوافق المناقض للديمقراطية، واكتشافهم أن العلمانيين ليس فيهم شريف يدافع عن الحرية كمبدأ وإنما هم أذيال للاستبداد وكم خانوا وغدروا وكفروا بما كانوا ينطقون به، واكتشافهم أن الغرب يطالب بأمور يسميها مصالحه أو يسميها قيم عالمية رغم أنها من صميم الخصوصية الوطنية والسيادة الوطنية).. أقول: رغم أن عددا من هذه المواقف كان يدل على استحالة الوصول إلى حرية حقيقية، إلا أن رسوخ الفكرة في أنفسهم منعهم من إدراك ذلك أو بالأحرى: لم يكونوا مستعدين -ولو أدركوا- لتغيير سياستهم.

ولكن: حيث وصلنا إلى القناعة بأنه لا يمكن الوصول لمرحلة «الحرية» تمهيدا لمرحلة «الإسلام»، وحيث رأينا عدونا لا يسمح بالوصول إلى هذه المرحلة .. فالواجب إذن، أن نقصد مباشرة إلى مرحلة «الإسلام» و«الشريعة» و«الحكم الإسلامي».

د- الشعوب المسلمة تستطيع مقاومة الديمقراطية الغربية بقدر ما بقي فيها من قيم إسلامية تجعل الهيمنة للشريعة، بقدر ما فيها من

حرية منابر ومساجد، بقدر ما فيها من تماسك اجتماعي.

هـ- الشعوب المسلمة تُخترق بقدر ما وصل إليها من قيم غربية، وإعلام منفلت، وأموال فاسدة، وانهيار اجتماعي، وابتعاد عن الدين . . ففي ظل الانهيار الاجتماعي والابتعاد عن الدين تبدأ الأموال الفاسدة والإعلام الفاسد في تحقيق أهدافها.

و- الشعوب تُخاطب بالوضوح . . وأما الغموض والتذبذب الذي تفرضه توازنات الساسة والفرقاء فلا يرضيهم ولا يرضي هؤلاء الفرقاء.

ز- الثورات تنتصر بالحسم، وأنصاف الثورات قبور الثوار.

ح- الثورات في عالمنا العربي والإسلامي لا تقوم بغير الإسلام، ومحاولة تجنيب الإسلام لتجنب السخط الدولي كمحاولة تغطية الشمس بثوب!

نسأل الله الرشاد والثبات.



# تكفير الإسلاميين الديمقراطيين

بقلم: عمرو عبد العزيز

صارت قضية الديمقراطية والأحكام الشرعية الناتجة عن تصورها وتصور حكم الإسلاميين المطالبين بها من أهم القضايا التي تدور بين الإسلاميين في مصر والشام وغيرهما .. وقد رأينا من الحركات والتنظيمات من يقوم بتكفير إجمالي للقائلين بالديمقراطية؛ بعضها لا يقوم بالتكفير عينًا والبعض الآخر يقوم بالتكفير الإجمالي وبالتعيين للأفراد الواقعين تحت راية جماعات إسلامية تقول بها ..

وأصل كل التكفير للجماعات الإسلامية القائلة بالديمقراطية ناتج من القضية الآتية التي يعتبرها البعض من المسلمات وهي أن (كلما قيل لفظ الديمقراطية -فقائله كافر) ..

وهذه قضية كلية موجبة شديدة الخطأ .. ولإثبات عدم

صحتها لابد من تفكيكها إلى المقدمات الأصلية التي أنتجتها وتصحيحها . .

وسنقوم بمحاولة لتفكيك تلك الفكرة الراسخة ومعرفة سبب كونها خاطئة . .

ولتفكيك تلك القضية لابد أن نخطو الخطوات الآتية:

الخطوة الأولى/ تحديد مفهوم الديمقراطية عند الإسلاميين:

قد صارت كلمة (ديمقراطية) بحكم العرف والعادة مُشتركًا لفظيًّا لمدلولين مختلفين في التعريف:

* فالمدلول الأول هو حدها المشهور عالميًّا وهو (عين مفهوم الديمقراطية الغربية) بما تحمله من أفكار مضادة للشريعة أخطرها السيادة المطلقة للشعب وحاكمية مختاريه وممثليه . . هذا مع التأكيد أنه لا يوجد حد تام متفق عليه عالميًّا لها وإن كان لها أطر عامة مشهورة . .

* والمدلول الثاني هو حد متعارف عليه بين أغلب الإسلاميين وهو الحرية في اختيار الحكام بآليات انتخابية معينة فقط . .

هذا مع التنبيه إلى أن غالب الإسلاميين عندهم اضطراب في

فهم أي مدلول هو المقصود من كلام المتحدث الإسلامي الآخر . . بل والمتحدث نفسه قد يكون عنده اضطراب في فهم المقصود مما يقوله

فالبعض يتحدث عن الديمقراطية ويقصد بها (حرية اختيار الحكام وآليات ذلك الاختيار) فقط لا أكثر . .

والبعض يقصد بها فعلًا (عين مفهوم الديمقراطية الغربية) التي فيها سيادة كاملة للشعب وحاكمية له في كافة شئونه . .

فالأول: يعني بالديمقراطية عكس الديكتاتورية -أي مرادف للحرية مناقض للطغيان . .

والثاني: يعني بالديمقراطية المنظومة الفكرية والفلسفية الليبرالية الغربية المنحلة والتي قد تصل لدرجة الدين بالفعل . . وهو نمط غير منتشر في الإسلاميين كما يتخيل البعض!

فكون الكلمة قد صارت مشتركًا لفظيًّا بالعرف والعادة -يعني أنه لا بد أن يتمهل كل من يتصدر في مهاجمة القائل بها . . ويتريث ويفحص ما يقوله قبل إصدار أي أحكام شرعية خطيرة . . فالعادة والعرف معمول بهما عند الفقهاء . . بل هي من قواعد الفقه الكبرى . .

فالناتج الصحيح مما سبق هو القضية الشرطية المتصلة الجزئية السالبة الآتية:

(ليس كلما قيل لفظ ديمقراطية -فالمقصود به المفهوم الكفري)

الخطوة الثانية/ التعرف على تصورات الإسلامي الديمقراطي عن الإسلام وحكم فلسفة الديمقراطية:

صار في هذا الزمان هناك تشوه ضخم في التصورات سواء الواقعية أو الدينية أو الفكرية عند شرائح ضخمة من الناس عمومًا والإسلاميين بأطيافهم المتنوعة خصوصًا .. فالمفردات التصورية عند كل مجموعة أفراد تختلف عن مجموعة أخرى .. وبالتالي فالتصديقات المكونة للقضايا ذات تنوع كبير ..

بناءً عليه: ليس كل معنى الحرية عند مجموعة -مقصود به معنى الحرية عند مجموعة أخرى ..

فالصحيح هنا هو سلب العموم .. وهو أمر يكاد يكون هناك اتفاق عليه عند العقلاء!

والإعذار بالجهل لا يعني أن يهتم المسلم فقط بكون القائل بمفهوم كفري عالمًا بحكمه الشرعي أم لا .. بل أن يهتم كذلك

بمعرفة صحة الإدراك النظري عند القائل بهذا المفهوم في عصر صار الإدراك العقلي الضروري نفسه مجهولًا أو مشوهًا عند البعض!

فالمسلم الذي يقول بالمفاهيم الكفرية قد يكون عنده مشكلة من أحد المشاكل الإدراكية والمعرفية الآتية:

- إما في إدراك المفردات التصورية لأجزاء الشريعة ومقاصدها وحقيقة أجزاء المفهوم الديمقراطي الذي يقول به.

- وإما في إدراك النسبة بين تلك المفردات التي يقول بها.

- وإما في معرفة الحكم الشرعي لهذا المفهوم الذي يقوله.

ولنضرب مثالًا للتوضيح:

يصاب الكثير من المسلمين وأنصار الشريعة بالذهول عندما يجدون إسلاميًّا معاديًا للديمقراطية يقول دائمًا بأن (الحكم ليس للشعب) . .

فهو مبدأيًا لا يتصور الحكم بصورة سليمة كما يتصوره القائل!

ثم هو لا يعرف لماذا جاءت القضية سالبة! لماذا الحاكمية (ليست) للشعب؟

ثم هو أخيرًا لا يعرف ما الحكم الشرعي لنزع الحاكمية من الله وتسليمها للشعب!

وقس على هذا عشرات الأفكار والمفاهيم الأخرى التي قد يقولها المسلم بغير وعي لكافة جزئياتها ومقاصدها وأحكامها الشرعية . .

فالناتج الصحيح مما سبق هو القضية الشرطية المتصلة الجزئية السالبة الآتية:

(ليس كل متلفظ بمفهوم كفري -فقائله كافر).

وبناءً على ما سبق فإن الخطوة الأخيرة تتضمن التأكيد على أن القياس الاقتراني الشرطي الذي يقوم به الجهاديون الذين يكفرون الديمقراطيين من الإسلاميين مكون من المقدمات الخاطئة الآتية:

المقدمة الصغرة: (كلما قيل لفظ الديمقراطية فالمقصود به المفهوم الكفري)

المقدمة الكبرى: (كل متلفظ بمفهوم كفري فقائله كافر)

فتكون النتيجة أنه:

(كلما قيل لفظ الديمقراطية -فقائله كافر)

وهي نتيجة خاطئة .. لأن المقدمتين غير صحيحتين أصلًا .. ويجب على من يبحث في الأمر أن يثبت أن الجماعة أو العين القائلين بالديمقراطية يقصدون المفهوم الكفري لا المفهوم العرفي، وأنهم يدركون التصورات الصحيحة لمفردات القضية .. ويدركون النسب السليمة لها .. ويعلمون الحكم الشرعي للقائل بتلك النسبة ..

لذا فالأمر شديد الصعوبة والتعقيد .. وغالب ما حصل من تكفير وظهور للغلاة الشباب الذين يكفرون الإخوان وغيرهم من الجماعات إنما جاء بسبب استسهال النظر في تلك القضية المعقدة واستحالة كون هذا القياس السطحي الذي يقدمونه هو القياس السليم ..

وبهذا القياس السطحي الساذج صار مرسي طاغوتًا وصارت الإخوان جماعة كافرة وصار الظواهري مداهنًا للطواغيت لأنه لا يكفر مرسي الطاغوت ولا يذم الجماعة الكافرة إنما يدعمها ضد السيسي وهكذا كان حازم .. إلخ إلخ ..

ولم تصبح القضية ذات آثار محلية في مصر فقط بل صارت ذات أثر دولي عالمي تسبب في انشقاقات بين الحركات الجهادية وقتال ورصاص متطاير هنا وهناك . . وكل هذا من قياس خاطئ أصلًا !



## مشكلة الجنس

## فلننتظر الاحتلال الغربي!

بقلم: عمرو عبد العزيز

قال المحاوِر متجاوزًا القضية: عند بناء الشباب .. هناك أشياء أهم مما تتحدث فيه!

كيف؟

كيف هناك شيء أهم من علاج هذه الكارثة؟

أسألك بصراحة: ما الشيء الذي يهيمن على عقول الشباب -كل الشباب- من الجنسين خلال العشر سنوات الأولى من بناء الوعي (١٢-٢٢)؟ هل تسمح لي أن أقول إنك كاذب لو نفيت أن المُسيطر الأول هو الجنس؟

نعم هو .. ويزيد من سيطرته أنه لا منفذ ولا أمل .. وجود إحباط داخلي في المراهق والمراهقة والشاب والشابة: هذا أمر لن

نصل إليه إلا بعد سنوات لا يعلمها إلا الله! حتى الجنة يمكننا العمل للحصول عليها لكن هذا يبدو كأن شيء خيالي لما نجده من مصاعب وعراقيل!

مجتمع التيار الإسلامي نفسه أول متهم! فهو في كل مكان جزء من منظومته المجتمعية الجاهلية . . والشاب بداخل التيار الإسلامي عليه عبئ يزيد عن مثيله ممن لا علم عنده -لأنه يعي مبكرًا كارثة الوقوع في كبيرة الزنا . . بينما قد يستهتر البعض الآخر ويرى الزنا فضيحة مجتمعية و(عيب) فقط، لكنه لا يأبه كثيرًا لمسألة النظرة الشرعية له!

ما الحل الذي قدمه التيار كله من الخليج للمغرب؟ مجموعة فخمة من شرائط الصبر على عدم الزواج! لقد خاطبوا صاحب المشكلة ولم يخاطبوا أنفسهم هم وأمثالهم كشيوخ وعائلات في يدها الحل!

ثم تجد التهوين -في النهاية- هو الغالب على خطاب الإسلاميين في حق الكارثة التي تهيمن على عقول المراهقين والشباب! لا حل حقيقي ولا جاد أو عام قدمه التيار ولا حتى الدول التي طبقت أجزاءً من الشريعة كالسعودية؛ إنما زادوا من

الكبت والفصل، فعاد الشذوذ للواجهة وأصبح هناك تطبيع للشذوذ بين الجنسين في المدارس! وهم في النهاية مساكين! هم ضحايا حلول الفصل بينهما عندما يترافق مع قمع الزواج المبكر فيصبح هو السخافة مجسَّدة: كأنك عندما تفصل بين الجنسين فلن يفكرا بالجنس! ولن يتحرك بعضهم لتفريغ تلك الحالة الشهوانية مع أقرب زميل مدرسي له من نفس جنسه!

حلول سخيفة . . إن كانت هذه حلول من الأصل! وتجاهل لأكبر كارثة (سرية) تضرب أسس ذلك المجتمع . . ولا حل لها مُقدّم وشافٍ حتى الآن!

عندما رفع الغرب سن الزواج إلى نهاية العقد الثاني من العمر، اضطر للرضوخ أمام الثورة الجنسية الشبابية في منتصف القرن الماضي . . وأصبح هناك تطبيع للأمر حتى أصبح الشذوذ هو العكس! أما نحن فقد وقفنا ببلاهة! القوانين عندنا مثل عندهم لكننا لا نجرؤ على السماح بتهارج الحمير المسمى بالثورة الجنسية!

ما الحل؟ كلمني عن الحلول السخيفة مرة أخرى! هم وصلوا لحل حقيقي ونحن لم نصل لأن الحل الذي وصلوا إليه لتفعيل تلك

القوانين لا يسمح به لا الدين الإسلامي ولا حتى الأعراف الشرقية -لذا فالنصراني الشرقي والمسلم سواء في تلك الكارثة!

عندما تقرأ في الديلي ميل أو الصن عن طفل بريطاني يعيش مع أم ولده عند أبيه، والأول في الحادية عشر والفتاة في الثالثة عشر . . ثم تكتشف أن الفتاة تعترف له أن الابن جاءت به من فتى آخر ضاجعها! تلك الأخبار تجيء في شكل طرفة مع استنكار يشبه قولك بطريقة ساخرة أو مؤنبة (هذا عيب يا أولاد) لكن لا صراخ ونواح حقيقي! ثم بعد أشهر تقرأ خبرًا آخر عن فتى بريطاني في الثانية والعشرين يتزوج فتاة أصغر منه بعام وبينهما في صورة الزفاف مراهق في العاشرة هو ابنهما! وخبر آخر . . وثالث ورابع! تشعر بالغيظ!

لقد فشلت قوانينهم عمليًّا . . ألا يفهم الأوغاد عندنا هذا؟! كانوا ينشرون أن الجنس المبكر كارثة ومُضر ومهلكة للفتاة والفتى . . لكن في التطبيق العملي سقطت تلك الدعاية الضخمة . . القوانين لم تمنع الجنس المبكر إنما منعت (الزواج المبكر)! منعت الحلال لكنها فشلت تمامًا في منع الحرام . . والحرام فتح باب الإباحية عندما اعتاد المراهقون عليه . . والإباحية فتحت باب الشذوذ

كتجديد! فلم يكن هذا الحل صحيحًا وتفسخ المجتمع روحيًّا!

أما عندنا فالكارثة ضعفين! القوانين من اتجاه والإباحية السرية الشاذة في اتجاه آخر .. وأغلب المراهقين يكتمون ويصبرون ولا يمارسونها فيقعون تحت ضغط نفسي وعصبي هائل .. ومع مصاعب الزواج وعراقيله لا تبدو لها نهاية حقيقية!

لقد علمنا الغرب شيئًا ثم رحل .. وسنضطر لانتظار أن يستفيق الغرب ويأتي لاحتلالنا ويسن القوانين لمنع ترك الفتيان والفتيات بلا جنس حتى السابعة عشر -من أجل صحتهم النفسية والجنسية- وسيقنع الأهالي المسلمين وسيقتنعون .. ما دام التيار المسمى بالإسلامي وحامل لواء الشريعة: هو نفسه لا يدري لتلك المشكلة حلًّا حقيقيًّا ولا يسعى فيه بصورة منظمة!



## لله ثم للتاريخ .. هذه ثورتنا(١)

**بقلم: محمد وفيق زين العابدين**

أكتُب هذه الصفحاتِ بقلم الشاب العربي الثائِر العاشِق لعروبته الغيور على وطنه، وبقلم الداعية وطالِب العلم المُحبِّ لدِينه، وبقلم الشاهد الذي يعرِض الأحداث ملتزمًا الحيدةَ فيما يشهد، وبقلم القاضي الذي يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، راجيًا من الله تعالى أن تقَع هذه الكلمات في قلب كلِّ مسلم ما زال صالحًا لكلِّ خير، ليُبصر بقلبه ما أبصره قلمي، ويعلم الله أنني صادقٌ فيما أقولُ أمينٌ على ما أكتب، لا أبتغي بذلك إلا المثوبةَ من الله . .

---

(١) كُتبت هذه المقالة بمناسبة ثورة ٢٥ يناير، ولم أُغير شيئًا مما ورد فيها، بل أبقيتها كما هي مُنذ كُتبت ونُشرت في بداية شهر مارس ٢٠١١م بموقع الألوكة على هذا الرابط؛

http://www.alukah.net/world_muslims/0/30284

لقد علم القاصي والداني أن وطننا العزيز قد ظلَّ دهورًا كالقصر شامِخ الذُّرَى، فخم البنيان، ضخم الجدران والأركان، بفضل الله ثم بفضل قوَّة الأساس الذي بناه عليه أجدادنا، الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيلِ تشييده على الوجه المذكور، بَيدَ إنَّه -وبرغم قوَّة الأساس الذي بُني عليه- قد كُثرت في أركانه الصُّدوع، التي كانت قد أذنت بقُرب انهياره، ورطُبت جدرانه التي كانت قد أوشكت على التداعي؛ لما اعتراه من تخريب المفسدين ردحًا من الزمان، وإهمال المستبدِّين به سنينَ تلوَ سنين، وانصرافهم عن تعهُّده بالإصلاح والتجديد، وانشغالهم بالنقش على حِيطانه الرطبة بالرُّسومات، وترقيع الشقوق بالطِّين، وبما هو أوهى منه، يُخادعون بذلك سكَّانه والذين يمرُّون إلى جواره، وما يخدعون إلا أنفسَهم.

لقد وليتنا أنظمةُ حُكم مستبدَّة، ساستنا كما الدواب رغبًا -إن شاءت- أو رهبًا، أنظِمة حُكم فاسدة سنَّتِ القوانين لمصلحة نفَر قليل من محترفي السياسة وأدعياء الوطنية، أنظِمة حُكم لا تعترف بالوطنية والحق والحرية إلا لمَن كان من أهل الثروة والمُلك وذوي السلطان، الذين دان لهم كلُّ شيء دون أن يكونَ لغيرهم أيُّ شيء،

كان الواحدُ من هؤلاء يعيش لنفسه على حساب الجماعة، ويُنشد الكسبَ والمصلحة لكيانه في خلسة عن كيان الأمَّة، التي لم يشعر يومًا بالانتماء إليها، تحكَّموا في الناس بالباطل، وتعدَّوا على حقوقهم، بل حتى أحلامهم، ولم يكتفوا بذلك، بل احترفوا بذرَ بذور الفِتنة والشقاق بيننا حتى يسودوا، فأودوا بكيان البلاد ومزَّقوا وحدتها.

لقد باتت حقوقنا غنيمةً سامها كلُّ مفلس، ومائدةً تهافت عليها الجِياعُ كلُّهم بلا استثناء، وصار اختلاسها والاستيلاء عليها هدفًا ثابتًا، فتسابق الناس في دفع الرِّشوة وتقاضيها في سبيلِ نيل شيءٍ من حقوقهم، حتى صار الفسادُ أمرًا مألوفًا، وأصبح الموظَّف شريفُ النفس، نظيفُ اليد، أمينُ الذِّمة شاذًّا مُستغرَبًا، وأصبح أكثرُ الناس يتجشَّمون وتنقلِب وجوههم وأفئدتهم عند الذهاب إلى قضاء مصالحهم، يغدون وإن صدورهم لتضيق بهم، ويَرجعون وكأنَّ أثقالًا أُنزلت من فوق ظهورهم.

أما إعلامنا وصحافتنا، فقد دأبت على تضليلنا، وحماية الشرِّ، والتنفير من الخير، بل إعلاء شأن كلِّ مفسد، واعتبار كلِّ من خالفهم متخلفًا رجعيًّا، فسمَّتِ الأشياء بغير أسمائها، ووصفتها

بعكس أوصافها، حتى أنكر الصالحون أنفسهم، وانكسرت قلوبهم، وعُطلت عقولهم، وماتت هممهم نحوَ الإصلاح.

هذه قصَّة تجريدنا من قلوبنا وعقولنا، وكرامتنا ووطنيتنا، قصَّة حِرماننا من ينابيع ثروتنا، قِصة تخريب دِيارنا الحبيبة الغالية على نفوسنا، التي هي من أعز ما نملك، التي عشنا فيه طفولتنا وشبابنا، التي تنفسنا هواءها، وشربنا من مائها، وطعمنا من أرضها، وتكلمنا بلسانها.

ووسط هذا الزخم والحِرمان، وهذه الفوضَى التي رسفتِ الأوطان فيها دهرًا طويلًا، أصلح الله ﷻ شبابًا أبيًّا في كلِّ حي وكل وطن، فيهم الصالِح والطالح، فيهم العمَّال والأطباء والقضاة ورجال الدين والأساتذة والصحفيون وغيرهم كثير، لكنَّهم جميعًا لا يقبلون الظُّلم والضَّيم، لا يقبلون الفسادَ والاستعباد، يؤمِنون بأن هذا الوطن يستحقُّ النهضة، يستحقُّ أفضل من هذه الثُّلة التي تحكُمه، يستحق أن يُعرِّضوا من أجله حياتَهم للخطر.

ثورة عمَّت كلَّ ما تراكم في بلادنا من شرور وطغيان، صيحة من صيحات الحق التي أردنا أن تدوي في هذا العالَم، قلَّما يطرق إلى مثلها آذان الملوك والرؤساء إلا بين كل دهر ودهر.

ثورة مبارَكة جعلتنا نؤمِن بأن الخير الباقي فينا يكفينا كي يُحيينا، ذلك الخير الذي ظننَّا يومًا أنه قد صدأ وغطَّته رطوبة البُعد عن الحقِّ وسطَا عليه غُبار الرذيلة.

لقد استوقفني كثيرًا -ولعله استوقَف غيري- منظر هذا الشاب الصغير الذي كانت الدنيا -قبل أن يَلقَى حتفه- تفتح له ذراعيها، ما الذي دعاه لتلبيةِ نِداء الثورة وهو ينشد:

**مَلَكنَا هَذِهِ الدُّنيَا قُرُونَا**

**وَأَخضَعَهَا جُدُودٌ خَالِدُونَا**

لِمَ لم ينشغل بحياته ومستقبله؟!

ما الذي دعاه إلى ترك بيته والخروج غير عابئ بالجوع وقلَّة الطعام، أو طول السهر وقلَّة النوم؟!

لِمَ لم يخلد للراحة والدَّعَة كشأن غيره؟!

كيف جرُؤ على مواجهة كل هذه الوسائل القاتلة؟!

وبعد أن تعسَّرت عليَّ الإجابة .. أيقنت أن هذا الشاب لم يكن يبحث عنِ الطعام والشراب أو المسكن أو الوظيفة، لقد خرَج في سبيل نيل حريته، والحفاظ على الباقي من كرامته، قدَّم حياته فداءً لهذا الوطن الذي آن له أن ينهض كغيره من دول الشرق

والغرب، قدم رُوحه لنحيا نحن حياةً حرةً أبيةً.

كان الناس يرَون هذا الحدثَ التاريخي الكبير بأعينهم، ويكادون لا يُصدِّقون أبصارهم.

لقد تدارك الله وطَنَنا برجالٍ قويت نفوسُهم بسلاح الأخلاق، واطمأنَّت قلوبهم بتآلفهم واجتماعهم على الحق، فحملهم ذلك على المغامَرة بأرواحهم وأرواح أبنائهم ومستقبلهم ومستقبل ذويهم، في سبيلِ إنقاذ هذه الأمَّة وهذا الوطن من الغش المخزي والفساد المخجِل.

رجالٌ لم تفلَّ عزيمتهم هذه الفِئة التي انحطَّت نفوسها، وللنفاق والرياء اطمأنَّت قلوبها، هؤلاء الذين أغراهم المفسدون، فما برِحوا يرجون خباءَهم، ويتزلفون إليهم؛ طمعًا فيما عندهم، فأوفى الغش والرِّياء لديهم على غاية الغايات، وبات الكذب والنفاق هو الأصلَ المتعارَف عليه بينهم، فثبَّتوا دعائم النُّظُم التي كانت قائمةً في العهد البائد، وتعاونوا على حِياطتها ورعايتها وضمان استمرارها، وما برِحوا يُضلِّلون الناس ويضيعونهم، فيقلِّلون من شأن هذا الشباب الثائِر، ويطعنون فيهم بكلِّ مطعن، فتارةً يصفونهم بالمخرِّبين، وتارةً يصفونهم بالحزبيِّين، وتارةً

يصفونهم بالعملاء، وتارةً يصفونهم بالبُلهاء؟!

حقًّا، انخدعت بهذه الفئة جموعٌ حاشدة صامتة، طاهرةُ النفس، نقيَّة القلب، ما زلتُ ألتمس لها العذرَ تلوَ العذر، فإنَّ الدخان الكثيف الذي أحاط بعقولنا وأبصارنا كفيلٌ بأن يُبعدنا عن الحق، ويجعلنا نحيدُ عن الطريق، ولا ضَير، فقد ظلَّت هذه الجموع المخدوعة تفيء إلى رُشدها يومًا بعدَ يوم، بعدما انكشف لها كذبُ هؤلاء المرائين المنافقين المنتفعين، بعدما رأوا تذبذبَهم في مواقفهم، وأنهم ليسوا كهؤلاء الشباب الذين يُصرُّون على مطالبهم، أو يموتون دِفاعًا عن قضيتهم، بعدما علِموا أن النائحة الثَّكلَى ليست كالنائحة المستأجَرة، ولن تزال هذه الجموع كذلك في الأيام والشهور والسنوات المقبِلة، فإنَّه لم يزل لديها القلبُ الطاهر، والعقل الحر، والنَّفسُ الأبية، والضمير الحي، الذي يحملها على تحرِّي الحق واتباعه.

ولقد شاء الله جلَّت قدرته أن يُحوِّل الشرَّ الواقع من جرَّاء هذه الثورة إلى خير محض، لقد زاد ارتباط الناس بعضهم ببعض، ارتبط شعبُ كلِّ وطن بالآخر، قويت الصلاتُ بين جيران كلِّ حي، وهم الذين كانوا من قبلُ ربَّما لا يعرفون أسماءَ بعضهم، تجمَّعوا

لحماية دورهم، والذَّود عن وطنهم، ومناقشة صالِح بلدهم، لم نسمع بحوادث القتل والسَّرِقة التي ألفنا سماعَ الكثير منها كلَّ يوم إلا فيما قُصِد به ترهيب الناس عن المُضيِّ قُدمًا فيما هم ماضون إليه، رأينا مسجونين محكومًا عليهم يُسلِّمون أنفسهم وهم أحرصُ من كانوا على الهروب، رأينا لصوصًا تُعيد المسروقات التي قاموا بسرقتها وهم أحرصُ من كانوا على إخفائها والظَّفَر بها.

إن الحبَّ والألفة والصدق والأمانة لم تنفكَّ عنا، تلك الفضائل التي غابت حتى ظننَّا أن رجوعها بيننا يحتاج إلى شهور، بل سنين، تبيَّن لنا أنها لم تَزل باقية فينا.

وبرغم قطع وسائل الاتصال في أشدِّ أوقات الثورة، فمهما حاول البعضُ -بل الكثيرون- الإحاطةَ بأحداثها، أو عدّ رجالها، فلن يصلوا إلى ذلك، ولن يُحيطوا إلا بأبعادها المكانيَّة والزمانيَّة.

وبالفعل تمَّت كلمةُ ربِّك ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، فزالت دولةُ الظلم والاستبداد، وقوَّض الله عهدَ الطغيان والفساد، ونصَر هؤلاء المستضعفين الذين كانوا رازحين تحتَ أثقال الفساد

الوظيفي، والتخلُّف التنموي، والسقوط الثقافي والاجتماعي، والانهيار التربوي والتعليمي.

انتصرت قوَّةُ الأخلاق والرُّوح العالية على قوَّة السلاح بنصرٍ من الله وفضلٍ عظيم. فوائد وعوائد جمَّة في أيَّام، فوائد لم نكن نحلُم بها لعقودٍ وسنوات، بل بقليل منها، وكل ما يُمكن قوله في شأنها أنها خطَت بنا المدى الذي لم نكن نتوقعه يومًا ما.

لقد كان الإسلام والعروبة -اللذان هما في أشدِّ أوقات غربتهما- في حاجةٍ إلى من ينتصر لهما، ويَثور على الظلمِ الواقع عليهما، فيرد الأمور إلى قرارها ونِصابها الصحيح، فجاءت هذه الثورات التي عصفَت ببلادنا، بلدًا تلوَ آخر، إيذانًا من الله بتحويل دفَّة السفينة عن اتجاهها الخاطئ، إلى الوجهة السليمة التي ستعود بها هذه الأوطان بإسلامها وعروبتها إلى زمنِ عِزَّتها ونهضتها، وإذا صدَق ظنِّي فنحن الآن في بداية طور جديد من أدوار التاريخ في العالَم العربي، سيضع حدًّا لفساد طال عليه الأمد، إذا ما ساعدنا رِجال الدِّين والقضاة، وأساتذة الجامعات والمعاهد والمدارس، فأسهموا بما لهم من سُلطة وتأثير على الناس في تغيير طبائعِهم وأخلاقهم، وتوجيههم إلى ما فيه صلاح هذه الأمَّة، وتعريفهم

بأبطال أمَّتهم وعظمائها، الذين كوَّنوا كيان عالمنا الإسلامي، وكما حَكَم التاريخ عليهم بما هم أهلُه، فإنَّ التاريخ -من بعدُ- ما زال يُراقبنا، ونحن في حاجةٍ ليطلقَ لسانه عنَّا بالخير، والذِّكر الحسن، والكلام الطيِّب.

لقد أثبَتَ هذا الحدثُ الكبير أن اجتماعنا لا يزال مظنَّة الخير الكثير، وكلما اجتمعت كلمتنا عُبِّدت لنا طرق السير إلى العُلا، وتمكنَّا من حمل أعباء الحق، وأعباؤه ليست بالهينة، فكل منَّا قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه الصادقين المخلِصين، وكلما كان في خضِمِّ هذه الحياة الصعبة أكثر إخوانًا كان بذلك أقوى على حِفظ كرامته وتحقيق أُمنيته.

أمَّا هؤلاء الذين تآمروا على الحق، فإن لم يثوبوا إلى رُشدهم وينضووا تحتَ لواء الجماعة الصالِحة، فسيُنبذون وسيطويهم الزَّمان كأن لم يكونوا، بل سيذكُرهم التاريخ بشَرِّ سيرة، وأخبثِ سريرة، وسيحمل كلٌّ عنصر منهم مسؤوليةَ ما كان يحمله من دعائم العهد البائِد، وما كان يتولاه من نِظامِه الفاسد، وليعلموا أن الله يُمهل ولا يُهمل، وأن الوقت قد لا يُسعِفهم قبل أن يثوبوا إلى رُشدِهم ويَحزموا أمرَهم ويَسلكوا الطريق.

إن نِعم الله السابغة علينا متوالية، بَيد إن هذه النعمةَ كانت من أعظم النعم، فما تَمَّ لنا حتى الآن من خير فإنه من صُنع الله، ولأنَّ شكر النِّعمة ينبغي أن يكون من جنسها، ولأن الأحداث تُقدَّر بنتائجها، وتحقيق النتائج في أعناق الناس، منوطٌ بهم وبقدر حملهم الأعباء الثقيلة التي تُلقَى على كواهلهم، فإن قصَّروا في حمل مسؤولياتهم، وقصُرت خُطاهم عنِ التعاون والتكافل، فلا حاجةَ لانتظار النتائج التي لن تُولَد.

لذا . . فإنَّنا في مواجهة صعبة ومهمَّة معقَّدة؛ مواجهة مع هذه الآثار التي خلَّفها لنا الفاسدون، تلك الجذور والبذور المتناثِرة الباقية من تلك الشجرة الخبيثة التي تَطمع بأن تروى فتنمو وتعود للحياة من جديد، مواجهة مع قُوَى العالَم من حولنا التي يسوءها وحدتُنا ونهضتنا، ومن ثَمَّ منازعتنا لها في الأمر، لنثبتَ لهم أننا أحقُّ منهم بالسبق، وأنَّنا قادرون على النهوض بهذه الأوطان، مواجهة مع أنفسنا لنثبتَ لها أننا قادرون على أن نحافظ على تلك الأخلاق التي اكتشفناها في أنفسنا، وقبل كلِّ هذا في امتحان من الله؛ لينظرَ هل نرجع إلى دِيننا الذي هو مصدرُ عِزَّتنا، فيُقيّض لنا من عباده من يُؤيدنا ويُعيننا ويُيسّر لنا مهمتنا، أم أننا لسنا

أهلًا لنعمته التي أنعمها علينا؟

ألا فلنبدأِ العمل، وليتحوَّل كلُّ عامل منَّا في هذا الوطن -بمداركه أو جوارحه- إلى عضو نافِع سليم في أمَّة نافعة سليمة، لنُعلن الشكرَ لمولى النِّعم على نعمه، بحسن استعمالها فيما خُلقت له، لتتكلَّمَ مؤسَّساتنا ومصانعنا وحقولنا، أقلامنا وآلاتنا وفؤوسنا، لسنا أقلَّ من هذه الأمم، عبَدة الدرهم والدِّينار، عبَدة الأصنام والأبقار، نحن أحقُّ منهم بالتقدُّمِ والرُّقي، والثروة والسعادة، والعِزَّة والرضا عن النفس، لقد آنَ لنا أن ننشطَ من عِقالنا، وأن نتخلَّص من ضعفنا وهزالنا، بعدما تحرَّرنا من قيودنا، وانطلقنا من سجوننا، لنُعيدَ لهذه الأمَّة مجدَها الموروث عن سَلَف عظيم لهم تاريخ عظيم.



## ملامح قرنين فاصلين في التاريخ المصري

**بقلم: محمد إلهامي**

من أهم الفوارق بين الدولة في الإسلام والدولة الحديثة، هو أن الدولة الإسلامية تقوم على مبدأ «توازن القوى» في المجتمع، بينما تقوم الدولة الحديثة على احتكار القوة بيد السلطة. وينتج عن هذا أن السلطة في الدولة الإسلامية تقوم بالواجبات الكفائية التي لا يستطيع أحد غير السلطة أدائها مثل توفير الأمن وحفظ الثغور وإقامة الحدود وجمع الأموال المفروضة وتوزيعها فيما يقوم المجتمع بكافة الأنشطة الأخرى وقد يزاحم السلطة في بعض الأعمال كالتكافل ورعاية الفقراء والأيتام ويعتمد في هذا على الابتكار الإسلامي المبدع «الأوقاف» الذي يمثل جهاز تمويل ضخم لكل هذه الأنشطة، بينما تقوم السلطة في الدولة الحديثة بكافة الأنشطة وتتحكم في كل التفاصيل وتدير كل المرافق وتوزع

الأموال ولا يملك المجتمع أن يتحرك في أي نشاط بغير إذن وتصريح منها.

ساد النظام الإسلامي في الشرق، بينما ساد نظام الدولة الحديثة في الغرب، ومن هنا كان المجتمع الإسلامي أشد ترابطا وتماسكا وقوة من المجتمعات الغربية، وكان الفرد متوزعا بين انتماءات عديدة: قبلية واجتماعية وحرفية، بينما كان النظام الغربي يميل إلى الفردية(١) عبر تاريخه، ففيما تواجه السلطة في النظام الإسلامي كتلا اجتماعية في عموم الأحوال تواجه السلطة في النظام الغربي مواطنين أفرادا في عموم الأحوال.

## عصر محمد علي

يعتبر عصر محمد علي انقلابا في التاريخ الإسلامي، إذ هو مؤسس الدولة الحديثة في مصر، والدولة الحديثة نشأت في سياق غربي طبيعي وبدت في ذلك الوقت وكأنها الحل الأمثل للمجتمعات، وذلك أن التفوق الغربي العسكري والصناعي جعل

---

(١) الفردية من الأعمدة الستة للحضارة الغربية كما في كتاب «انتحار الغرب» لريتشارد كوك وكريس سميث، وهي شائعة في الفلسفة الغربية عموما.

الأنظار في القسطنطينية والقاهرة تتوجه إلى هذا الغرب تبتغي تقليده ومعرفة سر قوته، ولذلك استعانت السلطنة العثمانية وسلطنة محمد علي في مصر بالخبراء الأجانب والنظم الأجنبية في تطوير البلاد الإسلامية، فدخلت إلينا الدولة المركزية.

وفيما لاحظ نجباء العالم الإسلامي آنذاك أن سر التفوق الغربي ليس فقط في تنمية الموارد وإنما في الحريات السياسية وانتشار العلوم[١]، إلا أن السلطات في مصر وتركيا وغيرها لم ترحب بهذه الآراء ولم يهمهما إلا أن تأخذ ظواهر المسألة «التنظيم الإداري»، الذي يؤول في أحد وجوهه إلى تركيز السلطة كاملة بيد الدولة (وهي في الحالة الإسلامية آنذاك: الحاكم الفرد الذي لا تقيد سلطته سلطات أخرى شعبية كما في إنجلترا وفرنسا)، فبدأ محمد علي حربه بتحطيم النظام الاجتماعي الذي لا يتناسب بطبيعة الحال مع هذا الوضع الجديد[٢]، فحطم رؤوس العائلات لكي

---

(١) ويراجع هنا ما كتبه أمثال الشيخ رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وأحمد فارس الشدياق، وهم أوائل الرحالة الذين زاروا أوروبا في ذلك الوقت وكتبوا رحلاتهم وفيها خلاصة أسفارهم.

(٢) كان محمد علي نموذجا مبكرا من أتاتورك في تركيا والشاه رضا بهلوي في إيران وأمان الله خان في أفغانستان.

لا يبقى في البلد رأس غيره، وحطم نظام الحرفيين وتجمعاتهم لأن الدولة صار لها مصانع تريدهم، والفلاحين لأن الدولة صارت مسيطرة على نظام الري وتوزيع الأراضي، وفي ضربة هائلة ألغى نظام الأوقاف واستولى على كل ما لم يستطع صاحبه إثبات أنه وقف (ولم يكن الزمن زمن اهتمام بالتوثيق) متعهدا بأن الدولة هي من ستنفق على مصارف الأوقاف، وفي ضربة قاصمة منع على الناس حمل السلاح أو الاحتفاظ به[١] فسلب الأمة حقا طبيعيا ظلت متمتعة به منذ وُجِدت متعهدا بأن السلاح في يد الدولة ضمان للجميع (وهذا ما لم يكن صحيحا بالطبع) وأسس جيشا على الطراز الحديث (وهذا الطراز ربما كان مناسبا لأوروبا التي تستعبد الأرض والفلاحين في سياقها الإقطاعي، لكنه في المجتمع الإسلامي أشبه بتكوين عصابات مرتزقة) ليس للجندي ولاء لأحد إلا للدولة، وتدليلا على هذا فقد كافأ جنديا قتل أباه في إخماد احتجاج ضد سياسة محمد علي . . وأسس محمد علي مدارس

---

(١) وهذا رغم أن السلاح الموجود بيد الأمة هذا قد أنقذ له عرشه إذ استطاع المصريون وبمقاومة شعبية صد حملة فريزر الإنجليزية (١٨٠٧) قبل أن يتحرك لها محمد علي.

لتعليم العلوم أدارها أجانب بطبيعة الحال وأدخلوا فيها فلسفاتهم دون علومهم.

## عصر أبناء محمد علي

ومات محمد علي وقد استطاع سحق الشعب المصري وتدجينه وتغيير نظامه الاجتماعي والاقتصادي، وصحيحٌ أنه أنجز كثيرا على مستوى البنيان والعمران لكنه قتل الروح والإنسان، ثم خلفه أبناؤه فواصلوا سياسة أبيهم إلا أنهم كانوا أقل منه شأنا وهمة، وكان بعضهم مثل إسماعيل مفتونا بأوروبا وكان غاية في التبذير، فكانت فرصة متميزة لنمو نفوذ الأجانب الذين أوجدوا كطبقة لها نفوذ منذ عصر محمد علي، لكنها اكتسبت مزيدا من النفوذ من خلال قوانين تجعل لهم وضعا اقتصاديا وقانونيا خاصا، بل وتجعلهم تابعون لسيادة دولهم دون الدولة المصرية، بل ويحكم القناصل الأجانب في أي قضية طرفها أجنبي، مما آل -واقعيا- إلى جعل النفوذ الأجنبي أقوى من النفوذ المصري.

ومن هنا تحول عصر محمد علي من حكم الفرد إلى «نظام»، وصارت له مؤسسات وطبقات منتفعة، فترسخ التغير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي بدأه محمد علي، فيما استمر ضعف

النظام السياسي بضعف خلفائه، فضعف ما خلفه محمد علي من البنيان والعمران، فاجتمع على الناس الأشدان الأمران: مساوئ الدولة المركزية، والاستبداد. فكانت خيرات البلاد غير منصرفة إلى تقوية الجيوش والعمران كما في عصر محمد علي بل كانت تذهب رأسا إلى الأجانب والمتنفذين.

استدعى هذا ثورة شعبية برزت أهم فصولها في الجيش المصري، وقادها واحد من طبقة الترك ترفع عن انتمائه وآثر الانتماء إلى الحق أولا وهو محمود سامي البارودي، وكان ذراعه فيها أحمد عرابي، مع لفيف من القيادات الإصلاحية (كجمال الدين الأفغاني الذي بذر بذورها، والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الله النديم الذي كان لهيبها وخطيبها وصوتها الشعبي) والاجتماعية.

وفيما الأمور في شد وجذب مع الخديوي توفيق، سارع الإنجليز بالدخول على الخط ليسبقوا الثورة (وتقول مصادر فرنسية بأن فرنسا وافقت لأن وجود إنجلترا «العدو اللدود» في مصر خير من ثورة إسلامية)، ونزلت الجيوش الإنجليزية ولم يكن الجيش المصري (بعد نحو أربعين سنة من الضعف والتخريب) في حال

يسمح له بالتصدي له، فهزمت الثورة والجيش والبلد معا، واستلم الاحتلال الإنجليزي بلدا ذات شعب قد استوى تدجينه عبر ثمانين سنة!

وكان هذا أحد آثار محمد علي في مصر، إذ الشعب بعدما نُزِع منه السلاح عجز عن مقاومة شعبية كتلك التي أشعلها في وجه الفرنسيين قبل ثمانين سنة، كما أن تخريب بنيته الاجتماعية والاقتصادية وإقامة الدولة كبديل عن المجتمع أدى إلى أن يكون سقوط الجيش الرسمي سقوطا للمقاومة، وسقوط العاصمة سقوطا للدولة والاستيلاء على مؤسسات الدولة هو استيلاء على مفاصل المجتمع.

## عصر الاحتلال

عاش الاحتلال الإنجليزي سبعين عاما في مصر، وقد وجد بلدا مهيئا للاحتلال، وتحالف في وجوده مع الطبقة الحاكمة المتنفذة (الأرستقراطية التركية: الملك والعائلة العلوية والحاشية + طبقة كبار الملاك المصريين) التي اتخذ منها ظهيرا معلنا وكذلك معارضة معلنة!

عمل الاحتلال على ترسيخ النظم التي أسسها محمد علي،

مع إضعاف متعمد للمؤسسات الإسلامية كالأزهر، واتخذ تدابير لإضعاف الجيش في بداية الأمر وذلك لكي يعيد إنشاء جيش وشرطة على عينه، وقد كان، ومنذ تلك اللحظة حتى كتابة هذه السطور كانت الشرطة والجيش في مصر أذرع تعمل في صالح الاحتلال وإن بشكل غير مباشر.

لقد حافظ الاحتلال على المؤسسات المصرية ليجعل منها قلاعا للتغريب، واستعمل كل الإمكانيات المصرية في خدمة مصالحه، حتى الجيش المصري استعمله في حروبه، واستطاع الجيش المصري في الحرب العالمية الأولى القضاء على ثورة في السودان ضد الإنجليز والسنوسيين في الغرب وهزيمة القوات العثمانية عند قناة السويس (مما أدى بشكل مباشر لاحتلال الإنجليز لفلسطين وضياع القدس)، وعملت أنظمة التعليم والثقافة والإعلام على ترسيخ القيم الغربية وإفراز نخب وطبقة متغربة تمثل ظهيرا له، واستطاع من خلال بعضهم (سعد زغلول وحزب الوفد) إجهاض ثورة شعبية كبرى اندلعت في (١٩١٩م) حتى أدخلها في دهاليز ومتاهات التفاوض (وقد فشلت المفاوضات بطبيعة الحال، فالثورة لحظة فارقة) وقضى عليها، وعادت الأحزاب الهامشية

تتعارك حول سلطة وهمية تحت ظل حراب الاحتلال.

## الحكم العسكري

يتفق جمهور المؤرخين على أن مصر في مطلع الخمسينات كانت تغلي وتتهيأ لثورة شعبية جديدة، حتى إن حزب الوفد نفسه اتضح أنه فقد السيطرة على الجماهير، وظهرت حركات أشد فتوة وثورية وإن كانت نقطة ضعفها الرئيسية أنها كانت خارج نطاق الحكم والسلطة، وبالتالي ضعيفة التأثير في إحداث تغيير كبير.

وترافق ذلك مع انتهاء الحرب العالمية الثانية التي أسفرت عن أفول نجم إنجلترا وفرنسا وبزوغ نجم أمريكا والاتحاد السوفيتي، وبدأت القوتان الجديدتان في وراثة القوتان الشائختان، وكانت مصر من نصيب الأمريكان التي استطاعت ترتيب انقلاب عسكري في يوليو **١٩٥٢**م، وسبق ذلك انقلابات مماثلة في سوريا وتبع ذلك انقلابات أخرى في العراق مع ترتيب الوضع مع عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في السعودية . . فالخلاصة أن أمريكا ورثت منطقة الشرق الأوسط.

لئن عانى المصريون من استبداد محمد علي، ثم أضيف عليهم مساوئ الدولة المركزية الفاسدة في عهد خلفائه، ثم أضيف

عليهم الاحتلال الأجنبي . . فلقد جاءت لحظة تمثل الأمل، لأول مرة يحكم المصريون مصري، فأحرى به أن يكون مخلصا لبلاده غير تابع لأحد!

إلا أن الحال جاء عكس الحال، فقد كان الحكم العسكري أسوأ الأحقاب على هذه البلاد قاطبة، وقد فعل بالمصريين ما لم يجرؤ الاحتلال الإنجليزي نفسه على فعله، لقد أكمل سياسة المحتلين بأشرس ما يمكن، وتفنن في إذلال المجتمع وكسر طاقاته الثورية والروحية، وفقد المصريون حتى أخلاق الملوك فجاءهم شراذم الناس وأسافلهم في موقع السلطة، فاجتمعت أخلاق السفلة مع طباع العسكرية الغليظة الجلفة، وتدهورت البلاد بسرعة غير متصورة على كافة المستويات: اقتصادا وثقافة وسياسة وحتى قدرة عسكرية، ولم يحقق العسكر -وهم في موقع السلطة- ولا نصرا واحدا، بل كان عهدهم سلسلة من الهزائم المتوالية، وضاعت في عهودهم أرض العرب والمسلمين، ولم يكن لهم من إنجاز إلا في سحق الشعوب وكسر ثوراتها.

لم يُسمح في عهد عبد الناصر بمجرد وجود معارضة، وكانت السجون والمعتقلات تفتح أفواهها لكل من يشتم منه رائحة عدم

الرضا، وحورب الإسلام لا بحرب أهله فحسب بل بحرب القيم، وأدخلت الشيوعية قهرا وقسرا في مؤسسات الإعلام والتعليم والثقافة، وألغيت آخر مظاهر الإسلام في المؤسسات: المحاكم الشرعية، ولم يبق من الشريعة إلا الأحوال الشخصية تقضي بها محاكم علمانية وقضاة لم يتلقوا قسطا كافيا من علم الشريعة . . أما باقي المؤسسات والأنشطة فكانت الشيوعية هي الدين الذي يسيطر عليها وتنطق باسمه.

واضطر أنور السادات -بعدما خلف عبد الناصر- إلى الاستعانة بالإسلاميين لتقوية جانبه ضد رجال عبد الناصر والشيوعيين، وخاض حرب أكتوبر -وهي في أحسن الأحوال نصف نصر عسكري- التي يراها كثير من المحللين حرب تحريك لا تحرير، إذ تفيد مجمل مذكرات شهود هذه الفترة أن السادات كان يريد إنهاء الحرب والوصول إلى سلام بأي ثمن وبأي تنازلات، وقد أفضى هذا إلى معاهدة سلام تمثل فضيحة سياسية فوق كونها جريمة شرعية مع إسرائيل!

وفي سياق تحولات السادات عن سياسية عبد الناصر، بدأ في التحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية، وأهم ملامحها الانفتاح

الاقتصادي (ولم يفكر أبدا في انفتاح سياسي حقيقي، بل سمح بانفتاح شكلي يمكن من خلاله إنشاء أحزاب ووجود معارضة صورية تعمل بإذن من الدولة وتحت سيطرتها الكاملة)، فأنتج هذا بزوغا سريعا لطبقة تجارية مصرية قلبت لمرة أخرى البناء الاجتماعي المصري، وبذرت فيه بذرة الاستهلاكية والنشاطات الترفيهية والخدمية (دون الاقتصاد الحقيقي والتصنيع)، فظهرت في مصر آثار التحول إلى الرأسمالية بأسرع وأعنف ما يمكن: مثل الهجرة المتتالية من الريف إلى المدن مع ما يحمله ذلك من مشكلات اجتماعية للريف والمدينة على حد سواء، ومن انهيار للأخلاق الراسخة ليحل محلها أخلاق السوق النفعية، ثم كان وجود الفساد في مؤسسات الدولة مما جعل السياق كله عاملا على دفن المواهب الحقيقية في مقابل صعود الانتهازيين والمتطفلين، لأن مؤسسات الدولة لم تعد ذات كفاءة لتخريج الأفضل، مع قدرة الطبقة الجديدة المتشكلة حول السلطة على أن تكون طبقة مغلقة لا يدخلها إلا ذوي المواهب في التملق والتسلق.

ثم جاء عصر حسني مبارك، وهو رجل بليد بلا رؤية ولا مواهب ولا إنجاز، وطال عمره حتى حكم ثلاثين سنة كأنما

وُضِعت فيها البلد في ثلاجة، فلم تحدث تحولات مهمة إلا أن مسار المساوئ التاريخية منذ عصر محمد علي صار ينمو ويضطرد ويزيد، فازدادت شدة وتماسك الطبقة الحاكمة المؤلفة من عسكر ورجال أعمال، وانتهى إلى العدم أي إصلاح سياسي حتى وصل الحال به في سنواته الأخيرة أن يمهد لتوريث الحكم لابنه فيما يشكل انقلابا على مبدأ الجمهورية نفسه الذي اكتسب منذ ستين سنة، وازداد التدهور على كل المستويات حتى صارت مصر ذراعا أمريكيا صريحا في حرب الحركات الإسلامية في مصر وسائر المنطقة العربية، وتولت تقويض المقاومة الإسلامية في فلسطين (حماس وغيرها)، وسارت في طريق التطبيع مع إسرائيل إلى آخر الشوط حتى عُدَّ حسني مبارك كنزا استراتيجيا للإسرائيليين.

على أن ترسيخ الرأسمالية هذا (الانفتاح الاقتصادي دون الانفتاح السياسي) لم يكن خالصا، فما إن ظهرت طبقة من رجال الأعمال تعمل في الاقتصاد الحقيقي حتى صفيت، فيما عرف بتصفية شركات توظيف الأموال، وهو ما يراه المفكر المصري القدير الضربة الرابعة في تاريخنا المعاصر، إذ تعرضت الطبقة البورجوازية الوطنية في بلادنا -وهي الطبقة التي قامت على أكتافها

كل النهضة المعاصرة في أمريكا وأوروبا واليابان- لأربع ضربات قاسية فالأولى هي ضربة محمد علي، والثانية هي ضربة الاحتلال الإنجليزي، والثالثة هي ضربة عبد الناصر، والرابعة هي ضربة حسني مبارك لشركات توظيف الأموال.

ثم جاءت ثورة يناير **٢٠١١**م، وما تزال فصولها دائرة، وحقيقة المعركة بينها وبين النظام هو في قدرتها على إنهاء دولة محمد علي العسكرية الاستبدادية المركزية وما نشأ حولها من طبقة اقتصادية نفعية انتهازية لصالح تمكين حقيقي للشعب وصياغة جديدة للبناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. وهذا البناء الجديد لا يكون إلا بالإسلام الذي له من العمق والرسوخ كما له من القدرة على تثوير الناس وإشعال طاقاتهم ما يجعله الأقدر على إنجاز التغيير الأسرع والأعمق والأقوى.

هذا بالإضافة إلى ما للإسلام من نمط في بناء الدولة والمجتمع يقوم على «توازن القوى» بين السلطة والمجتمع، وهو سر النهضة الإسلامية الأولى، وهو ما اقتبس بعضه النظام الحديث في جانب «مؤسسات المجتمع المدني» التي لم تبلغ شيئا مما بلغه النشاط المجتمعي الإسلامي لطبيعة نظام الدولة الحديثة نفسه.

من الطبيعي أن تكون المعركة قاسية ومريرة، ولكن ما دام للثورة رجال يبذلون وسعهم ويستعينون بالله على عدوهم، فالنصر بإذن الله قريب ومأمول.



# عسكرة الشعب
# من أجل أُمة أفضل!

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

قد يثير دهشتك معرفة أن أحد أوائل الدول الإسلامية في تاريخ المسلمين التي طالبت الشعب بالتسلح وتعلم استعماله بصورة رسمية، كانت أكثر دولة عسكرية في التاريخ الإسلامي: دولة المماليك!

وبرغم أن المماليك كان نظام الحكم لديهم يعتمد على القوة والقوة ثم القوة؛ وهو أمر يجعل من تسليحهم لشعب يقهرونه في أحيان غير نادرة -أمر شديد الخطورة . . إلا أنهم سارعوا بذلك ونادوا به في أهل دمشق والشام، كما روي ابن كثير في البداية والنهاية، بعد الوقائع المتتالية مع قازان ملك التتر . . والتي جاءت في ختام القرن السابع وبداية القرن الثامن من الهجرة . .

وكان الغرض واضح ويطابق عموم ما ذكرته قبلًا في كتاب وطن الراشدين عندما طالبت بنشر ثقافة التسلح في كافة أرجاء الأمة المحكومة -وهو تقوية الناس لمجابهة العدو عند انهيار الجيش النظامي وتحويل مواجهته لغير النظاميين من الشعب جحيمًا محققًا . .

ومع أن هذا التسليح بالطبع لم يستمر . . ولم يكن من أغراضه مواجهة الاستبداد العسكري الحاكم . . كما أنه لم يتم تجربته بصورة فعلية لأنه جاء بعد معركة شقحب وانكسار التتار الكسرة الختامية عن دخول دمشق -إلا أن مجرد ظهور تلك الفكرة في زمن متقدم على ميثاق الحقوق الإنجليزي (أول قانون يشرعن حمل السلاح للمدنيين) بحوالي أربعة قرون هو أمر يثير الاهتمام مع بعض الإحباط!

فالاهتمام مصدره معروف . . أما الإحباط فسببه واضح كذلك إن تأملنا قليلًا في كون المسلمين قد سبقوا الغرب في أمور وأفكار كثيرة ريادية . . لكنها لم تتم ولم تصبح منهجًا مؤصلًا في تربية شعوب الأمة . . وقد يكون السبب الواضح لهذا هو كون الفكر الاستبدادي المُحتقِر للشعب والذي يُخرجه من المعادلة

بدعوى أنهم عوام ودهماء -ظل هو الفكر السائد لقرون متطاولة من تاريخ المسلمين مسيطرًا على أدمغة الفقهاء والعلماء والأمراء . . فصاحب السلطة لم يجد فائدة من تغيير هذا الفكر والقادرون على تغييره من أهل العلم كانوا أكثر ثباتًا ورسوخًا في دعم هذا الفكر لا تغييره . .

ومن المثير للاهتمام كذلك كون قرار تشجيع الشعب لحمل السلاح في الشعوب الأنجلوساكسكونية والذي كان ميلاده في إنجلترا -جاء بعد حرب أهلية مذهبية ضخمة . . ظُلِم فيها أتباع مذهب من حاكم على مذهب آخر استبد بهم وقمعهم بعنف . . فجاء القانون بفكرة أصلية وهي أن التسلح لمواجهة استبداد الحاكم أولًا . . وهو ما سيظهر أثره لاحقًا في أحاديث وحوارات المشرعين الأمريكيين (الآباء) عندما يصيغون الدستور ومادة جواز حمل السلاح . .

بينما كان قرار المماليك لدعم مواجهة العدو الخارجي من قبل الشعب حينما يفشلون هم أنفسهم كعسكر حاكمين في الصمود أمامه -كما جرى في الوقعة الأولى ضد قازان . .

فكان القرار الإنجليزي لمواجهة الاستبداد أولًا ثم مواجهة

الغزو الخارجي ثانيًا . . وكان القرار الأمريكي بالتسليح لمواجهة الغزو الخارجي بعد أحداث الثورة ضد الإنجليز ثم مواجهة الاستبداد ثانيًا . .

بينما القرار المملوكي كان لمواجهة الغزو الخارجي فقط: كالعادة مواجهة الاستبداد عنوان غائب عن عموم تاريخ الثقافة الإسلامية التي ربت في عصور الجبر والعضوض!

لذا فثقافة ثورة الحسين ضد الجور والجبر لابد أن تنتشر كما تنتشر ثقافة الخلافة . . ولا خروج حقيقي من حلقة ممالك الحكم الجبري إلا باستمرار بعث تلك الثقافة وتوجيه العناية لإدخال الأمة إلى المعركة والمشاركة فيها بصورة حقيقية . . سواء بتسليح الشعب وتدريبه جيدًا، أو بنشر ثقافة رفض الجور والاستبداد والبغي، أو بأخذ رأيه في هوية من يتولى أمره فعلًا وتحقيقًا . . وجعل رأي الأمة أصلًا من أصول شرعية الحاكم كما كان الأمر في الخلافة الراشدة -لا فرعًا هامشيًا . .

وعلى من نصب نفسه إمامًا لفئة من المسلمين أن يعلم كون إمامته غير المستفتية للأمة ولا الآبهة بها، في زمن لم يعد يصلح فيه ذلك -قد يقبل بها من تحته لأن إمامته جاءت في وقت عسرة وشدة

ومدافعة لأعداء الله .. ونصب راية واحدة جامعة -ولو شابها جور- خير من تفرق وتشرذم وقت نزول البلاء الرافضي والصليبي واليهودي .. لهذا الأمر فقط يمكن القبول به .. من باب أقل الضررين .. فيتوجب عليه أن يسعى في بعث ثقافة احترام الأمة وشعوبها والسعي لتشاركهم في القضية ورفع الجور والبغي عن المخالفين -وإلا فلن يصل إلى شيء وسيظل إمامًا مكملًا لسلسلة حكام (أقل الضررين) المتجبرة التي سادت تاريخ المسلمين ..

إن تقوية الأمة وشعوبها هي الحل الوحيد لاستمرار الصمود وبناء أمة قوية تستطيع المحافظة على نفسها في مواجهة الآخرين ..

وإن جعل الشعب قادرًا على جهاد الدفع -من أولى أولويات هذا الزمان على المسلمين .. وأول مبادئ القدرة هي تقويته نفسيًّا بمشاركته في اختيار إمامه وزرع روح العزة والكرامة والإباء والاستعلاء داخل أعماقه بنشر ثقافة رفض الجائرين، وتقويته عسكريًّا بتعويده على حمل السلاح واستخدامه وكيفية استخدام حرب العصابات الحديثة بصورة جيدة ..

وكل من نصب نفسه إمامًا أو أميرًا للناس ويعلم هذه الأمور ومع ذلك لا يسعى لإجرائها -أخشى أن يكون مخطئًا بشدة في حق أمته مبصرًا لما تحت أقدامه فقط لا أبعد من هذا!



# بين العلم والثقافة ..
# في انتظار الفقيه الأكبر

بقلم: عمرو عبد العزيز

(الحضارة تُعلِّم أما الثقافة فتنوِّر . . تحتاج الأولى إلى تعلُّم أما الثانية فتحتاج إلى تأمُّل)

أورد بيجوفيتش العبارة السابقة للتفرقة بين نسقين مختلفين -وهما العلم والثقافة . . فجعل العلم أساس الحضارة . . لكنه مرتبط بالسيطرة على الواقع المادي وحركته . . بينما الثقافة أعلى شأنًا من ذلك -إنها التأمُّل الجوّاني للإنسان في مكونات دنياه . . وكان رأيه أن هناك (تقدمين) هما التقدم العلمي والتقدم الثقافي ولا يرتبط أحدهما بالآخر بأي رباط جوهري . .[(١)].

لم تكن (ثقافة) التأمُّل السياسي ورفض الاستبداد في فلسفة

---

(١) بيجوفيتش. الإسلام بين الشرق والغرب: ١١٠.

الإمامة والحكم الإسلامي تاريخيًّا عند أهل السنة بذات الثراء الذي تمتعت به مباحث أخرى مثل (علوم) و(ثقافة) معرفة ذات الله وصفاته وشريعته في علوم الكلام والأحكام الفقهية العملية .. وانحصرت بشكل ما على الفلاسفة ممن كان أهل السنة يرفضون اعتبار كتبهم ورؤيتهم ذات شأن كبير.

قد يكون الرد الحاضر فورًا هو: وهل الأولى على خطورتها -مثل الثانية التي قد يهلك المرء بسببها في الدنيا والآخرة؟

هذا صحيح .. ولكن الأمر -كذلك- ليس بهذه البساطة!

إن مباحث السياسة في إسلام أهل السنة تم التعامل معها كعلم واقعي جدًّا .. لا كثقافة فلسفية تموج بالآراء الكبرى والتوليدية للنظريات الجديدة في الحكم وتفاصيله كما جرى في أوروبا عصور النهضة، ولاحظ مثلًا كيف أنه عندما قام المؤرِّخ التنظيري الكبير، وأهم باحث في فلسفة التاريخ عبر تاريخ المسلمين المتقدمين، ابن خلدون -بتقديم تفسير تجريدي لكيفية ظهور حكم شخص ما عن طريق التحليل التاريخي اعتبر أن النظرية الواقعية تتلخص في العناوين الآتية (الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية) و(أن الرئاسة على أهل العصبية لا

تكون في غير نسبهم) فكتب في كل منهما فصلًا . . وكان افتتاح الفصل الثاني أكثر وضوحًا بإيراده شرحًا موجزًا لقواعد النظرية الواقعية التي يمكن استنتاجها من التاريخ عامةً ومن التاريخ الإسلامي (العضوض والجبري) خاصةً: (أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية) ثم قرر القاعدة النظرية التالية المستنتجة بأن (الرئاسة لابد أن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية) . .

وهذه القواعد مقبولة في تفسير تاريخ المسلمين من بعد الخلافة الراشدة . . تاريخ العضوض والجبرية . . فمن عُصبة إلى عُصبة تنقَّل المسلمون . . ومن فرد إلى فرد انتقلوا بلا رأي -كإرثٍ جامد!

والمشكلة في هذا الكلام أن ابن خلدون قد قرر تلك القواعد لا بمنهج الاستعراض المحايد لما جرى من مأساة الجبرية . . إنما كقواعد عامة في فلسفة التاريخ . . صالحة لكافة الزمان!

ولكن لم يكن الأمر كذلك بالضرورة على مستوى العقائد المخالفة لأهل السنة، فقد كانت الثقافة السياسية عند الإباضية والإمامية (على سبيل المثال ورغم الانحراف فيهما) أكثر قوةً وثراءً

وبحثًا في الشأن السياسي من حيث فلسفته الكبرى، والسبب في هذا واضح جدًّا . . وهو أن منبع ظهور هذه الفرق كان سياسيًّا في الأصل . . والخلاف بينهما أنه في حالة الشيعة لحقت الخلفية الدينية بذلك الرأي السياسي المُعارِض -أما في حالة الخوارج عامَّةً والإباضية خاصة كانت الخلفية الدينية الخارجية/التكفيرية، سابقة للانشقاق السياسي:

وفي هذا وذاك كان رأس الخلاف هو مسائل الإمامة والسلطة . . فكيف لا يُفرد لها مساحات فكريّة كبرى في تراثهم؟

والإمامة عند الشيعة مركزيّة وهامة وفي صلب العقائد الكبرى . . وهي من الأهمية بحيث صارت (معرفة الأئمة -واجبة) على كل مسلم! وقد قال بعضهم بأن (معرفة الإمام إذا أدركها الإنسان لم تلزمه شريعة ولم تجب عليه فريضة!)[١].

وهي عند الخوارج لا تقل في الأهمية وإن كانت أكثر تقدميّة في بعض جوانبها فقد (جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش . . وكل من ينصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل

---

(١) مقالات الإسلاميين: ٣٧.

واجتناب الجور -كان إمامًا . . ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه . . وإن غيَّر السيرة وعدل عن الحق -وجب عزله أو قتله . . . وجوزوا أن لا يكون في العالم إمام أصلًا، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبدًا أو حرًّا أو نبطيًّا أو قرشيًّا)[1]، ولكن لأن انحرافهم الديني كان سابقًا على انحرافهم السياسي -فقد خرجوا من جماعة أهل السنة ولم يكن هناك استفادة تاريخيَّة للسنة من بعض تلك الآراء المميزة . .

ولا يجوز أبدًا التحجج بحجة أن حديثنا هذا قادم من منطلقات التأثر بفلسفات حديثة أوروبية عن حرية الأمة في الاختيار ورفض التوارث الذي كان تاريخيًا أمرًا غير منكور . . فقد جاء أول اعتراض ضد الاستبداد كفلسفة من عبدالرحمن بن أبي بكر، ففي البداية والنهاية لابن كثير (أنه لما جاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة. قال عبد الرحمن لمروان: جعلتموها والله هرقلية وكسروية -يعني: جعلتم ملك الملك لمن بعده من ولده . . . (وقد) بعث معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد بن معاوية، فردها عبد الرحمن وأبى أن

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١٣٥.

يأخذها، وقال: أبيع ديني بدنياي؟) والنص الاعتراضي واضح من الكامل في التاريخ وتاريخ الخلفاء للسيوطي . . فلاحظ كيف تشدد عبدالرحمن ﵁ في الأمر وفقه مبكرًا إلى أن تلك الفلسفة الخطيرة -الملكية التوارثية- تضرب أسس فلسفة الإسلام في الحكم الراشد، مما لا يجوز السكوت عن ذلك أبدًا . .

وكان كذلك عبدالله بن عمر القائل (إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كانت كذلك كنت القائم بها بعد أبي) . . وكلها عبارات نابهة مبكرة جدًّا، توضِّح أنه منذ البداية كان هناك تحذير من كون تلك الفلسفة الحاكمة الجبرية ليست من الإسلام -وإنما منتجات جاهلية واجب الاحتجاج ضدها . .

وبرغم أنه من المعروف كون الثاني من الذين رضوا وثبتوا على بيعة يزيد بن معاوية؛ إلا أن اعتراضه الأولي عليه كان مُنطلقًا من مبدأ موضوعي -فقد كان ثباته على البيعة لمبدأ موضوعي جدًّا كذلك، وهو ما يتضِّحُ جليًا من قوله: (إني سمعت النبي ﷺ يقول: «يُنصب لكل غادر لواء يوم القيامة»؛ وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يُبايع هذا الرجل على بيع الله ورسوله ثم يُنصب له

القتال)[1] فالظاهر أن سبب تغيُّر موقفه بعد ذلك -هو تخوُّفه أن يكون داخلًا فيمن توعدهم الحديث النبوي الثابت .. وليس لأنه تنازل عن ذم تلك الفلسفة الجديدة في الحكم.

فانظر كيف ذهبت بعد ذلك أغلب التفسيرات التاريخية عند أهل السنة إلى الحماسة الشديدة لموقف ابن عمر المتأخر وابن عباس على اعتبار أن ما صنعاه كان من منطلق ذم الخروج مطلقًا وعدم الاهتمام بما وراء النظام الجديد من فلسفة سيئة .. فيقول القاضي ابن العربي في العواصم من القواصم (وذكر المؤرخون أن كتب أهل الكوفة وردت على الحسين، وأنه أرسل مسلم بن عقيل -ابن عمه- إليهم ليأخذ البيعة وينظر هو في اتباعه، فنهاه ابن عباس وأعلمه أنهم خذلوا أباه وأخاه، وأشار عليه الزبير بالخروج فخرج، فلم يبلغ الكوفة إلا ومسلم بن عقيل قد قتل وأسلمه من كان استدعاه. ويكفيك بهذا عظة لمن اتعظ (!!). فتمادى واستمر غضبًا للدين وقيامًا بالحق. ولكنه لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس، وعدل عن رأي شيخ الصحابة ابن عمر، وطلب الابتداء في الانتهاء، والاستقامة من أهل

(١) صحيح البخاري: كتاب الفتن.

الاعوجاج . . . وانظروا إلى الزبير بعد ذلك وما دخل فيه من البيعة له بمكة، والأرض كلها عليه، وانظروا إلى ابن عباس وعقله وإقباله على أمر نفسه وانظروا إلى ابن عمر وسنه وتسليمه للدنيا ونبذه لها . . . ودع الأمر يتولاه أسود مجدَّع حسبما أمر به صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه)! لاحظ كيف جعل موقفي ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما -مرادفًا للعقل والحق والصحيح . . بينما موقف سيد الشهداء وعبدالله بن الزبير -مرادفًا للتهور والتمادي وعدم الانتباه للعظة! ثم كيف طلب من القارئ ألا يهتم بأمر الحكم أصلًا فليتوله من يشاء!

وسيكون قول الإمام ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة النبوية شبيهًا بهذا المضمون في الجملة من حيث رفضه مبدأ الخروج على الإمام الجائر أصلًا . . رضي الله عن الجميع . .

وقد يكون أحد أسباب ذلك الزهد في البحث الموسَّع والمتعمق هو الوضع المعتاد والذي سرى في الملك العضوض ثم الجبري خاصة بعد مرور فترة القلاقل الأموية: فقد ظلت هناك (طبقة علمية/اجتماعية) تقف على مسافة محايدة من الحكومات والملوك والسلاطين هي طبقة الفقهاء . . أينعم تتمتع بالهيبة -ولكنها

كذلك لا تخرج عمومًا على (الأئمة) ولا تثير الناس عليهم .. فالبطش جاهز وهو الأصل!

راجع مثلًا المذكور في مباحث السياسة عند الأئمة الأربعة بكتاب د. مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب. فستجد أن المنقول عن أئمة المذاهب الأربعة الكبار يجمعهم في مسألة قلة بحثهم الموسَّع في المسائل السياسية الكبرى وفلسفتها. وإن كان يجعل الإمام أبو حنيفة أكثرهم وضوحًا في رفض إمامة بلا شورى المسلمين وهذا بارز في قوله للخليفة المنصور: (لقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهل الفتوى .. والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم) ..

بينما الإمام مالك أقلهم حديثًا عن المذهب السياسي والبحث فيه .. ويبرز في أقوال الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل الميل إلى فكرة قبول (الإمام المتغلب بشوكة) مع عدم تفضيله مطلقًا على الإمام القادم بمشورة المسلمين .. وأيضًا لم يكن في أصول مذهبيهما مزيد بحث متوسع فكريًّا وثقافيًّا في الشئون السياسية بالصورة التي تحدثنا عنها قبلًا .. وإن كان الحنبلي ظل يغلب عليه فكرة رفض الخروج مطلقًا ..

فهذه هي المذاهب الأربعة الكبرى التي بقيت مستمرة عند أهل السنة . . وكلها كانت منذ البداية لا تبحث بتعمق شديد في فلسفة الإمامة والسياسة ولا تصطدم بالحكّام بسبب أمور سياسية -اللهم إلا في مرات نادرة (كحادثة دعم الإمام أبو حنيفة لخروج زيد بن علي زيد العابدين على مملكة الأمويين، وخروج محمد النفس الزكية على المنصور العباسي . . برغم أنه كان دعمًا غير متوغِّل -وكحادثة الإمام مالك مع جعفر بن العباس التي أصلحها سريعًا الخليفة أبو جعفر المنصور- وكحادثة الإمام الشافعي مع الرشيد . . ولم يكن للإمام أحمد صدام على أصل سياسي مع العباسيين . . فمذهبه أكثر وضوحًا في طاعة الأئمة سياسيًّا والتمسك الحرفي بنصوص طاعة ولاة الجور مطلقًا . . وليس أدل على ذلك من حديثه المنقول عنه توضيحًا لعقيدته في أصول اللالكائي شرحًا لأصول السنة، وفيه: (والسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمعوا عليه ورضوا به؛ ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين . . . ومن خرج على إمام المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة -فقد

شق هذا الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ فإن مات الخارج عليه مات ميتة خارجية)! والحديث عن تلك النقطة يطول ويتشعب .. لكن الظاهر كون المذهبين الحنفي ثم المالكي أكثرهما تسامحًا في الخروج على الجائرين ونزع يد الطاعة من الحاكم غير الشرعي/المرضي عنه من الأمة .. بينما الحنبلي أشدهم قسوة في منع ذلك بل واعتباره داخلًا في أصول أهل السنة والجماعة وصحة الديانة!

المهم أنه قد ظلت فكرة الطبقة الوسيطة العلمية/الفقهية متصالحة مع الحاكمين وأنظمتهم في العموم ولا تسعى للتشغيب، وعلامات ذلك التصالح والموادعة معهم كثيرة في كتب تراث الفقهاء، فتأمَّل مثلًا مدح الإمام الفذ الجويني رحمه الله وصاحب واحد من أهم أسفار السياسة الشرعية في تاريخ المسلمين- تأمل مدحه للحاكم نظام المُلك في الغياثي مثل عبارته (انتهى مقصدنا في هذه الفنون، وقد جرت بيمن أيام صدر الإسلام كهف الأنام على زمرة لم يعهد مثلها) ويقصد بصدر الإسلام وكهف الأنام: الوزير النظام أقوى رجال عصره. #الغياثي: ١٢٨#

وسيقول في ختام الكتاب (إنما أجعل هذه الخاتمة منقطع

الكلام لأني افتتحت باسم مولانا نصر الله أيامه، وأسبغ على ساحته السامية أنعامه) . . وعلى نفس المنوال كانت علاقة الإمام الغزالي مع الحكام المعاصرين له عامةً . . والإمام الغزالي نظريته في الإمامة لا تخرج عن (التغلّب) و(الشوكة) كما ذكر في (الاقتصاد في الاعتقاد -فصل الإمامة) عن طرق الوصول للحكم: (لا يصدر إلا من أحد ثلاثة: إما التنصيص من جهة النبي. وإما التنصيص من جهة إمام العصر بأن يعين لولاية العهد شخصًا معينًا من أولاده أو سائر قريش. وإما التفويض من رجل ذي شوكة يقتضي انقياده وتفويضه متابعة الآخرين ومبادرتهم إلى المبايعة . . . لو لم يكن بعد وفاة الإمام إلا قرشي واحد مطاع متبع فنهض بالإمامة وتولاها بنفسه ونشأ بشوكته وتشاغل بها واستتبع كافة الخلق بشوكته وكفايته وكان موصوفًا بصفات الأئمة -فقد انعقدت إمامته ووجبت طاعته) . . . وكذلك أسلوب الإمام أبي يوسف رحمه الله مع الرشيد في الخِراج. ففي افتتاحية الكتاب يقول الإمام أبو يوسف: (هذا ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم عليه موصولًا بنعيم الآخرة الذي لا يفند ولا يزول . . . وفق الله تعالى

أمير المؤمنين وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك، وسلمه مما يخاف ويحذر).

والأمثلة المذكورة لا تعني الطعن في الأئمة الثلاثة الأعاظم -فقد جاءت في حق اثنين من أعظم حكام المسلمين في التاريخ قاطبة . . لكن المدلول المطلوب غير ذلك المتبادر . . فالمطلوب هو فهم كيف كانت العلاقة بشكل عام بين علماء أهل السنة وملوكهم . . وهي برغم أنها علاقة جيدة في الجملة (ما عدا كدورات تشتد وتخفت) إلا أنها في النهاية لم تكن تحث العلماء على البحث عن طريق جدي لهدم فلسفة الملكية التوارثية والحكم الجبري . . مما يعني بالضرورة هدم عروش الملوك الذين يعيشون في أكنافهم بأمان -ولو كان هذا الهدم بنشر نظريات (ثورية) تجلب (الفتن) . .

وتظهر تلك العلاقة (العلم-السلطة) جلية في تاريخ الإمام محمد بن عبد الوهاب مع ابن سعود. فقد ذُكِر في (تاريخ نجد) لابن غنّام الاتفاق الذي جرى بين محمد بن سعود وبين الإمام محمد بن عبدالوهاب على تثبيت حاكم مُتسلِّط يفتح البلدان وتحته عالم دين يقود تصحيح العقيدة . . ومن الجدير بالذكر أن الإمام لم

يكن هو من سعى لابن سعود ولا هو من عرض الاتفاق على تحالف (السلطة) مع (الزعامة الدينية) على قمع البدع . . بل كان في محنة ثورة المبتدعين عليه بسبب تطبيقه عقوبة الزنا على امرأة محصنة معترفة بفاحشتها . . ومرة أخرى هنا لا نطعن فيه بل نعرض المرتبة التي صارها الإمام في المنظومة السلطوية السنيّة المعتادة . . واتفاقه مع ابن سعود (ألا يرتحل عنهم وألا يستبدل بهم غيرهم) كعالم لآل سعود في المرتبة الوسيطة المعتادة . .

ولم يكن العلماء الأزاهرة المصريون بالعموم مخالفين للمسلك هذا مع السلاطين والأمراء الحاكمين وطالع مثلًا مبحث (دور الأزهر السياسي إبان الحكم العثماني) للأستاذ عبدالجواد صابر إسماعيل والذي جاء دفاعًا عن العلماء الأزاهرة -لكنه برغم ذلك أظهر أن (طبقة العلماء) كانت دائمًا تدافع عن نفوذها الوسيط التالي لنفوذ المماليك أو العثمانيين . . وأن دفاعها عن الشعب ضدهم في بعض الأحيان كان لرفض تقويض حكّام البلد الأجلاف لنفوذهم الذاتي أو تهديده بشكل خطير . . لكنه كذلك كان يعترف بسلطة النظام ولا يسعى للبحث فيه بقوة ولا يسعى لتقويضه بصورة نهائيّة لفلسفته الفاسدة . .

الخلاصة أن في تاريخ أهل السنة تحت الحكومات الجبرية كانت الطبقة العلمية الفقهية وسيطة محايدة في العموم .. فإن تداخلت مع السلطة في شأن ما -كانت في العموم داعمة رافضة للخروج الثوري عليها بدعوى رفض الفوضى .. فنظرتها للحكام المتغلبين داعمة أو متجنبة ونظرتها للمحكومين العوام متعالية .. وهي طبقة مستكينة في الأحوال العادية ولا تحب الخوض في المسائل السياسية التي قد تثير القلاقل من العوام الغوغاء، كان هذا يعني أنه بشكل أو بآخر سيتوقف عمليًا البحث الثقافي والفلسفي حول النموذج الأمثل للحكم غير المستبد.

وبرغم أن الأمثلة من كتب الفقهاء والعلماء كثيرة يُستدلُّ بها عن شيوع تلك النظرة للعوام؛ إلا إننا سنكتفي بمثل هذا النموذج من تاريخ الجبرتي (العالِم الأزهري) وما يشيع في بعض عباراته عن ثورة القاهرة الأولى التي لمَّح أنها بدأت من الزعران بما للكلمة من مدلول سيئ. فيقول في أحداث السبت ١٠ جمادى الأولى (٢٠ أكتوبر ١٧٩٨م) وهو اليوم الذي سبق ثورة القاهرة الأولى: انتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك. ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور ولم يتفكر

أنه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من (الغوغاء) من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم . . .

الأحد ١١ منه (يوم الثورة): أصبحوا متحزبين وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح. وحضر السيد بدر وصحبته (حشرات) الحسينية و(زعر) الحارات البرانية. ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام . . .).

وهذه النظرة المستعلية للشعب من علماء الأزهر لها شواهد أخرى كذلك، فقد كانت نصيحة الشيوخ الأزاهرة لبونابرت في الديوان الذي عقده في ٢٦ يوليو ١٧٩٨ -بأن يستعين بالمماليك لضبط المصريين وتقويمهم لأن (سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم)!

هذا مع التنبيه إلى دور طلاب العلم الأزاهرة في الثورة على الفرنسيين ودور بعض شيوخهم فيها . . لكنها كانت ثورة على قوى صليبية واضحة العداوة، وليست ثورة على استبداد . . وفي هذا فارق هام جدير بالتأمُّل . . والأكثر جدارة بالتأمُّل كذلك هو أن تلك الثورة ستجعل الشعب يعرف معنى (ثورة) أصلًا وستشجعه بعد

ذلك على الثورة ضد (استبداد) خورشيد باشا!

لقد تحرَّك الشعب الذي طالما احتقره عموم (طبقة العلماء الوسيطة) وتخوفوا من (هياج العوام وتصايحهم) في الخروج على الحكام -فكان تحركه دفعًا لتولية العلماء مقاليد أمور المسلمين! أي أنه في الحالة المصرية بالتحديد -كان دخول العلماء الشرعيين إلى دهاليز السيطرة على الحكم وعزل الحاكمين آتيًا عبر الشعب وعبر ثورة (العوام الزعران والغوغاء) على الكافرين أو المستبدين!

ومع ذلك لن تنتهي تلك النظرة المُحتقِرة للشعب بالتأكيد حتى بعد الثورات الثلاثة . . بل سيجيئون بواحد من جنس العسكر الأجانب ليحكم المصريين رغم أن مقاليد الأمور كانت قد صارت في يد شيوخ الأزهر -سيجيئون بمحمد علي الألباني! لماذا لم يتول السلطة أحد العلماء؟ لماذا برغم وجود مقاليد الأمور في أيديهم سارعوا بإحضار عسكري من خارج طبقة الفقهاء للحكم؟ أليس هذا دليلًا واضحًا أنهم يستبطنون تلك الرؤية لأنفسهم كطبقة وسيطة عليها ألا تسعى للسادة حتى وإن جاءت إلى أقدامها!

كذلك لم يكن للمؤسسة الرسمية للعلماء والتي كانت تتولى شئون المصريين خطابًا أثناء ثورة المصريين على نابليون إلا رفض

الفوضى الثورية باسم رفض الفتنة اقرأ مثلًا رسالة العلماء لشعب مصر بعد إخماد ثورة القاهرة الأولي بأسبوعين، وسأوردها كاملة نقلًا عن تاريخ الجبرتي. وأطلب من قارئها أن يتدبرها جيدًا -فستحوي نفس مضمون وعبارات وأسلوب الخطابات المعاصرة التي تصدرها مؤسسات طبقة العلماء الوظيفية الوسيطة .. والقارئ الذي سيفهمها جيدًا سيكون قادرًا على فهم الكثير من المؤسسات الشبيهة أو الأفراد العلميين الذين يقومون طوعًا بدور المؤسسات (كعموم شيوخ السلفيين أو الصوفيين):

«نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة:

نعوذ بالله من الفتن .. ما ظهر منها وما بطن .. ونبرأ إلى الله من الساعين في الأرض بالفساد ..

نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية (البلطجية) وأشرار الناس .. حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية، بعدما كانوا أصحابًا وأحبابًا بالسوية.

وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين، ونهبت بعض البيوت.

ولكن حصلت ألطاف الله الخفية، وسكنت الفتنة بسبب

شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته وارتفعت هذه البلية -لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقراء والمساكين .. ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ..

فعليكم ألا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين .. سفهاء العقول الذين لا يقرؤون العواقب .. لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم -فإن الله ﷻ يؤتي ملكه من يشاء ويحكم من يريد.

ونصيحتنا لكم: ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم .. والدين النصيحة، والسلام» ..

**الخلاصة:**

أن مبحثي الاستبداد بالحكم، وفلسفة الملكية التوارثية جرت مناقشتهما عند أهل السنة عمومًا بصورة علميَّة إجراءاتية -لا بصورة ثقافية فلسفية تتأمَّل في خطورة صنع الطبقات العرقية العنصرية وتكريس الانفصال بينها وعزل الأمة عن اختيار حكَّامها .. فتجد

الماوردي مثلًا يتحدث عن إجراءات تولية العهد، ويناقش خطواتها -بصورة آلية . . وكذلك يصنع إمام الحرمين . . وتجد أبي يوسف في الخراج يتحدث في الإجراءات العلمية العملية الواجبة على الحاكم . .

كل هذا بينما إجراءات الوصول للحكم نفسه تكاد تكون مناقشاتها العمليَّة داعمة لبقاء ثقافة الاستبداد والجبر أو غير مهتمة بمواجهته ورفضه بقسوة وحزم!

فالأمر علمي بحت والتأصيل الشرعي للفعل هو مدار البحث: مثال (ولاية العهد حدثت من أبي بكر لعمر ﵄ -إذن يجوز أن يولي الملك ولاية العهد لابنه) . . دون البحث طويلًا في الشرعية الكليّة لصنع نظام ملكي قائم فلسفيًّا على نظام الطبقة النبيلة والطبقات غير الحاكمة الأدنى . .

وكل الأئمة الذين ذكروا هذه الإجراءات كانت لهم تأصيلاتهم الشرعية العملية . . رحمهم الله جميعًا . . لكن وجه الاعتراض في كون هذا السبيل يناقض فلسفات إسلامية لا يجب أبدًا تجاوزها: مثل فلسفة الحرية والمساواة بين المسلمين ورفض الظلم والجور . . ونقول: إن الفلسفة الناتجة من مثل هذا الحديث

لا يمكن أن تكون أبدًا هي طريق تحرر الأمة من الملك الجبري أو العضوض . .

إذن بشكل عام كان هناك تساهل مع (فلسفة الاستبداد المجتمعي والسلطوي) مادام خفيًا؛ وجرى البحث في دقائق جزئيات الإجراءات الاستبدادية الواضحة والتنبيه على رفضها -مثال: يتم مدح ملك عادل مع رعيته لأنه يمنع عنهم الإجراءات الاستبدادية الواضحة من نشر الظلم -دون البحث طويلًا في مسألة الفلسفة الاستبدادية المستقرة التي جعلته يرث الملك ابتداءً وينتظر توريثه لابنه بعد ذلك!

وأغلب من يدعو حاليًا لشرعنة الاستبداد والتمسك بتراث الصبر على المتغلبين، سواء بصورة صريحة أو خفيَّة، ويحمل في أعماقه عداوة أصيلة للثورة ضد هؤلاء المستبدين -ينطلق من الرؤية التاريخية العلميَّة التي تكونت في عصور العضوض والجبر التي عاشها أهل السنة طوال القرون الماضية: وهذه الرؤية في حالتها المثلى يكون العلماء فيها عبارة عن طبقة اجتماعية مقربة من السلاطين (المتغلبين) يتمتعون بهيمنة على الناس في أمور دينهم ويتفرغون للتصنيف والغوص في بحور العلم الشرعي دون احتكاك

كبير بفلسفة دنيا الناس ومعاشهم - ودون بحث طويل في فلسفات سياسية معادية للسلطة المتجبرة . . وفي هذا لابد من التنبيه أنه لا يوجد فارق بين الأشعرية والسلفية من هذه الجهة . .

هكذا نعود لأصل الموضوع لنتساءل:

هل كان سبب هذا الابتعاد التاريخي عن صنع ثورة فكرية ثقافية كبرى في مباحث رفض الاستبداد الخفي العضوض والجبري -هو أن الطبقة العليا المُفكِّرة للمجتمع السني كانت غالبًا (فقهية حضاريَّة علميَّة) تهتم بالإجراءات وتأصيلها مع عدم مصادمة السلطات والأنظمة القاسية؟

وهل كان بروز ذلك في العصر الحاضر آتٍ بسبب بروز الطبقة المفكِّرة المثقفة المعارضة والتي اهتمت بالبحث الثقافي الفكري في فلسفة الاستبداد الشرقي ومحاولة استئصاله من جذوره -متحررة من أي التزام بالهدوء نحو الحكام المستبدين؟

وأي السبيلين أصّح:

سبيل توجه عموم علماء الأمة نحو زمرة الحكَّام ولو بالسكوت على قهرهم للإرادة بسبب التشكك من حركة الشعوب وعداوتهم للثورات . .

أم سبيل توجه المفكرين المثقفين نحو الشعوب المقهورة لتوعيتها وتثويرها على المستبدين مع المعارضة القوية لمثل هؤلاء الحكام؟

وأخيرًا لنتفكَّر:

كيف يمكن الخروج من الحكم العضوض والجبري إن بقي عموم العلماء على هذه الهيئة الطبقية الوظيفية الوسيطة؟

أفلا يكون الحق وقتها مع (العلماء الشرعيين) الذين أخذوا بالعزيمة وقاوموا فلسفة الاستبداد فكريًّا وثقافيًّا -فجمعوا بذلك بين العلم والثقافة؛ وبين معارضة المستبدين وتنبيه الأمة ونشر العلم فيها.

إن الحل لاستئصال حكومات الجبر لن يكون إلا بالعالم الفقيه بدين الله؛ المُتحصِّل على الثقافة والفاهم للرؤية العامة لفلسفة التاريخ والسنن الكونية ولمقاصد هذا الدين الكليَّة . .

العالم المثقف الفقيه بوجوب محاربة الظلم بنوعيه -الجلي منه والخفي . .

العالم المثقف الفقيه بوجوب عدم تحقير رأي الناس وعموم عدول الأمة وضرورة توكيلهم في اختيار حكامهم ورقابتهم ومحاسبتهم . .

ودورنا البحث عن مثل هؤلاء الرجال .. وأن نعضَّ على وجودهم بيننا بالنواجذ ..



## وأول طريق الوحدة حَلُّ الوحدة!!

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

الوحدة العربية . . الشعار الذي رفعته جامعة الدول العربية، تلك المنظمة الإقليمية التي نمت من ثمرة اقتراح بريطاني كان مصحوبًا بغرض الحفاظ على مُكتسبات الاستعمار الإنكليزي في مرحلة ما بعد الاستعمار؛ لحاجتها الشديدة لعون الدول العربية والحصول على امتيازات في أراضيها مقابلة لِما حصلت عليه الولايات المتحدة الأمريكية من امتيازات في شبه الجزيرة العربية والاتحاد السوفيتي في دول شمال إفريقيا العربية، وقد انتهز قادة العرب الفرصة آنذاك لإقامة مشروع قومي ضخم، وتهيئة المناخ لإحياء مشروع الوحدة، استجابةً للرأي العام العربي، ودعمًا للعلاقات والروابط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ولتوثيق الصلات بين الدول العربية وتنسيق خططها السياسية وحل المنازعات بينها، والنظر في كافة شئونها ومصالحها بصفة عامة.

وبالفعل تم إنشاء الجامعة وإقرار مشروع ميثاقها، وصدقت عليه الدول العربية وأصبح الميثاق نافذًا منذ مايو ١٩٤٥م، إلا أن هذه الجامعة جاءت دون المتوقع، ولم تُعبر عن آمال وطموحات الأُمة، والرأي العام في كافة الأقطار العربية، حيث تكونت هزيلة ضعيفة، ليست لها أي سلطات حقيقية، فخيبت الآمال، وأقعدت الشعوب، وباتت الخلافات والنزاعات أكثر من ذي قبل، فكانت سلبيات الجامعة أكثر من إيجابياتها، وتوارى الحلم العربي أمام الغايات المتضاربة والمتعارضة.

وقد ظهر ضعف الجامعة مع أول عمل عربي مشترك في مايو ١٩٤٥م، فعند إنشاء ميثاق الجامعة وملاحقه عُبر فيه عن أن الدول لها مطلق الاختيار في سلوك سبل التعاون لتحقيق أغراض الجامعة، ومن ثَمَّ أصبحت المسألة محض تقديرية غير ملزمة تتحكم فيها المصالح الذاتية والأهواء الشخصية، وعلى سبيل المثال نص الميثاق على أن؛

* من أغراض الجامعة تعاون الدول المشتركة فيها تعاونًا وثيقًا، بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها (المادة الثانية).

* لدول الجامعة الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق وروابط

أقوى مما نص عليه الميثاق اتخاذ ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض (المادة التاسعة).

* واختلاف نظم الدول وأحوالها يرتب نتيجة مؤداها عدم وجود ثمة عمل مشترك بينها؛ لأن التعاون فيما بينها وفق النصين المشار إليهما رهن مشيئة كل دولة، وبحسب نظمها وأحوالها.

* لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة، فإذا نشب خلاف بينهما لا يتعلق باستقلال الدولة وسيادتها أو سلامة أراضيها، ولجأ المتنازعون إلى المجلس لفض هذا الخلاف، كان قراره عندئذ نافذًا وملزمًا (المادة الخامسة).

* ما يقرره مجلس الجامعة بالأكثرية يكون ملزمًا لمن يقبله (المادة السابعة).

ويترتب على ذلك أنه ليس من قرار يمكن إلزام الجماعة به، إلا حيث يكون صادرًا بالإجماع، وهو ما يندر حدوثه.

* إذا رأت إحدى دول الجامعة أن تنسحب منها أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة (المادة الثامنة عشرة).

فالانسحاب -وفقًا للنص المتقدم- إرادي لا يترتب عليه ثمة التزامات مالية أو سياسية أو إدارية تلزم بها الدولة المنسحبة، أو يترتب على قرار فصلها.

فضلًا عن ذلك، فقد افتقر الميثاق إلى الإشارة إلى أي جهاز متخصص يتولى تسوية الخلافات والمنازعات التي تنشأ بين الدول الأعضاء، وإلزام الأخيرة بقراراته الصادرة في هذا الشأن، واستُبعد نص اللجنة التحضيرية الذي يقرر أنه لا يجوز لأي دولة عربية أن تنتهج سياسة تخالف سياسة الجامعة، أو سياسة دولة عربية أخرى.

كما خلا الميثاق من التعهد باحترام المعاهدات الدولية والالتزامات الناشئة عنها، ولم يورد ثمة جزاء يرتبه على الإخلال بالالتزامات الناشئة عن الميثاق أو المعاهدات الدولية، وجاءت أهداف الجامعة المنصوص عليها به غامضة وغير واضحة، إلى جانب افتقارها لآليات التنفيذ والجزاءات والتدابير التي تكفل احترام أغراضها؛ سواء تدابير دبلوماسية، أو اقتصادية، أو عسكرية، أو وقف أو إلغاء العضوية، إضافةً إلى عدم وجود اختصاصات مفرزة للجامعة تباشرها استقلالًا عن الدول الأعضاء

أو حتى بالاشتراك معها؛ كإبرام المعاهدات، والتمثيل السياسي، وإعلان الحرب ونحوه.

جماع ما تقدم كان مؤداه نتيجة واحدة دلت عليها نصوص الميثاق؛ هي عدم رغبة واضعي الميثاق أن يقيموا (جامعة) تهدف إلى توحيد الأمة العربية، أو تدعم الروابط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين الشعوب العربية، أو توثق الصلات بين دولها، أو توحد خططها السياسية، أو تحل المنازعات الناشبة فيما بينها.

كما أظهرت نياتهم في أنهم ما أرادوا أن يتحملوا رد الفعل الغربي ضدهم إذا ما أقاموا تكتلًا قد يُمثل خطورة للغرب في المستقبل يُهدد بمصالحهم في هذه المنطقة، فأنشئوا منظمة غير مُنَظَّمة، ضعيفة، ليس لها أي سلطات حقيقية، القصد منها امتصاص غضب الشعوب العربية ليس أكثر.

بل أثبتت الوقائع التاريخية أن الجامعة العربية باتت من أضعف المنظمات الإقليمية، إن لم تكن أضعفها، برغم أنها من أسنّ المنظمات حيث يُناهز عمرها النصف قرن . .

فما هو دورها الحقيقي الذي لعبته لإنهاء الاحتلال العراقي لدولة الكويت بعيدًا عن الأمم المتحدة وتحركات الدول الغربية؟!

وأين كانت حين عَصفت الحروب والنزاعات بالصومال والسودان؟!

وأين دورها في قضية فلسطين والاحتلال الصهيوني لها وحصار قطاعتها وقتل وتجويع أبنائها؟! ولإجبار السلطات المصرية على فتح معابرها للاجئين الفلسطينيين بعد غلقها مرارًا وتكرارًا؟!

وما هو الدعم الذي قدمته للبنان حين دمر الكيان الصهيوني جنوبها ومنشآتها الحيوية؟!

وأين مساعيها لحمل المجتمع الدولي على إنهاء ووقف العقوبات الدولية المفروضة على العراق وليبيا والسودان؟!

وما هو دورها في منع الاحتلال الأمريكي للعراق؟! وفي محاكمة مرتكبي جرائم الحرب هناك ضد الشعب العراقي؟!

ثم أين هي من تقسيم السودان ونزاعته الأهلية؟!

وما هو الدور الذي تلعبه في سبيل منع التهديدات الأمنية والاقتصادية التي تعرضت لها البلاد العربية؟!

ولماذا لم نسمع لها صوتًا في سائر الوقائع المتكررة التي

كانت تُهان فيه كرامة الإنسان العربي؟!

أو تُهان فيه مثُلنا ومقدساتنا الإسلامية؟!

كل هذا يُؤكد أننا أهدرنا وقتًا طويلًا وأموالًا طائلة في سبيل إنشاء واستمرار منظمة إقليمية لم يكن أيٌّ من أغراضها المعلنة هو الغرض الحقيقي من إنشائها، فالقوة التي دفعت إلى قيام الجامعة وإنشائها -وهي بريطانيا- هي التي ناهضت حركة الوحدة الإسلامية بشتى الوسائل، وهي التي سعت في تمزيق الروابط بين دول العالم الإسلامي، حيث كانت ترى في الوحدة الإسلامية وتكتل المسلمين خطرًا على مصالحها في أوربا والشرق العربي، كما أنها كانت تحتل الديار المصرية، التي أُنشئت الجامعة بمبادرة حكومتها، حيث دعت إلى عقد لجنة تحضيرية لمؤتمر عربي عام، اجتمعت بالفعل بالإسكندرية في أكتوبر ١٩٤٥م، وانتهت اللجنة تحت مسمع ومرأى وحماية إنكلترا إلى وضع بروتوكول الإسكندرية الذي تضمن الخطوط العريضة للجامعة، ثم تلا ذلك انعقاد المؤتمر العربي العام، وإقرار ميثاق مشروع الجامعة الذي أصبح نافذًا فيما بعد.

إن ما نعيشه اليوم في بلادنا العربية من ثورات على نظمنا

السياسية التي سئمناها وكفرنا بها، لحريٌّ بأن يدفعنا إلى إعادة النظر في تلك الجامعة ومقصود إنشائها، تلك الجامعة التي لم يصلح ميثاقها ابتداءً لأن يولد أي ثمرة مرجوة متعلقة بتوحيد الأمة، أو تدعيم الروابط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين شعوب الدول العربية، أو توثيق الصلات بين دولها، أو توحيد خططها السياسية، أو حل المنازعات الناشبة فيما بينها.



## هل الجهاد دمار الأوطان؟

**بقلم: محمد إلهامي**

بلغت حملات الغزو الفكري والتخريب المعرفي حدًّا عظيما، حدًّا يريد الفتك بفطرة الإنسان التي خُلِقت ورُكِّبت فيه، ومن أوجه ذلك التخريب المناداة على كل ثائر وكل مجاهد بأنه «يخرب الوطن، يدمر الاقتصاد، يدمر البلد . . . إلخ»، ومآل هذا الكلام -سواء أقصد القائل إليه أم لم يقصد- هو الرضا بحياة الأنعام: الذل والانقياد مع وفرة المرعى، أو بالأحرى: رجاء وفرة المرعى، رغم أن المرعى لا يخصب أبدا، ولا يزيده الذل والانقياد إلا جدبا.

ولأن الأمر فطرة إنسانية، فإنه يضطرد في سائر الأمم، وإليك أربعة أمثلة مختلفة في الزمان والمكان والدين والأحوال:

١- كانت فرنسا وبريطانيا ملوك البحار فيما قبل الحرب

العالمية الثانية، أما الإنجليز فقد خسروا سلطانهم البحري على يد اليابانيين، وأما الفرنسيين فقد حرقوا أسطولهم بأنفسهم كي لا يقع في يد الألمان!

**٢**- قبل ذلك بسنوات قليلة، لم يجد الروس شيئا يفعلونه أمام الإعصار الألماني المفاجئ الزاحف نحو أراضيهم إلا أن يخرج ستالين فيأمر الناس بالانسحاب من قراهم وإحراقها بكل ما فيها كي لا ينتفع بها الألمان، وكانت تلك أول وخزة في جسد الوحش الألماني المرعب، إذ اكتشفوا -ولأول مرة- أن روسيا ليست كغيرها، وأنهم قد يسيرون مئات الكيلومترات دون أن يجد قرية يتزودون منها بما يبلغهم التي بعدها، فكيف إذا وصلوها لم يجدوا شيئا إلا الرماد؟!!

**٣**- قبل ذلك بقرون لم يجد بنو النضير مفرًّا من النزول على حكم النبي: الجلاء من المدينة، فصاروا يُخربون بيوتهم بأيديهم، فما استطاعوا حمله حملوه، وما لم يستطيعوا حمله أحرقوه، وفيهم نزل قول الله تعالى ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: ٢]، وقد رأينا ذات الموقف يتكرر حين انسحبوا من سيناء ثم حين انسحبوا من غزة، إذ أحرقوا ما بنوه وخربوه بأنفسهم.

٤- وبعدها بسنتين وقعت بنو قريظة في شر أعمالها، إذ انسحبت قريش وغطفان والأحزاب إلى مواطنهم، وبقي هؤلاء أمام المسلمين ينتظرون المصير المحتوم، يومئذ عرض عليهم زعيمهم وحكيمهم كعب بن أسد ثلاثة حلول:

- قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. فرفضوا.

- قال: فإذا أبيتم علي هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. فرفضوا وقالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟!

- قال: فإن أبيتم علي هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، فرفضوا.

فقال: ما بات رجل منكم ليلة من الدهر حازما.

ولما لم يكن أحد منهم حازما، كان مصيرهم بعد الذل والهوان والهزيمة: قتل الرجال وسبي النساء والذرية، وغنيمة الأموال.

فهذه أربعة أمثلة من القديم والحديث، لملاحدة ونصارى ويهود .. كلهم أتلف ما يملكه كي لا ينتفع به عدوه.

إن إتلاف الموارد كي لا ينتفع بها العدو أمر متكرر قامت به الأمم والجيوش والقادة -على اختلاف أزمانهم وأديانهم وأجناسهم وأحوالهم- دون أن ترى في هذا إضرارا بالوطن أو الأمة .. بل الحق أنهم فعلوا ذلك لإنقاذ الأوطان وإنقاذ الأمة!

وهذه الفطرة التي هي الطبيعة الإنسانية، تتأكد لدينا بميزان الشرع، فالإسلام الذي جاء بعمارة الأرض وإصلاح شأن الناس ونهى عن الإفساد في الأرض، هو الإسلام الذي اتفق فقهاؤه على أنه «إذا دعت الحاجة إلى تخريب وإتلاف بعض أموال الكفار وتغوير الآبار لقطع الماء عنهم جاز ذلك، بدليل فعل الرسول ﷺ يوم بدر حين أمر بالقُلَب (أي: الآبار) فغُوِّرَت»[١]، وقد كانت

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ١/ ٨٩.

منطقة بدر واقعة ضمن نفوذ دولة الإسلام في المدينة.

كما اتفق الفقهاء أيضا على جواز قطع الشجر وإتلاف النبات في حالة الحرب، ذلك أن الرحمة بالبشر مقدمة على الرحمة بالشجر، والإضرار بالكافرين والمفسدين والمجرمين أولى من الإبقاء على الزرع والشجر، وكان دليلهم فعل النبي ﷺ مع يهود بني النضير حين أحرق النخيل، نقل ابن قدامة عن إسحاق أنه قال: «التحريق سنة إذا كان أنكى في العدو»[(١)]، وبنو النضير أيضا كانت ضمن دولة المدينة ونخيلها من أملاكها.

والأمثلة كثيرة لكن نكتفي بمثالين لاثنين من أعظم شخصيات المسلمين:

فهذا القائد الفذ العظيم المنصور بن أبي عامر، الذي يمثل ذروة التاريخ الأندلسي مجدًا وحضارة، يندم عند موته على أنه في ذروة نهضته هذه لم يراعِ الضرورات الحربية، ذلك أن تعميره لسائر المدن الأندلسية بما فيها المدن على الحدود والثغور سيعطي فرصة للعدو في لحظات تفوقه العسكري أن يستعين بها في حصار

---

(١) ابن قدامة المقدسي: المغني ١٠/ ٥٠١.

المسلمين والتفوق عليهم، ولقد كان الأولى أن يترك هذه المناطق بلا عمارة لتكون مناطق عازلة بين المسلمين وعدوهم.

يروى حاجبه كوثر هذه المراجعة لما حضرته الوفاة إذ وجده يبكى فقال له: «مم تبكي يا مولاي؟ لا بكت عيناك. فقال: مما جَنَيْتُ على المسلمين، فلو قتلوني وحرقوني ما انتصفوا مني، فقال له: كيف ذلك؟ وأنت أعززت الإسلام وفتحت البلاد وأذللت الكفر وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم إلى قرطبة حين بنيت بها جامعها؟ فقال: لما فتحت بلاد الروم ومعاقلهم، عمرتها بالأقوات من كل مكان، وسجنتها بها حتى عادت في غاية الإمكان، ووصلتها ببلاد المسلمين، وحصنتها غاية التحصين، فاتصلت العمارة، وليس في بَنِيّ من يخلفني، وسيشتغلون باللهو والطرب والشرب، فيجيء العدو فيجد بلادا عامرة وأقواتا حاضرة فيتقوى بها على محاصرتها، ويستعين بوجدانها على منازلتها فلا يزال يتغلبها شيئا فشيئا، ويطويها طيًّا فَطَيًّا حتى يملك أكثر هذه الجزيرة، ولا يترك فيها إلا معاقل يسيرة. فلو ألهمني الله إلى تخريب ما تغلبت عليه وإخلاء ما تملكت، وجعلت بين بلاد المسلمين وبين بلاد الروم، مسيرة عشرة أيام

فيافيا وقفارا، لا يزالون لو راموا سلوكها حيارى، فلا يصلون إلى بلاد الإسلام إلا بمشقة وكثرة الزاد صعوبة المرام. فقال الحاجب: أنت إلى الراحة إن شاء الله أقرب، فتأمر بهذا الذي رأيت. فقال له: هيهات! حال الجريض[1] دون القريض، والله لو استرحت وأمرت بما ذكرت، لقال الناس: مرض ابن أبي عامر فأورثه مرضه جنونا وهوسا تمكن من دماغه، فخرب بلاد المسلمين وأجلاهم وأقفرها»[2].

وبعده بنحو قرنين، اضطر صلاح الدين الأيوبي أمام هجمة الحملة الصليبية الثالثة أن يهدم أسوار عدد من المدن منها طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل لما غلب على ظنه أن الصليبيين سيستولون عليها وأنه لا يستطيع صدهم عنها، فحرمهم من مزية الأسوار الدفاعية فلا يعتصمون بها، ثم اضطر إلى تخريب عسقلان -التي لقبها البعض بعروس الشام- حين لم يكن ممكنا

(١) الجريض: أي الغصة، وهو مثل يقال عما فات وقته.

(٢) بن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: د. أحمد مختار عبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد ١٣، ص٦٤ وما بعدها.

الدفاع عنها وعن القدس في ذات الوقت.

والخلاصة: أن تحرر الأوطان واستقلالها أهم من عمارتها، وأن البشر يقبلون خوض الحروب من أجل الحرية والكرامة والاستقلال وإن مسَّت الحرب عمرانهم وأوطانهم بالسوء، ومما هو جدير بالتأمل أن الأمم تتذكر أبطالها المحاربين المقاتلين وتخلدهم أكثر ما تتذكر بنائيها ومهندسيها، رغم أن الميزان المادي يجعل الأولين مخربين والآخرين معمرين.

هذه الفطرة التي تستقر عند كل البشر يُراد لأمة الإسلام، وهي خير الأمم، أن تنتكس فتتخلى عنها، فتقبل بالاحتلال وهيمنته ووكلائه المستبدين المجرمين، فلا تجاهدهم في حرب ولا تشعل في وجوههم ثورة، وتنطلق الأصوات المفزوعة المرعوبة تحذر الناس من التخريب والتدمير وتراجع الاقتصاد وانهيار مؤشرات البورصة وضعف فرص الاستثمار وقلة الوظائف . . . إلى آخر هذا الهراء الذي لا يفكر فيه إنسان حر إلا حين تكون له كرامة واستقلال!

أما الحرص على كل هذا تحت الاحتلال أو تحت الاستبداد فتلك هي عيشة الأنعام والبهائم، وهي أمر لا تقبله أمة على نفسها،

فكيف إذا كانت خير الأمم!

ثم ما هي الأمة إن لم تكن البشر؟! وما هي الأوطان إن لم تكن حرة مستقلة غير مقهورة ولا مستعبدة؟!

قال أحمد مطر:

نموت كي يحيا الوطن؟

يحيا لمن؟

لابن زنى

يهتكه .. ثم يقاضيه الثمن؟!

لمن؟

لاثنين وعشرين وباء مزمنًا

لمن؟

لاثنين وعشرين لقيطًا

يتهمون الله بالكفر وإشعال الفتن

ويختمون بيته بالشمع

حتى يرعوي عن غيه

ويطلب الغفران من عند الوثن؟!

تف على هذا الوطن!

وألف تف مرة أخرى!

على هذا الوطن

من بعدنا يبقى التراب والعفن

نحن الوطن!

من بعدنا تبقى الدواب والدمن

نحن الوطن!

إن لم يكن بنا كريمًا آمنًا

ولم يكن محترمًا

ولم يكن حُرًّا

فلا عشنا .. ولا عاش الوطن!



## حوار مع السيِّد!

بقلم: عمرو عبد العزيز

قال له الصديق مغتاظًا ومنبهًا إياه كي يفيق:

(يا أخي .. اسمح لي أن أقول لك:

إنني لم أعد أفهمك! إنك تريد أن تقف في وجه التيار .. إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة بدون رويّة .. إنك تتصرف كما لو كنت تريد أن تتخلص من الحياة!

قل لي: لمصلحة من تعرض نفسك لكل هذا؟

إن الشعب لم يبلغ درجة من الوعي تتابعك في كل أهدافك، وتدرك ما الذي أنت تريد ..

وأنت تجابه قوى جارفة .. قوى تملك أن تشتري دولًا وأممًا وشعوبًا .. قوى مدربة، لها عملاء في كل مكان، ولها أجهزتها التي مُرِّنت على العمل .. هذه القوى تملك أن تحيلك متهمًا في

أعين مواطنيك، تملك أن تجردك من سمعتك ذاتها، فتظهرك للناس خائنًا وتجد ألف شاهد وألف جهاز من أجهزة الدعاية، تهتف بذلك ليل نهار . .

إنك لست غنيًّا ولا فتيًّا . . فأنت رجل تدلف إلى الكهولة . . وأنت لا تستند إلى حزب أو هيئة، تنفق عليك إذا انقطع رزقك، أو تنفق على أهلك إذا انقطع عنهم عونك . .)

هذه النصيحة الطويلة التي جمعت كافة الحجج التي يتم ترديدها في كل زمان . . قالها أحد أصدقاء سيد قطب له في بداية الخمسينيات عندما وجده يلقي بنفسه إلى المهالك بعشرات المقالات التي تهاجم الملك والاحتلال وكل شيء . . نفس تلك النصيحة يمكن قولها الآن حرفيًا . . بلا تبديل حرف واحد - وتكون مع ذلك واقعية جدًّا جدًّا . . وهي جامعة للنقاط التأسيسية الآتية:

- التخويف من المعارضة للواقع.

- التخويف من الهلاك بسبب المعارضة.

- جعل حب الحياة والسير مع التيار خوفًا وجبنًا -مرادفًا للعقل والحكمة.

- جعل المعارضة -مرادفًا للانتحار وإهلاك النفس . .

- ثم الانتقال إلى التخذيل عن نصرة الشعب بتحقير فهمه وهمته ووعيه . .

- والتخذيل من مواجهة القوى العالمية الكبرى -لأنها مسيطرة قادرة قوية تكاد تكون إلهًا في الأرض!

- التأكيد أنه لا فائدة ترجى من مواجهة تلك القوى المتألهة الباطشة المسيطرة القادرة . .

- التأكيد بأن القاعدة الشعبية ستكرهك إن عارضت تلك القوى لأنها تملك أن تجعلهم يكرهوك . .

- ثم الانتقال من الموضوع إلى الذات: فينصح نصائح شخصية تتغير من شخص لآخر: في حالة سيد قطب كانت النصيحة بتذكر الكهولة والفقر . . وفي حالة الشباب التذكير بإمكاناتهم للدعوة وعمارة الدنيا . . ولكل شخصية نصيحة ذاتية تجيء في ثوب الذي يخشى عليك من الموت مشفقًا محبًّا -لكنها في النهاية نصيحة تشبه نصيحة الشيطان الذي يخوف المؤمنين من الموت إن هم جاهدوا كما أخبرنا الرسول ﷺ في حديث قعود الشيطان لابن آدم . . وفيه: (. . . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟) . .

انظر إلى نصيحة الشيطان المشفقة المحبة لك ولمصلحتك؟ لكنها مع ذلك -نصيحة شيطان!

في النهاية: ضع كل تلك المحتويات بالأعلى في قالب دروشة صوفية . . أو في قالب فقهي سلفي . . أو في قالب عقلاني منطقي . . ستجد كافة نصائح المخذلين المثبطين للأمة لا تخرج عن ذاك المحتوى المذكور بالأعلى في الغالب . . فقط سيضاف إليها بهارات التصوف: (أين عبوديتك للمحبوب؟ أتنصرف إلى الدنيا وتترك العمل الفردي لمعرفة ذات الله؟ أين عبادتك؟ لا تنشغل بالعباد فلهم رب يرزقهم ويحميهم) . . أو بهارات السلفية: (فقه المصالح والمفاسد . . فقه الاستضعاف . . فقه الحفاظ على الحياة بأي شكل وفي أي وضع . . فقه المتغلب) . . أو بهارات العقلانية المنطقية: (ما فائدة ذلك عالميًّا؟ أنت لا تستطيع إطلاقًا مواجهة العالم وقوى عالمية رسخت من وجودها في الأرض عبر خمسة قرون من التقدم! الأفضل أن تنصرف إلى البحث العلمي وأن تكف عن مواجهة لن تجلب لك سوى الهلاك . . كن عقلانيًّا وزن الأمور بهدوء ستعرف أن إنجلترا ورثت أمريكا . . وهي حلقة جهنمية بلا فكاك) . .

ولا يمنع أن يجمع البعض العبقرية من أطرافها: فيقنعك بالمحتوى السابق مستخدمًا دروشات الصوفية وبهارات السلفية مع العقلانية -وذاك قرين الشيطان فاحذروه . .

وقد رد سيد قطب على هذا الشخص قائلًا:

(يا أخي . . إنني أدرك هذه المخاوف كلها، وأبصر هذه المخاطر جميعها)

فهتف الصديق: أنت تريد بعملك هذا أن تموت!

ورد عليه قطب:

(أريد أن أحيا . . أريد أن أحيا حياة طويلة! فأنا لم أشبع بعد من هذه الحياة:

وأنا لم أتم إلا القليل من الواجبات التي أرجو أن أوفق في النهوض بها . .

وأمر آخر: إنني قد بعدت فترة من حياتي عن الله . . وإنني لأرجو أن أعيش حتى أنفق من عمري في قربه فترة تعدل كفتي الميزان . .

وأنا في النهاية لا أنسى أنني رجلٌ ذو أعباء . . وأن الموت

والحياة غيبٌ من غيب الله -فلا يجوز أن يكونا في حساب أحدٍ يريد أن يؤدي واجبًا أو يغير منكرًا . . أو يذهب أو يجيء . . حتى في تجارة أو معاش . .)

تأمَّل:

- حب الحياة لشيئين:

إتمام الأعمال التي تفيد المسلمين . . وقد وفقه الله لهذا . .

وتعويض أوقات المعصية والبعد عن الله بزمن يعادلها من الطاعة والعبودية لله . . وأحسب أن الله قد وفقه في هذا أيضًا . .

ونصيحة النهاية: أن حب الحياة بهذا الشكل مقدّم على حب الموت -وهذه نصيحة للشباب الذي يريد الموت فورًا بالشهادة ودون رغبة أو خطة للعمل في المستقبل- لكن الموت كذلك غيب لا يجوز أن يوقفنا الخوف من حدوثه عن العمل لله . . بل لا يجوز أن يوقفنا في أعمالنا الحياتية نفسها!



## القداسة والمحبة

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

يزعم النصارى أن إلهنا ﷻ غيرُ إلههم، إذ يتميز إلههم عن إلهنا بأنه إله قداسة ومحبَّة!! وهذا محضُ كذِب وافتراء وجهل بالله ﷻ وبدِين الإسلام، فالله في دين الإسلام هو أكمل إله وأقدس معبود وأعظم محبوب، الرحمن الرحيم الملك القدوس جلَّ جلاله وتقدَّستْ أسماؤه، قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

والقدُّوس: هو الطاهِر من العيوب، المُنزَّه عن النقائص، البريء عن كل ما لا يليق به، قال الغزالي رحمه الله: (المنزَّه عن كل وصف يُدركه حسٌّ، أو يتصوَّره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو

يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير)[1]، وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله: (المُنَزَّه عن كلِّ شرٍّ ونقص وعيب)[2].

وقُدسية الرب ﷻ في الإسلام كاملةٌ، بخلافَ أيِّ دين آخَر . .

فإنه تقدَّس عن الشريك فهو فرد صمد لا إله إلا هو، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١].

ثم إنه تقدَّس عن الزوجةِ والولد والذُرية، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وتقدَّس سبحانه عن العجز والضعف والحاجة، فهو القوي

---

(١) المقصد الأسنى (٣٨).

(٢) الأسماء الحسنى (١٠٣).

القادرُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجبارُ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

كما أنه تقدَّس عن الموتِ والنوم، فهو الحيُّ القيوم الذي لا يغفل ولا ينام، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وتَقدَّس عن الظُّلم فهو العدلُ الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، بل هو لا يرضى به ويُعاقب عليه أشد عقاب، قال ﷻ: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١١، ١١٢]، وفي الحديث القُدسي عن أبي ذَر رضي الله عنه

عن النبي ﷺ فيما رَوَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (**يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي، وجعَلتُه بَينَكم مُحَرَّمًا فَلا تَظالموا**)[1].

وتقدَّس جل وعلا عن الكذِب وخيانة العَهْد، فقوله صدق، وعَهده حق، ولن يُؤخر وَعْدًا عن موعده، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وتقدَّس عن الضلال والنِّسيان والغفلة، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وأخبَر تعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وتقدَّس عن الفقر والبُخل فهو الغنيُّ، المُنعم، ذو الفضل العظيم، كُل الناس إليه فقراء وهو أغنى من أن يفتقر لكائن ما كان، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧/ البر والصلة والآداب) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وعن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يَدُ اللَّهِ مَلأى لا يَغِيضُها نَفقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأَيتُم ما أنفَقَ منذُ خَلَق السَّمواتِ والأرضَ، فإنَّه لَم يَغِض ما في يدِه**»(١).

وهذا غيضٌ من فيض، وقليل من كثير، وقطرة من سَيح، فأوجه قُدسيته تبارك وتعالى لا تُعدُّ ولا تُحصَى.

وأما المحبَّة . .

فإن الله عز وجل يُحبُّ عباده المؤمنين الطائعين المتَّبعين لأوامره وسُنة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وأخبر تعالى عن نبيِّه محمد عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

كما أنه يُحب المتقين، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

ويُحب التوَّابين ويُحبُّ المتطهرين، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٨٤/ التوحيد)، ومسلم في صحيحه (٩٩٣/ الزكاة) كلاهما من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ويُحبُّ المتوكلين، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والله يُحبُّ المُحسنين، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ويُحب المُقسِطين، فقال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ويُحبُّ الذين يُقاتلون في سبيله صفًّا واحدًا كأنهم بُنيان مَرصُوص، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصَّف: ٤].

ومن حبِّه لعباده أنه لا يرضَى لعباده الكُفر، فقال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: ٧].

ويُريد أن يتوبَ عليهم لا أن يتمادوا في غيهم ومآثِمهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧].

ويَغفرَ لهم ما دون الشِّرك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

ويُريد بهم الهُدَى لا الضلال، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

ويُريد بهم اليُسر لا العُسر، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويُريد بهم العفاف والطُهر، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

ويُحب لهم الصلاح لا الفساد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وكان بالمؤمنين رحيمًا.

ولأجل هذا، ولأجلِ صِفات الله ﷻ فلا زال المؤمِنون -دون غيرهم- يسعَون لِنَيل محبَّته تبارك وتعالى بالجدِّ والعمل والسعي لا بالدعوى فحسبُ، وما زالوا يبحثون ويتدارسون في الأسبابِ التي تُنال بها محبَّة الله.

ولو لم تكُنِ المحبَّة والتقديس قد بلغَت بالمؤمنين مبلغَها العظيم، فلماذا ما زالوا -دون غيرهم- يطلُبون الشهادةَ في سبيلِ الله تعالى ولسان حالهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]؟!

ولماذا ما زالوا -دون غيرهم- يتحرون الحلال ويَهجُرون الحرام ويتجنَّبون المُتشابهات؟!

ولماذا ما زالوا -دون غيرهم- يقطعون المفاوزَ ويُنفِقون الأموالَ، ويهجرون الأهل والديار، ويصبرون على النَّصَب والتعب في سبيلِ أداء مناسكِ الحج والعمرة؟!

ولماذا ما زالوا -دون غيرهم- يَهجُرون طراوةَ الفُرش ولذيذ الرقاد في سبيل القيام له والناس نيام؟!

ولماذا ما زالوا -دون غيرهم- يرفعون أيديهم إلى السماء في كل ساعةٍ من ليلٍ أو نهار يدعونه ويتوسلون إليه بجميل خصاله وجليل صفاته لا يُثنيهم تأخر الإجابة ولا تُخبت جذوتهم كثرة البلايا والرزايا؟!

وحسبنا شهادة المُستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: (تأثيرُ دِين محمَّد في النفوس أعظمُ من تأثير أي دِين آخر، ولا تزال العروقُ المختلفة التي اتَّخذت القرآن مُرشدًا لها تعمل بأحكامه كما

كانت تفعل منذُ ثلاثة عشر قرنًا، أجَل قد تجد بين المسلمين عددًا قليلًا من الزنادقة والأخلياء، ولكنَّك لن ترى مَن يجرؤ منهم على انتهاك حُرمة الإسلام في عدمِ الامتثال لتعاليمه الأساسيَّة كالصلاة في المساجد وصوم رمضان الذي يُراعي جميع المسلمين أحكامَه بدقَّة مع ما في هذه الأحكام من صرامة، وعلى من يرغب في فهم حقيقة أُمم الشرق التي لم يدركِ الأوروبيُّون أمرَها إلا قليلًا أن يتمثَّل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، فعَلَى الراصد المؤمن أو المُلحد أن يحترمَ هذا الإيمان العميق الذي استطاع العربُ أن يفتحوا العالَم به فيما مضَى، وهم اليوم يصبرون به على قسوةِ المصير)[١].



(١) حضارة العرب (٤١٧ : ٤١٨).

## تصورات فاسدة لدى الحركة الإسلامية

بقلم: محمد إلهامي

فهم، وإخلاص، وجهاد . .

لاشك أن واحدا أو أكثر من هذه الثلاثة مفقود في الحركة الإسلامية المعاصرة، والدليل هو ما آلت إليه الأوطان العربية الإسلامية، ذلك أن «الإسلام» صالح لكل زمان ومكان، بمعنى أنه قادر على إصلاح الأحوال مهما كانت الظروف المحيطة شرط أن يتصف حاملوه بهذه الصفات المجتمعة معا . .

أما الفهم فلأنه يحدد الرؤية والطريق، ويرسم الحدود والضوابط، ويقرر الثوابت والمتغيرات فيصنع المنطلقات ويدير المناورات. وأما الإخلاص فهو العاصم من الهوى والمقاوم للشهوة والحارق لحب الراحة وطلب السلامة وهو قبل كل ذلك وبعده الأمر الفاصل بين مصلحة الإسلام ومصلحة الفرد أو

المجموعة أو الكيان، وأما الجهاد فهو الشرط الذي وعد الله بتحقيق الهداية إن هو كان (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين).

ثم يزداد الأمر تعقيدا حين تتحول الكيانات والجماعات والأحزاب إلى أصنام تعبد من دون الله، ليست العبادة بمعنى الركوع والسجود لها، بل بمعنى قبول كل ما جاء منها قبولا لا يشوبه نقاش، والدفاع عنه دفاعا لا يتناوشه تردد، والترويج له ترويج من يراه عين الحكمة بل ويكاد يراه نور الوحي!

عندئذ تتحول الجماعات وقياداتها إلى كيانات مقدسة، لا يخطئون، يرون ما لا يرى أحد، ويعلمون ما لا يعلمه أحد، ويخططون كما لم يخطط أحد . . وتتحول المكاسب الهامشية إلى إنجازات كبرى، كما يتحول الفشل الذريع إلى ابتلاء الله للمؤمنين، فمن استمر على السمع والطاعة فهو الأخ المجاهد، ومن عارض وانتقد فهو من المتساقطين على طريق الدعوة (ونسأل الله الثبات!) الذي لم يثبت ولم يصبر و. . . و. . . و. . . إلى آخر قائمة طويلة يصنعها الجهاز التبريري الذي تم تصنيعه للحفاظ على الكيان أمام تراجعاته المستمرة وفشله الواضح للعيان!

حسب من يكتبون في المجال العلمي أن يركزوا على الجانب الأول، وهو جانب الفهم، فلا سبيل لأحد على «الإخلاص» ولا على «الجهاد» . . فهذه مناطها النفوس والقلوب، ولا يطلع عليها غير الحق ﷻ . .

من هنا كانت ضرورة مناقشة هذه «التصورات الفاسدة» التي تظهر في حديث وتصريحات وأدبيات الكثيرين من الرموز الإسلامية المعروفة، وهي تصورات بلغت أن تكون من الثوابت والمُسَلَّمات رغم أنها لا تثبت عند النقاش العلمي.

## كما تكونوا يُولَّى عليكم

وهي المقولة الذائعة الشائعة المنسوبة للنبي ﷺ والتي تُحَمِّل الشعوب مسؤولية ما نزل بهم من استبداد وقهر وذل، وتجعل الطريق راجعا إلى إصلاح الشعوب وحدها كطريق واحد لصلاح البلاد، فابتعد الكثيرون عن السياسة والحكم وقبعوا في المساجد والزوايا يظنون أنهم بالخطب والدروس يستطيعون إصلاح ما أفسده الإعلام والتعليم والقوانين!!

وبالعودة إلى كتب السنة للبحث عن الحديث تجد أن الحديث أحسن أحواله أن يكون ضعيفا، وقد يكون موضوعا، وقد أجمل

الشيخ الألباني العيوب في طُرُقه بقوله:

«أخرجه الديلمي من طريق يحيى بن هاشم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن جده عن أبي بكرة مرفوعا، والبيهقي في «الشُعَب» من طريق يحيى عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق مرسلا، ويحيى في عداد من يضع. لكن له طريق أخرى عند ابن جميع في «معجمه» (ص ١٤٩) والقضاعي في «مسنده» (٤٧/ ١) من جهة أحمد بن عثمان الكرماني عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكرة مرفوعا. قال ابن طاهر: والمبارك وإن ذُكِر بشيء من الضعف فالتهمة على من رواه عنه فإن فيهم جهالة، كذا في «المناوي»، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٢٥): وفي إسناده إلى مبارك مجاهيل. قلت (الألباني): ومن هذا الوجه رواه السلفي في «الطيوريات» (١/ ٢٨٢)»[1].

أي أن الطريق الأول مروي عن رجل متهم بالوضع (أي اختراع الأحاديث ونسبتها إلى النبي)، والطريق الثاني مروي عن مجهولين يرونه عن راوٍ ضعيف! وكفى بهذا دافعا لإسقاط هذه الرواية.

---

(١) الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١/ ٤٩٠، ٤٩١.

إلا أن الشيخ الألباني عَلَّق بعدئذ بقول نفيس رائع دَلَّ على بصيرة بالتاريخ لم يدركها بعض الدعاة ممن تخصصوا في التاريخ، قال: «ثم إن الحديث معناه غير صحيح على إطلاقه عندي، فقد حدثنا التاريخ تولي رجل صالح عقب أمير غير صالح والشعب هو هو!».

إن التاريخ يثبت دائما أن الأمة كانت خيرا من حاكمها، ومنذ تولى سيدنا معاوية رضي الله عنه الخلافة في وجود من هو أفضل منه من الصحابة حتى هذه اللحظة وهذه المعادلة مستقرة، ولا أدل على هذا من تاريخنا المعاصر الذي يشهد بأن أراذل الناس وأسوأهم سيرة وسريرة هم من حكموا بالقهر وتغلبوا بالسيف وأوردوا بلادهم المهالك!

من ذا الذي يقبل الآن بأن الشعب الليبي كان كالقذافي أو المصري كمبارك أو السوري كالأسد أو اليمني كصالح أو العراقي كصدام؟؟ وكيف يكون الشعب الفلسطيني حامل راية الجهاد بينما يسرح ممثلوه في دهاليز المفاوضات اللانهائية؟

أين نذهب بتاريخ الخيانات التي اجترها الحكام وتاريخ الجهاد الذي سطرته الشعوب؟ لقد ظل مسلمو الأندلس يتوارثون

عبادات الإسلام أربعة قرون سرًّا تحت حكم الإسبان[1] فأين هذا الصمود الجبار من خنوع الأحمر الصغير الذي سَلَّم البلاد مقابل ضمانات شخصية[2]؟!

أليس الشعب المصري الذي حكمه شاور وضرغام هو هو ذات الشعب الذي حكمه بعد قليل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين؟؟ .. أين دعوى التغير والتبدل؟؟ وقل مثل هذا عن الشام قبل وبعد عمر بن عبد العزيز وقبل وبعد نور الدين محمود؟؟ وكيف انقلب العراقيون بعد استحقاقهم ملكا كالرشيد إلى استحقاق خليفة كالأمين ثم كيف انقلبوا مرة أخرى ليكونوا المأمون ثم مرة أخرى

---

(١) راجع في هذا وثائقي أنتجته قناة الجزيرة في برنامجها «تحت المجهر» بعنوان «المساء الأخير» وبثته لأول مرة في ٢٦/٨/ ٢٠١٠ .. وفيه بالدلائل أن مسلمي الأندلس قاموا بجهد جبار للحفاظ على دينهم طوال هذه القرون حتى استطاعوا مرة أخرى ممارسة شعائرهم بحرية!
الرابط:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/0D9458E3-F.CD-483C-AB40-24FA55D5ED41.htm

(٢) مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ضبطه وعلق عليه: ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م. ص١٢١ وما بعدها.

ليكونوا كالمعتصم ثم كالمنتصر .. وكل هذه أنماط مختلفة من الكفاءات والمواهب والخيرية؟؟

الحق الذي يشهد له التاريخ هو ما قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، وهو ما جرى في أمثال العرب قديما في أقوالهم الكثيرة التي فاضت بها كتب الأدب ودواوين الشعر: «الناس على دين ملوكهم»، «الناس أتباع من غلب»، «إذا تغير السلطان تغير الزمان»،

حتى قال أبو العتاهية:

**ما الناسُ إلاَّ مَعَ الدُنيا وَصاحِبِها**

**فَكَيفَ ما اِنقَلَبَت يَومًا بِهِ اِنقَلَبوا**

**يُعَظِّمونَ أَخا الدُنيا وَإِن وَثَبَت**

**يَومًا عَلَيهِ بِما لا يَشتَهي وَثَبوا**[1]

لكل هذا وغيره، كان من أسباب خشية النبي ﷺ على

---

(١) الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. ص٤٧٣، وحسين بن محمد المهدي: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، وزارة الثقافة اليمنية، ٢٠٠٩م. ص٨١، ٨٢.

المسلمين حُكم الأئمة المضلين كما في الحديث: «... وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»[1]، وكذا قال عمر رضي الله عنه لزياد بن حدير: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[2].

يذكر ابن تيمية أن الوليد بن عبد الملك كان مولعا بالعمران، وهو الذي بنى قبة الصخرة هذا البناء البديع ليجذب الناس لزيارة بيت المقدس، فكان أن «ظهر من ذلك الوقت من تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا، وجاء بعض الناس ينقل الإسرائيليات في تعظيمها، حتى روى بعضهم عن كعب الأحبار، عند عبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير حاضر: «إن الله قال للصخرة: أنت عرشي الأدنى»، فقال عروة: «يقول الله

(١) رواه أحمد (١٧١٥٦)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، والحاكم في المستدرك (٨٣٩٠) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وغيرهم، وصححه الألباني (انظر: السلسلة الصحيحة ٤/ ١١٠) وشعيب الأرناؤوط في التعليق على مسند أحمد، وحسين سليم أسد في التعليق على سنن الدارمي.

(٢) رواه الدارمي (٢١٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٦٩)، وحسين سليم أسد في التعليق على الدارمي.

تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأنت تقول: إن الصخرة عرشه؟!» وأمثال هذا»[١].

ويُجمل هذا ابن كثير في قوله: «كانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟ والناس يقولون: الناس على دين مليكهم، إن كان خمارا كثر الخمر، وإن كان لوطيا فكذلك وإن كان شحيحا حريصا كان الناس كذلك، وإن كان جوادا كريما شجاعا كان الناس كذلك، وإن كان طماعا ظلوما غشوما فكذلك، وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك»[٢].

---

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م. ٣٤٨/٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. ١٨٦/٩.

يقول الشيخ رشيد رضا: «وقد مضت سنة الاجتماع في تقليد الناس لأمرائهم وكبرائهم، فكل ما راج في سوقهم يروج في أسواق الأمة، وإذا كان حديث (الناس على دين ملوكهم) لم يُعرف له سند يصل نسبه ويرفعه، فمعناه صحيح وهو ضروري الوقوع في الحكومات المطلقة الاستبدادية»[١].

وإذا كان الحاكم في الممالك القديمة يستطيع التأثير بما يصبغ المملكة على نمطه حتى في الممالك القديمة، فكيف يبلغ التأثير الآن بعد أن أعطت الدولة المركزية للسلطة قوة خارقة لم يُعطَها ملك أو سلطان من قبل، فصارت السلطة تمتلك من وسائل التأثير عبر الإعلام والقوانين ما يمكنها من دخول كل بيت .. إنه لتأثير ضخم، ونحن نراه بأعيننا! تأثير جعل الثائر العظيم جمال الدين الأفغاني يقول: «لا يصلح في الشرق «كما تكونوا يولى عليكم»، ولكن: «كما يولى عليكم تكونون»».

من أعجب العجب أن نجادل في هذا في هذه الأيام ونحن القوم الذين نبت فيهم منذ ستمائة عام من وضع أسس علم

(١) مقال بمجلة المنار ٤/٨٩٦، عنوانه «الخمر أم الخبائث».

الاجتماع وقال بصريح العبارة: «فصل في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» . . رحم الله ابن خلدون!



## ليس حُيي ككعب بن الأسد!

بقلم: عمرو عبد العزيز

أتعرف عمرو بن سعد القُرظيّ؟

قصته قصيرة لكنها لطيفة وهامة!

هو أحد بني قريظة الذين رفضوا ما فعله كعب بن أسد زعيمهم من خيانة رسول الله ونبذ عهده أثناء حصار الأحزاب للمدينة . .

ينقل عنه ابن إسحاق: (كان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا)[1].

وبالفعل ظل على وفائه لعهده حتى أسلم في ليلة حكم سعد بن معاذ على بني قريظة وخرج من الحصن . . ثم يُنقل أنه اختفى بعد ذلك فقال رسول الله عندما سمع قصته (ذاك رجل نجاه الله بوفائه).

---

(١) البداية والنهاية/ ٦: ٨١-٨٢.

الزعيم كعب بن أسد نفسه لم يكن مرتاحًا لقرار الخيانة ورفضه في البداية لولا إلحاح الثعلب الملعون حُيي بن أخطب . . ويُنقل عنه كلامًا جيدًا في حق الرسول في بداية النقاش مع الثعلب حُيي . .

لماذا هذه القصص هامة؟!

لأن البعض ربما يتوهم اعتراض مثل تلك المرويات مع الآية العامة ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن الأمر بسيط: لن يرضوا -أبدًا- عن دينكم وإسلامكم الذي يصبغ حياتكم . . هذه قاعدة عامة . . يلخصها قول ابن جرير المنقول في تفسير ابن كثير (وليست اليهود -يا محمد- ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق)[1]، وبمثل هذا يقول القرطبي (إنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم)[2].

هذه القاعدة العامة لا تعني أن سلوكهم جميعًا نحوك سيكون

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ٩٣.

بنفس الأسلوب .. عدم الرضى عند عمومهم لا يعني إيمانهم جميعًا بضرورة خيانتك وقتلك! بل سيكون منهم أقلية لن ترى صحة ذلك الأسلوب وستتعامل معك بصورة جيدة حتى إن لم يرضوا عنك أبدًا!

فلا يجب أن نأخذ القاعدة العامة ونتوهم أنها تعني أن عين كل كافر سيعاملنا بالخيانة والعنف! هذا لم يحدث في عهد النبي ولا الصحابة! بل من أعيان الكفار من رفض الخيانة كاليهودي عمرو بن سعد، أو على الأقل تكلم في غيبة النبي بكلام جيد عن تعامله معهم بعدل مثل كعب بن أسد قبل الخيانة .. بل منهم (مُخيريق) الذي قاتل في نكسة أُحُد حتى قُتِل فقال عنه النبي (مُخيريق خير يهود)[١] -مع الانتباه إلى أن ابن كثير استدل بوصية مخيريق أن أمواله تكون للنبي إن قُتِل على أن مُخيريق كان قد أسلم عندما فارق اليهود للقتال ..

ليس أهل الكتاب والكفار جميعًا صناديق قاتمة مُغلقة بنفس الشخصية والأفكار .. حالة عدم الرضى عامة لكنها لا تعني أبدًا

---

(١) البداية والنهاية: ٨/٥.

أنهم يشتركون في نفس الأفكار والصفات والمواقف جميعًا . .

إذن فعلام التعجُّب من دخول بعض الغربيين لمساندة السوريين -مع الإقرار أن بعضهم جواسيس قطعًا؟! يجابهك أحدهم بآية عدم الرضى عندما تتحدث عن أنه لو كان قتل جندي سابق في المارينز أو إسرائيلي أمريكي متخفٍ أمر مفهوم -إلا أن قتل شخص جاء للمساعدة فقط ولم يثبت عليه إطلاقًا أن كانت له علاقة بأي تجسس أو تنصير أمر غير مفهوم أبدًا! بل هو جور وبغي على رجل يُرجى من الخير الذي فيه أن يقبل الإسلام . . ناهيك طبعًا عن عدم جدوى تلك العمليات (أي ذبح الغربيين) في إيقاف أوباما وأمريكا وتخليهم عن فكرة ضرب المسلمين!

بل وحتى في الشر ليس الغربيون سواء! وليس حُيي ككعب! ليس الجمهوريون كالديمقراطيين وليس الجناح اليميني المتطرف والمحافظين الجدد كالاتجاهات اليسارية الأمريكية!

إن تلك النظرة المُسطّحة للبشر هي أشد المصائب التي على البعض التركيز في تفنيدها . . لقد رفض كسرى رسالة النبي ورفض هرقل رسالة النبي . . برغم ذلك فهذا أشرّ من ذاك.

وفي الحديث عند الإمام أحمد قال النبي لرسول هرقل الذي عاد بعدما بلغته رسالة النبي أثناء تبوك: (إني كتبت بكتاب إلى

كسرى فمزقه، والله ممزقه، وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة، فخرقها والله مخرقه، ومخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام في العيش خير). فانظر كيف كانت هناك فروقات في شر المعاملة نفسها وكيف دعى النبي على كل واحد منهم بمقدار شره . . لاحظ أن الثلاثة لم يرضوا عن النبي ولن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم . . لكن برغم هذا اختلف أسلوب التعامل مع رسالة النبي . .

إننا بين طريقتين في التفكير : الأولى تبالغ في جعل القاعدة العامة لعدم الرضى دليلًا على أن كل الكافرين سواء في العداوة والبغضاء وبالتالي وجوب ذبحهم بلا شفقة ولا اهتمام بحالهم مهما كان تعاملهم معنا جيدًا . . فالجور في حق الكافر لا مسائلة عليه!

وبين طريقة ثانية في التفكير تحاول الاستدلال بسلوكيات بعض الكافرين الحسنة على نفي القاعدة العامة وتأويل الآية بأي شكل لطعن عقيدة الولاء والبراء نفسها!

فالطريقة الأولى سطحية ظالمة جائرة . . يظن صاحبها أن جوره هذا لن يُحاسَب عليه أمام الله ما دام المقتول كافرًا! هذا وقد نبهنا النبي أن امرأة دخلت النار في هرة عذبتها! فما بالك بإنسان

يُقتلُ بلا جريرة سوى أنه من جنسية أمة كافرة حتى لو كان يعمل لمداواة جرحى المسلمين!

وأزمة هذه الطريقة السطحية في التفكير أنها صارت تنظر للمسلمين أيضًا بتلك الطريقة إما أسود أو أبيض: فصار كل من لم يحكم بما أنزل الله ولو كان عن عجزٍ واضح: طاغوتًا! وبالتالي فكل من لم يكفر الطواغيت يكون مرجئًا أو حتى من أهل الردة المستحقين للقتل! هكذا وجدنا أن تلك الطريقة في التفكير هي بوابة سوداء كي يصبح المسلم غاليًا أو حتى من الخوارج قتلة المسلمين!

والطريقة الثانية برغم أنها تبدو إنسانية لطيفة -إلا أنها ألعن! فهي تطعن في العقيدة مباشرة وتذيب الفارق بين المسلم والكافر حتى وصل بعضهم أن اعتبر هذا الكافر المقتول أفضل من المسلم الذي قتلهُ بغيًا! بل وصل إلى حد التحريض على تشجيع قتل الكافرين لهذا المسلم الباغي! فهي طريقة ذات آثار لعينة وعميقة ومدمرة للعقيدة تمامًا وهي من الأسس المعاصرة لمروق البعض من رابطة دين الإسلام دون أن يشعر!

إن المسلم لا بد أن يستنكر كلا الطريقتين في التفكير . . وأن ينتبه إلى سيرة النبي ومسائل تعامله مع الكفّار بشكل خاص . . وأن

يعلم أن هذه الدنيا أكثر تركيبًا وتعقيدًا من أن تكون الأحكام عامة غير مفصلة وغير مراعية لحال كل إنسان مسلم أو كافر . . وأن يفهم أن من الكافرين من يسعى في حقوق المسلمين هذا وهو لم ولن يرضى عنهم! كما تسعى أنت في حقوق أهل ذمتك وأنت لم ولن ترضى عنهم كذلك!

إن الجور والبغي كله شر . . حتى لو كان في حق كافر بالله ورسوله . . وإن استمرار قتل أفراد لم يثبت في حقهم عمل معادٍ للمسلمين -بل قد يثبت العكس!- هو جور وبغي سيحاسب الله من صنعه ولا يظنن أحد أنه سيفلت من الحساب على الظلم والبغي لمجرد انتسابه للمجاهدين أعزهم الله ونصرهم . . فليتق الله من يفعل ذلك في نفسه وفي المسلمين وفي دعوتهم . .

والله أكبر على من يستغل مثل تلك الانحرافات للطعن في المجاهدين مطلقًا لنصرة مذهبة المنحرف في تمييع الولاء والبراء أو منهجه المعوج الفاسد في جعل الدين دعوة أبدًا بلا مجاهدة للكافرين المعتدين . .

فاللهم اغفر للمجاهدين واهدنا واغفر لنا ولهم وهيئ لهم من أمرهم الرشد والثبات . .

## على طريق العدالة ..

**بقلم: محمد وفيق زين العابدين**

لم يزل من القضاة من هو عاملٌ في هيبة زاجر، وجلال رحيم . . مرشدٌ في وقار حاكم، ولطف حكيم، ولم يزل محراب العدالة، أمان الخائفين، وموئل المستضعفين، ورهبة العاتيين . . ولم تزل وظيفة القضاء بالمسلمين آهلة الصدور، كاملة البدور . . هذه الوظيفة التي لم تكن ولن تكون جلوسًا للحُكم أو فصلًا بين الخصومات بتوجيه من السُّلطة التنفيذية أو انصياع تامٍ للسلطة التشريعية، إذ الأمر أكبر من ذلك.

في الفقه الدستوري الإنكليزي يقولون؛ (القُضاة الأسود حملة العرش)، وهو تعبير دارج يعكس مدى الحرص الدستوري على أن يمثل القضاء أقوى مخلب يردع الحكومة إذا عملت أو دعمت ما من شأنه أن يُعيق حقوق الأفراد أو ممارسة حُرياتهم.

لما بلغت الأندلس مبلغها من التفكك والانهيار في الستٍ وخمسين عامًا من حكم ملوك الطوائف، وحاقت بها الأخطار، إذ قسا ملوك الطوائف على رعاياهم، وأثقلوا كواهلهم بالضرائب والجبايات، ولم يكن يردعهم وازع ديني ولا أخلاقي، فتربص الرومان بالدولة الإسلامية في الأندلس، فاستولوا على بعض الأرض، وأذاقوا المسلمين صنوف العذاب، وكان ملوك الطوائف في غفلة عن هذا، إذ هم في الملذات غافلون، لما آل الحال بالأندلس إلى ما تقدم، اجتمع أربعة نفر: ثلاثة من قضاة الأندلس: أبو بكر عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة رحمه الله (٤١٦: ٤٨٦هـ)، وأبو جعفر أحمد بن خلف المعروف بابن القليعي قاضي غرناطة ـ ح (ت ٤٩٨هـ)، وأبو إسحاق بن مقانا قاضي بطليوس رحمه الله، ورابعهم وزير المعتمد بن عباد: أبو بكر بن زيدون رحمه الله، وركب أربعتهم البحر في اتجاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله -مؤسس دولة المرابطين في المغرب- وقد سبقتهم إليه وفود مستنجدة باكية، طالبين منه نجدتهم، لمحاربة المعتدين، بشرط أن يُبقي ملوك الطوائف على ملكهم، وألا يحرض عليهم رعيتهم، وأن يرجع إلى وطنه إذا كتب الله لهم النصر، فعاد الوفد بعد أن أدى مهمته، التي

كللت بالنجاح إذ لبى ابن تاشفين مطالبهم، وعاد بعد النصر إلى المغرب موفيًا بعهده ألا يتدخل في شئون ملوك الطوائف، وألا يثير عليهم رعاياهم.

وعندما طلب الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل من الفقيه مصعب بن عمران ﷬ أن يتولى القضاء اشترط على نفسه فقال: (ونفسي طيبة عليك لصلاح أمور المسلمين، ولو وضعت المنشار على رأسي لم أعترضك)، فولي القضاء.

وأما العلامة الفقيه قاضي القضاة ابن دقيق العيد المصري ﷬ (٦٢٥: ٧٠٢هـ) العلم المشهور، صاحب العلم المنشور، فإنه كثيرًا ما يورد المؤرخون أنه غضب من والي مصر، لأجل أمرٍ يهم الناس، فيعزل نفسه عن القضاء، ثم يسترضى فيعود، على سبيل المثال يقول الإمام ابن كثير ﷬ في «البداية والنهاية»: (وفي ربيع الأول غضب قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد وترك الحكم بمصر أيامًا ثم استُرضى وعاد)، بل الأمر أعظم من ذلك، فقد عزل نفسه يومًا لأجل أمرٍ من ذلك، ثم طلب ليولى فأبى، فجاءه السلطان الملك المنصور لاجين واقفًا على مسافة من باب داره، فصار يمشي إليه ابن دقيق رويدًا رويدًا، والوزراء يقولون له:

السلطان واقف، فلما التقى به مد له يده فقبلها السلطان، فقال ابن دقيق: (أرجوها لك بين يدي الله).

في عام **١٩٦٧**م أراد جمال عبد الناصر حاكم مصر حمل القضاء والقُضاة على توجه نظام الدولة السياسي الاشتراكي، فقام نائب رئيس الجمهورية علي صبري بكتابة مقالات بجريدة (الجمهورية) تدعو إلى إدخال القُضاة للاتحاد الاشتراكي ليكونوا بجوار قوى الشعب العاملة، ووصف القضاة بأنهم يعيشون في أبراج عاجية وأن فيهم بقايا الإقطاع والرأسمالية البغيضة التي يجب استئصالها من جذورها، ثم قام صبري باستدعاء ممتاز نصار -وكان يشغل وقتها رئيس نادي القضاة- وطلب منه الانضمام رسميًّا إلى الاتحاد الاشتراكي وعرض عليه موقع أمانة القضاء بالاتحاد، إلا أن نصار رفض بشدة مًستندًا إلى أن القضاء لا يُمكن أن يكون مِلكًا لنظام سياسي أو خاضعًا له، واستطاع عصام حسونة وزير العدل وقتئذ أن يحصل بمساعدة المشير عبد الحكيم عامر على موافقة مؤقتة من عبد الناصر بإبعاد القُضاة عن التنظيم الطليعي والاتحاد الاشتراكي، وعقب نكسة **١٩٦٧**م بدأ الحديث من جديد عن ضم القضاة للتنظيم الطليعي والاتحاد الاشتراكي بحجة أنه لا صوت

يعلو على صوت المعركة، واستخدم التيار اليساري والشيوعي كل الوسائل من أجل الضغط على القضاة لدرجة بلغت أن خالد مُحي الدين عندما عُين رئيسًا لمجلس إدارة أخبار اليوم قام بتعيين علي إسماعيل مديرًا عامًا للمؤسسة وقام بدوره بتعيين كل السجناء الموجودين بسجن الواحات في وظائف صحفية بأخبار اليوم، الأمر الذي حمل القاضي ممتاز نصار وبعض رفاقه إلى إصدار بيانه الشهير في الثامن والعشرين من مارس ١٩٦٨م المعروف ببيان مارس، والذي أكدوا فيه على أن أهم أسباب النكسة هو إهدار الشرعية والمشروعية وديكتاتورية الحكم، وكان من نتيجة ذلك أن وقعت المذبحة الشهيرة في أول سبتمبر ١٩٦٩م حيث تم فصل قُضاة مصر بالقانون رقم ٨٢ لسنة ١٩٦٩م الذي نص على أن يُعاد تشكيل الهيئة القضائية بدون القُضاة الذين اشتركوا في إصدار بيان مارس ومن والاهم من القُضاة الذين يُعادون نظام الدولة السياسي.

إن وظيفة القضاء لم تقف يومًا عند حد إقامة العدل، ونصرة المظلوم، والأخذ على يد الظالم، بل إنها لتتعدى إلى حماية الحُريات وحفظ الحرمات من كل حيف وجور واعتداء يقع عليها من الحكام قبل المحكومين، وهذا من صميم عمل القضاة، ولم

يكن يومًا انشغالًا بالسياسة التي يُحرم القانون الاشتغال بها، فمن آكد الأصول التي ذكرها المحققون وتضافرت عليها أدلة الشرع أنه على قدر الخصائص التي يودعها الله ﷻ في بعض العباد يُلزمون بما لا يُلزم به غيرهم، وعلى قدر الاستطاعة تأتي التكاليف، فالجاهل يُسامح بما لا يُسامح به العالِم، ويُغفر له ما لا يُغفر للعالِم، إذ حُجة الله على العالِم أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقُبح الذنب وبغض الله له وعقوبته عليه أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل، فلزم أن يُقابل من العُتبِ بما لا يُقابل به من ليس في مرتبته . .

إن تدخل القضاة في شئون السُّلطة لا يشكل تحايلًا على التشريع أو خروجًا عليه حيث يعتبره البعض عملًا سياسيًّا، فأمر السُّلطة بالخير ونهيها عن الشر واجب، وتوجيها بما يحفظ وحدة الأمة ويدرأ عنها الأخطار واجب، ورفض الظلم والتصدي له واجب، وانتقادها وعدم تنفيذ أوامرها إذا خالفت الشرع والتشريع واجب، كل ذلك باعتباره عملًا من أعمال حماية الحريات وحفظ الحُرمات.

هذه هي وظيفة القضاء، فمن لسداد ثغرها، يُعيد أيامها، ويكون كافيًا فيما يهم من أمرها، قائمًا بين رجالها وفي معاقلها بما يزيد حُسنها ومعالمها، من يتضوع بنشر العدل في يُمنى كفه القلم، وعلى لسانه تجري بحار العلم والحكم؟!



## هل يسعنا ترك المقاومة؟

بقلم: محمد إلهامي

يبدو الفارق واضحا بين سواعد الثوار وبين الآلة العسكرية الوحشية المدعومة أوروبيا وأمريكيا وإسرائيليا، وهذا ما يدفع بعض الناس إلى الدعوة للاستسلام وترك المقاومة لما تسببه من نزيف خسائر مستمر في الأرواح والأموال بغير أثر ظاهر ونكاية ملموسة في الخصوم.

بينما يرى الآخرون -وأنا منهم- أنه ينبغي رفع مستوى المقاومة لتشمل المواجهة العنيفة التي توقع النكاية في العدو، والحجة في ذلك أن الفارق في القوة العسكرية تعوضه فوارق أخرى في قوة الإرادة واختلاف الأهداف (فهدفهم السيطرة وهدفنا استنزافهم) فضلا عن أن كل حركة مقاومة بدأت في ظل ميزان قوى منهار، سواء منها ما نجح أو ما لم ينجح . . وعلينا سلوك سبيل

من نجحوا ودراسة التجارب السابقة، والتي اختط بعضها لنفسه قواعد جديدة في العلوم العسكرية، ففيتنام مثلا أقرت قاعدة «كيف تخسر كل الجولات ثم تكسب المعركة» فيما خرج الأمريكي يجر أذيال الهزيمة ويعلن على الشاشات «إعلان النصر والانسحاب من فيتنام» ويحمل على رأسه راية مكتوب عليها «كيف تكسب كل الجولات ثم تخسر المعركة»!

يرد إخواننا: ليس المطلوب تطليق المقاومة كلها بل إيقافها مؤقتا لحين تهيؤ ظروف أفضل لها ثم استئنافها لتكون أنجع وأفضل.

وإلى هؤلاء كتبتُ هذه السطور.

**أولا: اللحظة الفارقة**

إن الدقيقة في ليلة الامتحان تساوي الدقيقة بعد انتهاء الامتحان، تساويها زمنيا فقط! أما المذاكرة في دقيقة ليلة الامتحان قد تساوي سنة كاملة بتحصيل معلومة تثمر نجاحا، بينما ساعات ما بعد الامتحان كلها لا تساوي شيئا .. تماما كالتوبة في لحظة ما قبل الغرغرة تلك التي يقبها الله فينجو بها الإنسان من النار، لا تساويها كل اللحظات فيما بعد تلك اللحظة التي قد أغلق فيها باب

التوبة، وعاين الإنسان من أمر الآخرة ما لا ينفع معه إيمان!

اللحظة هي اللحظة في عمر الزمن، ولكن ثمرة الفعل في كلا اللحظتين لا سبيل إلى المقارنة بينهما.

وأيا ما كان خلافنا في تحديد لحظة تخلفنا، أهي منذ فساد حكم المماليك أو فساد حكم العثمانيين أو زمن الاحتلال .. فنحن أصحاب تجربة تاريخية طويلة تمكننا من إدراك عدد من اللحظات الفارقة التي لما ضاعت منا تخلفنا بها قرونا لا مجرد سنوات.

فمثلا: كان المسلمون أول من اكتشف الأمريكتين، وعند المسلمين رسمت أول الخرائط المعروفة لهذه البلاد الشاسعة الغنية بالذهب والزروع، لكن أول من استولى عليها هم الغربيون، على ضوء خرائطنا الجغرافية وأجهزة ملاحتنا البحرية -سواء بطريق مباشر، أو غير مباشر عبر إيطاليا التي ورثت إرث المسلمين في الأندلس وصقلية والشرق- فكان ماذا؟ كان أن انفتحت الأموال والمساحات الشاسعة وتدفق نهر الذهب لأعدائنا الذين لم يكتفوا بذلك بل والتفوا حول إفريقيا ينهبونها ثم يواصلون المسير حولها فيستولون على خيرات بلاد الجنوب والشرق الأقصى، وأسوأ من

هذا كله أنهم قطعوا خطوط التجارة الواصلة بقلب العالم الإسلامي فكانت ضربة اقتصادية فوق الضربة العسكرية التي تحولت بدورها إلى ضربات اقتصادية تمهد لضربات عسكرية حتى تم الاستيلاء على العالم الإسلامي ولم ينفع صمود العثمانيين لثلاثة قرون.

لو تخيلنا في تلك اللحظة -أول القرن السادس عشر الميلادي- أن سلطة إسلامية استفادت بالإرث العلمي فتم لها فتح الأمريكتين واستطاعت إنشاء أساطيل تحمي الممالك الإسلامية في إفريقيا وآسيا .. لكان قد تغير التاريخ كله، اقتصادا وثقافة وعسكرية .. لكن البلاد الإسلامية التي حكمها العسكر آنذاك لم تفكر في هذا رغم أنه تحت أيديها، وكان منتهى آمالهم تثبيت أنفسهم على عروشهم واجتناء الأموال من رعاياهم ثم لم يستطيعوا صد عادية أعدائهم فأُخذت منهم بلادهم.

ومثلا: لما دخل العالم لحظة الثورة الصناعية لم نكن في عالم العرب نفتقد العلم الذي كان عندهم، بل هو -كما قال الجبرتي- نفتقد من يخرجه من الطاقة إلى الفعل، وهي «إرادة السلطة»، ولذلك تسارع الفارق بيننا وبين الغربيين حتى لم تعد أساطيل العثمانيين تستطيع الصمود أمام الأسلحة الغربية التي تتطور

كل يوم، وانتقلت من الدولة العثمانية المرهوبة إلى «الرجل المريض» الذي كان الغربيون يبقون عليه مريضا ولا يريدون الإجهاز عليه حتى لا يختلفوا حول تركته -كما قال هاملتون سيمور سفير الإنجليز للقيصر الروسي نقولا- وتنشب بينهم الحروب الهادرة، فلما حكمت بينهم الحرب العالمية الأولى واتفقوا في سايكس بيكو، أجهزوا عليها وأسقطوا الخلافة.

ومثلا: لما تطورت الصناعات فأثمر تطورها تغيرا كبيرا في أشكال الزراعة والتجارة والعمارة والحرب، مما جعل التقدم منوطا بالسلطة بأكثر مما كان قبل ذلك، ومن بعد ما كان المجتمع يستطيع إنشاء نهضة ولو فسدت السلطة لم يعد مجتمع يستطيع إنشاء نهضة إلا في ظل السلطة، لقد صار الأمر أكبر من قدرة الأفراد، صار لا يمكن مجاراة التقدم إلا من موقع السلطة التي لا بد لها ليس فقط إنشاء المصانع الضخمة بل وإنشاء المدارس لتعليم الصناعات وفرض أنظمة بعينها في الزراعات لتوفير الهدر في المياه... إلى آخر التطورات التي جعلت العالم يتحول إلى «الدولة المركزية» بعد أن عاش في عصور «الإقطاع» أو «السلطة الإشرافية».

لما حدث كل هذا، لم يكن أمام الحكام في بلاد العرب والمسلمين -مهما قلنا في سوءهم- إلا النموذج الغربي ليستوردوا منه، ليس ثمة نموذج آخر لمن أراد أن يجاري هذا التقدم، لم يكن أمام العثمانيين إلا الأخذ بنظام الجيوش الأوروبية لكي يحاولوا إنقاذ جيشهم، ولم يكن محمد علي ليجد إلا فرنسا يرسل إليها البعوث ويستقدم منها الخبراء .. وإذا كنا الآن نلعن الاقتباس والاستقدام والبعوث وما صاحبهم من مساوئ -وهذا حق- فينبغي ألا ننسى تلك الضرورة القائمة التي تبدو في تفاصيل التاريخ لتلك المراحل، لقد كانت الدولة المركزية إنقاذا للناس من سلطة الزعامات والمشيخات التي تظلم الناس بغير الحق، وكان اللجوء إلى أوروبا ضرورة لمحاولة تغطية الفجوة العلمية.

والسؤال لماذا حدث هذا؟

والجواب ببساطة لأن التطور الغربي سار طبيعيا فأنتج نموذجه، بينما ظل التخلف في العالم الإسلامي يواصل مسيرته، ولم يجد من أراد النهوض من يقدم له النموذج الإسلامي لدولة تتضخم وتتسلط فيسبق إلى وضع الخطوط والحدود بينها وبين الناس لئلا تجور عليهم أو تنزع حقوقهم في مسيرة تغولها، فاقتبس

النموذج بكل ما فيه، بل حتى لما أُريد الترقيع لم يجد من يفهم، ومن ذلك أن الخديوي أراد تقنين الشريعة فارتاع الطهطاوي لطلبه هذا وامتنع عنه خوفا من تكفير الأزهريين له، فلم يكن أمام الحاكم إلا أن يأتي بالكفر نفسه . . القانون الفرنسي!

ربما نلوم الخديوي -ولنا الحق- ولكن ينبغي ألا ننسى أن مشايخ وقته لم يدركوا مسار التحول، فلم يكن اعتراضهم على الكفر نفسه كاعتراضهم على محاولة مقاومة الكفر! فسارت الدولة تفعل ما تشاء ولم يملك المشايخ القدرة على الاعتراض، فلما اكتملت المسيرة ساد القانون الوضعي بالقهر والسيف وألغي كل ما للشريعة فيه قول بالقهر والسيف، وما كان للقهر والسيف أن يفعلا كل هذا وحدهما لولا أن مُهِّد لهما بالغزو الفكري!

والقصد من كل ذلك ليس الجدل ولا التفصيل في الحوادث التاريخية . . القصد أن إفلات اللحظة الفارقة دون تقديم العلاج المناسب أو اتخاذ الخطوة المناسبة يأتي بكوارث عظمى لم ترد على الخاطر.

**ثانيا: المناهج الفارقة**

ومن الكوارث العظمى التي تؤدي إليها ضياع اللحظات

الفارقة تكوين مناهج فارقة أيضًا!!

فجمال الدين الأفغاني يمثل ما يشبه المعجزة، ولعله نموذج غير مسبوق، ذلك رجل خرج من بلاد الأفغان فدار في بلاد فارس ومصر وتركيا والعراق، واستطاع أن يشعل في كل بلد نزل فيها ثورة، حتى إقاماته المؤقتة في فرنسا وانجلترا كانت كمركز عمليات لثورات داخل بلاد العرب، ولم يستطع أحد أن يوقف هذه الثورة إلا السلطان عبد الحميد، وذلك حين حدد إقامته إلى جواره في اسطنبول اتقاء لخطره . . هذا الحبس لم يستطع الأفغاني أن يفلت منه، فكتب في خاطراته ما حدث فعلا: أنه يرى احتلال العالم الإسلامي قادم كأنه رأي العين!

هذا الأفغاني الثورة ما كانت الأمة أحوج إلى شيء مثله في زمنه، لكن قتله شخصان، كلاهما نموذج في الصلاح: السلطان عبد الحميد، والشيخ محمد عبده.

أما عبد الحميد فقد كان ضعيفا مترددا من أنصار الإصلاح المتدرج (لتقريب الصورة: نفس موقف مرسي والإخوان من حازم أبو إسماعيل وأنصاره) وكان متميزا في إفلات الفرص التاريخية، وبدلا من أن يستقوي بالأفغاني الذي كان أقوى رجل في العالم

الإسلامي وأقوى من يمكن دعم مشروع الجامعة الإسلامية (ضد تيارات القومية والعلمانية والتغريب) قرر أن يتخلص منه، ليس بالنفي إذ خاف أن يقود عليه ثورة، ولكن بالإقامة الجبرية التي ظاهرها الإكرام والفخامة وباطنها الحبس.

وأما محمد عبده فما إن هزم عرابي حتى طلق المنهج الثوري ورأى أن الحل في التربية والتعليم، والتدرج في أخذ الناس، فإذا نشأ جيل متعلم استطاع أن يقاوم الاحتلال والاستبداد، وقد سبب هذا نفورا بينه وبين الأفغاني الذي راسله قائلا «إنما أنت مثبط»، وكان عبده يظن أنه يمكنه تنفيذ مثل هذا الإصلاح المتدرج ولو في عهد الاحتلال الإنجليزي، ولو كانت له صحبة مع كرومر .. سنعود لمحمد عبده فيما بعد، لكن القصد الآن هو أن عبد الحميد لم ينجح في إصلاح متدرج ولا في تسكين الجبهات المشتعلة بل اضطر بعد فوات الأوان أن يستبد صراحة ليستدرك الانهيار، فخُلِع وعزل، ورأى اليهودي الذي طرده هو من يجبره على توقيع التنازل! وكذلك محمد عبده: عاش ثلاثين سنة بعد فشل ثورة عرابي، أي زمنُ جيلٍ، ومات والإنجليز مستقرون في بر مصر!! ولم يتغير من حال التربية والتعليم شيء يرضيه.

لست أدري، هل جال بخاطر الشيخ آخر أيامه أنه لو وقف بكل قوته مع عرابي، واستجاش شيوخ الأزهر فامتلك بالمقاومة زعامتهم التي سيثمرها بالإصلاح فيما بعد .. ترى لو فعل هذا، ألم يكن الحال خيرا مما حدث؟!!

هذا الفارق بين المنهجين يتضح أكثر إذا تقدمنا في عمر الزمن قليلا، وقارنّا بين مصطفى كامل وسعد زغلول، وسنتجاوز الآن عن شخصية سعد زغلول لنتعامل معه باعتباره شخصية وطنية مخلصة، إذا قارنت بين المنهجيْن فستجد عجبا: مصطفى كامل يحفر في الصخر ليحصل على لحظة ثورية وبذل غاية ما أمكنه ليحول قضية دنشواي إلى شرارة ثورية ولم يستطع، بينما سعد زغلول جاءته ثورة هادرة فأدخلها بنفسه في نفق المفاوضات حتى ماتت، ولم يخرج منها إلا بمكسب هزيل: حبر على ورق اسمه دستور يصنع استقلالا شكليا، وصارت آخر أماني خليفته مصطفى النحاس أن يشكل الحكومة تحت ظل الملك الفاسد والإنجليز المحتلين!!

ونستطيع أن نسجل ذات الفارق بين شخصيتي حسن البنا وحسن الهضيبي، الأول أنشأ جماعة من العدم في ظروف

مستحيلة، والثاني أضاعها في ظروف ثورية ولم يكن في مصر كلها أقوى منها!!

**ثالثا: المعركة الفارقة**

نحن الآن في معركة فارقة، وهي معركة لا يمكن تجنبها .. فالصراع بين الشرق والغرب تاريخي أبدي، والساعة ستقوم بعد أن نقاتل الروم في الملحمة الكبرى، فأي تصور لإمكانية تجنب المعركة ليس إلا حلم حالم ووهم واهم.

والعسكر هم الخط الأول لهذا الغرب، فليسوا إلا جماعة وظيفية تُرك لهم حكم البلاد ليكونوا المخلب الغربي في قلب الشعوب العربية المسلمة، وقد انبنت بالفعل واستقرت شبكة مصالح تربط قيادات العسكر بالمصالح الغربية والصهيونية، وأمريكا الآن تجمع أجزاء البازل لتصنع شبكتها العسكرية العالمية كما صرح الكولونيل مايكل ماكيرا والدكتور ستيفن جيراس المدرسان في كلية الحرب الأمريكية.

ونحن في هذه اللحظة نملك الأمور الثلاثة:

١- اللحظة الفارقة، وهي لحظة على مستوى الأمة، التي

تثور شعوبها إما بدافع ذاتي أو بما ينزل بها من مصائب: من بورما شرقا إلى مالي غربا، ومن تركيا شمالا إلى اليمن والسودان وأفريقيا الوسطى جنوبا .. وهي لحظة نادرة جدا لم تتكرر منذ نصف قرن، منذ ثورات الشعوب لطرد المحتل .. ونحن نرى من البذل وتقديم الأرواح والأموال ما لا عهد لنا به في حياتنا القصيرة.

**٢**- المنهج الثوري الذي صار يحقق الآن شعبية لم يبلغها في أي من مراحله الماضية، ومن لم يؤمن به لمجرد الوعي أجبرته الانقلابات والمواقف الدولية ومحاولات سرقات الثورات على الإيمان بها.

**٣**- الشخصيات الثورية: وأحسب أن تحرير رجل مثل الشيخ حازم أبو إسماعيل ينبغي أن يكون على رأس جدول أعمال الثورات، فما أشبهه -إن تحرر- بالخميني بالنسبة للثورة الإيرانية.

ولا أحسب الخلاف يكون حول امتلاك هذه الأمور، بل ربما يكون حول الدرجة والمدى والفائدة المرجوة، وهل هي بالدرجة التي يُسمح بتعلق الآمال عليها أم هي دون ذلك.

ولو تركنا الأمل جانبا، واعتمدنا مجرد الحساب العقلي

وحده، فالحقيقة أنه لا بد لنا أن نحاول، فالمحاولة تشير إلى احتمالية الانتصار بينما ترك المقاومة لا احتمال له إلا الهزيمة . .

هذا الشيخ محمد عبده لم يستطع إمضاء إصلاحه حين ترك المقاومة وجالس كرومر، وهذا مصطفى كامل لم يستطع في زمن الإخصاء الثوري أن يلهب أو يزرع أي بذرة ثورة في حياته، ذلك أن الشعوب ليست تحت الطلب، لا تثور إذا أحببنا أو إذا قررنا نحن أن الوقت مهيأ للثورة . . الشعوب تثور في لحظات أغلبها غير متوقع ولا مفهوم بالتحليل الرياضي الحسابي، أحيانا تثور بلا حدث كبير . . فلئن أفلتت تلك اللحظة فلا تعود . . ربما تعود في جيل قادم، وأقل فترات التغيير أربعين سنة كما قال ابن خلدون ﵀.

فمحاولة إرجاع الناس من الشوارع وتهدئة فورانهم لأن ميزان القوى غير متكافئ لا يؤدي -كما يُتَوَهَّم- إلى تحصيل المطلوب، فالعدو حاضر قائم مهيمن يعلم أن الصراع ديني أبدي، ومهما تخفى البعض تحت شعار الوطنية فهذا يشبه من يداري الشمس بغربال، ومنذ ١٩٢٥ كتب فرنسي يقول لقومه عن الوطنيين العرب: «الهدف الذي يسعون في سبيله غير الهدف الذي يظهرونه، وإنما هم يضمرون شرًّا للأمة الفرنساوية، ويرمون إلى استعادة السيطرة

الإسلامية لتكون شاملة إفريقيا الشمالية كلها، وهذا المظهر هو أحد مظاهر الحرب الأزلية بين الشرق والغرب .. إن أقل ضعف يبدو من جانبنا يعجل بتنفيذ الخطة التي يعملون على تحقيقها».

نحن نرى بأعيننا كيف أن العدو لا يسمح إلا بدين يدعمه، أو على الأقل دين محرف منزوع الجهاد والمقاومة فيسكت عنه، ونبت من أثر ذلك قوم أخلص من فيهم يُتلاعب به ويسهل خداعه، فكيف بأسوأ من فيه؟!!

وما الذي حدث حين لم تكتمل ثورات ماضية؟! هل استطاع القوم تهيئة وضع أفضل حال سكوتهم أم اضطروا في كل الأحوال إلى خوض المعركة ذاتها من جديد في ظل فارق أوسع في ميزان القوى؟!

هل استطاع الإخوان أو الإسلاميون جميعا في سوريا الإعداد منذ مذبحة حماة وحتى ثورة مارس ٢٠١١؟! أبدا .. اشتعلت الثورة رغما عنهم جميعا وخاضوا معركة أعنف وأشرس وأقسى من تلك التي كانت قبل ثلاثين سنة؟!

هل استطاع مثل ذلك أحد في مصر أو ليبيا أو العراق أو الجزائر أو غيرها؟! أبدا .. كل الشعوب ما بين شعب يجدد ثورته

ويخوضها كأعنف مما كانت، أو شعب يقاوم الاحتلال الذي كان الثمرة الطبيعية للاستبداد، أو شعب ما زال لا يستطيع زحزحة الاستبداد الذي يزيده رهقا وعنتا.

ما من عاقل يعتمد على الوعود في لحظات المعارك، ولا أحسب أن حسرة مرسي في سجنه تنقص عن حسرة عرابي في منفاه، هذا صدق السيسي وهذا صدق ديليسبس، ومن هنا جاءت الهزيمة.

ثم أي وعود مبذولة لنا؟!

إنه ليس ثمة وعد مبذول بشيء، حتى السفاح وهو يعلن ترشحه للرئاسة ويرجو تسكين المشكلات لم يتحدث عن عفو ولا عن مصالحات، بل تحدث عن «سيادة القانون، وهيبة الدولة» وأن يده ممدودة «لمن لم يُدِنْه القانون»، ذلك القانون الذي يمسح به بصاقته ثم يلقيه في أقرب مزبلة!

وكيف نصدقه، وما زالت منشوراته التي كانت تلقيها علينا الطائرات تبشرنا بالأمن والسلام إذا عدنا للبيوت - ما زالت لم يجف حبرها؟!

يا قومنا ..

مربط الفرس أن المعركة مفروضة علينا، وأننا لا نملك الانسحاب منها، وليس لدينا ما يمكن تقديمه من تنازلات لتجنبها.

صحيح أن الفارق في ميزان القوة واضح .. ولكنه ما من بديل إلا خوضها؟!

فالأحرى أن نفكر في «كيف» يكون الخوض، وكيف نوقع النكاية بالعدو.



## للمتزوجين .. تمييز أولياء الرحمن عن أولياء الشيطان

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

انظر للخطاب القرآني للعلاقة بين الزوجين: يقول رب العالمين: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، ويقول العزيز الحكيم: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ..

هذا هو خطاب رب العالمين القرآني المختص بالعلاقة بين الزوجين .. خطاب لطيف هادئ عن السكن والتكامل .. عن الرجل الذي هو لباس للمرأة والمرأة التي هي لباس للرجل .. عن المودَّة والرحمة وكيف أن هذه من آيات الله ..

ثم موضِع المرأة كوعاء عاطفي مختص بالسكن . . إيقاف حالة الشراسة الذكورية والضغط العصبي بحالة النعومة واللطف والاستيعاب النسائية . . تُسكِن الرجل . .

خطاب له طابع مميز جدًّا في التهدئة والإرشاد لتكامل الزوجين . .

ثم تأمل معي مسالك إبليس:

قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عند مُسلِم: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نِعم أنت! قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه (أي يُعانقه فرحًا به).

وذكر رب العالمين نزول فتنة السحر فجاء أول شيء تعلمه السحرة الملاعين: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

تدبَّر جيدًا لتعرف الفارق بين خطاب رب العالمين ومسلك كبير الشياطين . . ستستخرج تلك القاعدة الدائمة فخذها عندك واحفظها:

-كل من يبني كلامه على أساس وجود علاقة (تنافُس) ثابتة دائمة بين الرجل والمرأة بالمطلق العام والزوجين بشكل خاص -هو وليٌّ للشيطان يحقق له غرضه . . حيث لا يوجد في المنقول عن رب العالمين ولا نبيه أي كلام ينطلق من هذا الأساس أو يُعززه . .

أما أولياء الرحمن فهم من يبنون كلامهم على أساس وجود علاقة (سكن) بين زوجين كلًا منهما يكون (لباسًا) للآخر فيحاول دائمًا قول ما يعضد ذلك ويساعد على تثبيته . .

كل من يؤدي كلامه لإشعال المنافسة والنفور فهو ولي للشيطان . . وإن زعم عكس ذلك وقال ما قال ونافح عنه من نافح . . فليتق الله في نفسه وفي المؤمنين وليبكت الشياطين التي تعمل من وراء ثرثرته في تخريب البيوت واحتضان إبليس ليلًا سعادةً بما صنعوه من وراء هذا الكلام!



## الرئيس المُسلم

**بقلم: محمد وفيق زين العابدين**

علي عزت بيجوفيتش . . الرئيس المُسلم الذي وُلد في مدينة (بوساناكروبا) شمال غرب البوسنة في الثالث والعشرين من أغسطس **١٩٢٥**م لأسرة عريقة بإسلامها، ثم قدم به والداه إلى (سراييفو) وعمره عامان ليكونوا قريبين من أسرة والدته، وكانت أسرته أسرة كبيرة، فله ستة من الإخوة والأخوات هو سابعهم، وكان والده يعمل في التجارة أُصيب فيما بعد بجرح في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الإيطالية أورثه شللًا في السنوات العشر الأخيرة من عمره، ولهذا اضُطر الابن الصغير إلى أن يعمل وأن يساعد إخوانه بعد إصابة والدهم، وكانت أمهم ورعة حريصة على الصلاة توقظهم لصلاة الفجر.

أمضى بيجوفيتش حياته في (سراييفو)، وهناك تعلم وأكمل

تعليمه الثانوي في العام ١٩٤٣م، وقد بدأ جهاده الفكري في وقت مبكر جدًّا من حياته، حيث اصطدم وهو ابن السادسة عشر من عمره مع السلطة نتيجة اهتماماته الفكرية الإسلامية المغايرة للمواقف الشيوعية، فقد اتفق هو وبعض زملائه في المدرسة على أن يُنشئوا ناديًا في (سراييفو) للتعريف بالدين الإسلامي وتعاليمه سموه (ملادي مسلماني) أي (الشُبان المسلمين)، والذي تطور فيما بعد فلم يقتصر نشاطه على الاجتماعات والنقاشات الدينية، وإنما امتد إلى أعمال اجتماعية وخيرية، وأُنشئ به قسم خاص بالفتيات المسلمات، وصار بمنزلة جمعية أهلية استطاعت أثناء الحرب العالمية الثانية أن تُقدم خدمات فاعلة في مجال إيواء اللاجئين ورعاية الأيتام والتخفيف من ويلات الحرب، لكن سرعان ما انتهى نشاط الجمعية عندما احتلت النازية الألمانية (يوغوسلافيا) وأحالتها إلى جمهورية فاشية في ١٩٤١م، حيث تصدت الجمعية لنشاط الحزب النازي (الأستاشا)، ما أثار غضب النازيين الألمان فحاربوا الجمعية ولم يسمحوا لها بممارسة نشاطها بشكل رسمي.

في العام ١٩٤٦م قامت الحكومة الشيوعية في البلاد باعتقاله هو وصديقه نجيب شاكر بك بسبب مساعدتهما على إصدار جريدة

(المجاهد)، واستطاع خلال فترة حبسه في سجن (فوتشا) أن يُؤلف كتابه (هروبي إلى الحرية)، وبعد خروجه من المعتقل لم يلبث الشيوعيون أن شنوا حملة أخرى على أعضاء (جمعية الشُبان المسلمين)، حيث قُدم أربعة منهم في العام ١٩٤٩م إلى المحاكمة التي قضت في النهاية بإعدامهم، فضلًا عن اعتقال عدد أكبر بسبب نشاطهم الإسلامي المناهض للشيوعية.

تزوج بيجوفيتش عقب خروجه من السجن من زوجته (خالدة)، والتي أنجبت له ثلاثة من الأولاد هم؛ (ليلى) و(سابينا) و(بكر).

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية وانهيار دولة هتلر النازية، استقلت يوغوسلافيا وأصبحت اتحادًا فيدراليًا شيوعيًّا، وزادت معاناة المسلمين بوصول (جوزيف تيتو) وحزبه الشيوعي إلى السلطة في العام ١٩٥٣م، والذي كان يكن عداءً مُستحكمًا للإسلام، ومع هذا التطور استطاع بيجوفيتش أن يُوثق علاقته بالشيخ (حسين دوزو) رئيس جمعية العلماء الذي عيّنته الحكومة للإشراف على شئون المسلمين، وهو ما فتح الباب له لنشر مقالاته تحت اسم مستعار في مجلة (تاكفين) التي كانت تصدرها الجمعية،

وكان لها انتشار كبير بين المسلمين.

ولم ينفك بيجوفيتش مع هذا النضال ضد النازيين ثم الشيوعيين عن استكمال تعليمه، فقد التحق بالتعليم الجامعي في كلية الحقوق، وحصل على الشهادة العليا في القانون في العام ١٩٥٠م، ثم نال شهادة الدكتوراه في العام ١٩٦٢م، فشهادة عُليا في الاقتصاد في العام ١٩٦٤م، وأجاد اللغات الألمانية والفرنسية والإنكليزية إلى جانب لغته القومية (البوسنية)، مع إلمام جيد باللغة العربية.

عمل كمستشار قانوني، ولم ينثن عن مواصلة جهاده الفكري، ففي العام ١٩٨٣م اعتُقل بيجوفيتش مرة أخرى عندما ألَّف كتابه (البيان الإسلامي) الذي قُدِّم بسببه إلى المحاكمة مع اثني عشر زميلًا له بتهمة السعي لتكوين جمهورية أصولية إسلامية في قلب أوروبا، حوكم بيجوفيتش ورفاقه محاكمة صورية صدر فيها الحكم بسجنه لمدة أربعة عشر عامًا، ومن رحم السجن استطاع أن يُؤلف كتابه الشهير وإصداره الأعظم (الإسلام بين الشرق والغرب) كما أخرج السرخسي الفقيه كتابه الكبير (المبسوط) من رحم بئر مُعطلة سُجن فيها.

وفي نهاية العام ١٩٨٨م أُعيدت محاكمته وأُخلي سبيله، وكان يقول عن تجربته في السجن: (السجن يُقدم معرفة لكنها مؤلمة للغاية)، ويقول: (الإنسان يُعاني في السجن من نقص في المكان وفائض في الزمان).

بعد تصدّع الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي في العام ١٩٩٠م، وبعد عشرات السنين من القمع والاستبداد اضطُر (الحزب الشيوعي اليوغسلافي) إلى السماح بإقامة نظام متعدد الأحزاب بعد احتكار للسلطة دام أكثر من أربعين عامًا، فاغتنم بيجوفيتش هذه الفرصة وبادر إلى تأسيس (حزب العمل الديمقراطي) الذي أصبح فيما بعد من أكبر الأحزاب اليوغوسلافية، وأصبح رئيسًا له في مايو من العام نفسه، وخاض الانتخابات وفاز في أربع جمهوريات يوغوسلافية، وتولى رئاسة (البوسنة) في التاسع عشر من نوفمبر من ذات العام حتى عام ٢٠٠٠م.

وفي العام ١٩٩١م أعلنت (كرواتيا) و(سلوفينيا) استقلالهما من جانب واحد، فسارع الجيش اليوغوسلافي الخاضع لقيادة الصرب بالهجوم على الجمهوريتين، وتدخلت أوروبا لإيقاف نزيف

الدم المسيحي، وهددوا (صربيا) بالعقوبات، وأراد بيجوفيتش استغلال الموقف الدولي للحصول على استقلال (البوسنة)، فدعا المسلمين البوسنيين وغيرهم للإدلاء بأصواتهم في الاستفتاء الشعبي لاستقلال (البوسنة والهرسك) عن يوغوسلافيا دون خوف، مُعلنًا للعالم أجمع أنه قد انتهى إلى الأبد هذا الأوان الذي يُقررون فيه مستقبل (البوسنة) دون إرادة شعبها، وفي العام **١٩٩٢**م وقع ما أراد واختار المسلمون المُضي نحو الحرية والاستقلال بأكثرية **٦٣٪**، لكن الشيوعيين لم يرتضَوا بهذه النتيجة، فشنوا حملة إعلامية ظالمة ضد مسلمي (البوسنة)، وثار (الصرب) الهمج على البوسنة في حرب عرقية دموية، ناصرهم فيها نصارى أوروبا الذين تطوعوا بالآلاف للقتال في صفوف الصرب، فما لبثت أن وقعت الدولة المسلمة الوليدة بين فكي أعداء الأمس؛ الصرب من جهة والكروات من جهة أخرى، فكادوا يُجهزون على شعبها الأعزل الآمن على مرأى ومسمع الأوروبيين والأمريكان الذين ملئوا الآذان بالأكاذيب حول الديمقراطية والليبرالية.

أما الأمم المتحدة التي سبق أن اعترفت بـ(جمهورية البوسنة والهرسك)، فقد تركت الجيش الصربي والكرواتي وعصابات

(الشِّتنك) الصربية الإرهابية ومن انضم إليهم من نصارى أوروبا، يعيثون في (البوسنة والهرسك) الفساد، مرتكبين أبشع المذابح والمجازر الجماعية التي ظلت تُكتشف مقابرها مقبرةً بعد مقبرة لسنوات وسنوات، مخلفةً أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف قتيل مسلم، فضلًا عن اغتصاب نحو مائة ألف امرأة مسلمة.

تولى بيجوفيتش رئاسة الجمهورية الإسلامية الوليدة في أصعب الأوقات وأحلكها، ولم يكن رئيسًا عاديًا كسائر رؤساء الدول الإسلامية، فقد نصر شعبه المسلم وقت أن تكالب عليهم أعداء الأمة من الغرب وخذلهم إخوانهم في الشرق، لم يفر ويهرب من الحصار، بل ظل صامدًا مصرًا على البقاء مع بني قومه تحت الحصار في (سراييفو)، ولم يزل يبذل مساعي كبيرة لإنقاذهم، حتى اضطر تحت وطأة القتل والاغتصاب والتعذيب إلى قبول اتفاق (دايتون) الظالم الذي وافقت عليه قمة رؤساء الجمهوريات اليوغسلافية في فبراير ١٩٩١م لإقامة جمهورية فيدرالية متناسقة، وكان هذا الاقتراح كفيلًا بإنقاذ شعبه من المذابح وتخليص يوغوسلافيا من الحرب الأهلية بين الجمهوريات والأعراق، وقد حظي بدعم الجماعة الأوروبية.

عن هذا الصلح يقول الدكتور محمد حامد الأحمري: (كان قويًّا مع مرونة، وأوضح ذلك حرصه على العمل والمفاوضات طوال الوقت وحرصه على إنجاز موقف عملي مفيد ولو كان جائرًا أو أقل مما يطمح إليه، فقد كان يدرك توجهات العالم الغربي، وكراهته لكيان إسلامي في أوروبا، وحادثة القبول بالصلح أنموذج يستحق التقدير، فالتصلب هنا مهلكة، والصلح غبن، لكنه أخف الضررين، فقبل بما وصفه: (سلام جائر خير من حرب مهلكة)، وقد أوصله الوضع إلى شبه يأس من نصير في عالم القوى الدولية رغم بقايا صراع الغرب آنذاك، وعندما تلوح لحظة أمل، أو انفراج، فإنه لا يضيعها، ولا يمتهن نفسه في البحث عن عون المعرضين عنه).

كان بيجوفيتش سياسيًا داهية، ومناضلًا عنيدًا، وفيلسوفًا حكيمًا ذا نظرة إسلامية عميقة بعيدة المدى جعلته يتجاوز كونه مجرد رئيس مسلم، ليُعد وبحق زعيمًا للأوروبيين المسلمين، ليعمل مع جنود الإسلام العاملين على نهوض المسلمين وتخليصهم من التخلف والركود، وهو ما أهَّله للفوز بعديد الجوائز تقديرًا لجهوده في خدمة الإسلام والمسلمين كجائزة (الملك فيصل

العالمية لخدمة الإسلام) في العام **١٩٩٣**م، وجائزة (مُفكر العام) من مؤسسة علي وعثمان حافظ عام **١٩٩٦**م، وجائزة (جلال الدين الرومي الدولية لخدمة الإسلام) في تركيا، وجائزة (الدفاع عن الديمقراطية الدولية) من (المركز الأمريكي للدفاع عن الديمقراطيات والحريات)، وجائزة (دبي الدولية للقرآن الكريم) في رمضان **١٤٢٢**هـ، وجائزة (شخصية العام للعالم الإسلامي) في العام **٢٠٠١**م، ونحسب أن جائزته العظمى عند الله تعالى.

وقد ترك مؤلفات عدة قيّمة ألفها قبل صدورها وذيوعها بأعوام، لكن ظهورها تأخّر جدًّا لعدة أسباب، أهمها: انتشار الجهل في الجمهوريات اليوغوسلافية، وشدة الظلام الشيوعي المتطاول على بلاده، فضلًا عن أن كتاباته كلها كانت بلغته القومية (البوسنية) المغلقة نسبيًا، ولم يكتب بالعربية ولا الإنكليزية، وإنما تُرجمت أولًا إلى الإنكليزية وفي وقت متأخّر إلى العربية ولغات أخرى، ولذلك فقد ظل بيجوفيتش المفكر والفيلسوف مجهولًا زمنًا طويلًا حتى أظهرته الأحداث الكبار، وكان قد قارب الستين من عمره، فصارت له الشهرة وكان التقدير.

وأهم مؤلفاته:

**[١] الإسلام بين الشرق والغرب:**

وهو أفضل كتبه وأقيمها، عرض فيه للتفرقة بين الأيديولوجيات والنظريات الدينية والفلسفية؛ الفلسفات المادية -كنظرية داروين وأفكار نيتشة- والأيديولوجية الروحية المتمثلة في الدين المسيحي، والنظرية الإسلامية التي تجمع بين الروح والمادة، ثم أفاض في شرح فلسفته ليُبين خطر النظرات المادية والروحية وفسادها وفشلها في تنظيم شئون الحياة، وبيّن مدى عُمق النظرة الإسلامية للحياة وشئونها.

وقد بدأ بيجوفيتش بكتابة بعض مسودات الكتاب قبل أن يُطبع بأكثر من عشرين عامًا، وترجمه صديق له مُقيم في كندا إلى اللغة الإنكليزية، ثم ترجمه الأستاذ الكبير محمد يوسف عدس من الإنكليزية إلى العربية بدقة وإتقان، وصدر الكتاب بمقدمة قيمة للدكتور عبد الوهاب المسيري قال فيها: (مفكر ورئيس دولة يُحلل الحضارة الغربية، ويُبين النموذج المعرفي المادي العدمي الكامن في علومها وفي نموذجها المهيمن، ثم يتصدى لها ويقاوم محاولتها إبادة شعبه، لكنه في ذات الوقت يستفيد من اجتهادات المفكرين

الغربيين المُدافعين عن الإنسان، ولعل إيمانه بالإنسان الذي ينبع من إيمانه بالله وإدراكه ثنائية الطبيعة البشرية، هو الذي شد من أزره إلى أن كتب الله له ولشعبه النجاة، وهو الذي مكنه من أن يلعب هذا الدور المزدوج؛ دور المجاهد والمجتهد، ودور الفارس والراهب).

[**٢**] **البيان الإسلامي:**

كتبه عام **١٩٦٩**م، وفكرته تدور حول أن الإسلام هو وحده الذي يستطيع إعادة إحياء القدرات الخلّاقة للشعوب المسلمة، ودعا فيه إلى العودة إلى أصول ومنابع الحضارة الإسلامية، ودعا إلى مزيد من الإنفاق على التعليم، والابتعاد عن العُنف، وضمان حقوق الأقليات، وقد أكد فيه أنه لا توجد حادثة واحدة في التاريخ لم تكن فيها الحركة الإسلامية الأصيلة حركة سياسية في نفس الوقت؛ لأن الإسلام أسلوب حياة متكامل.

وقد أثار الكتاب ثائرة الشيوعيين الذين رأوا فيه نوعًا من المناهضة للشيوعية، لاسيما أنه أخذ الشكل العام في عنوانه لعنوان البيان الشيوعي الذي أصدره كارل ماركس وفريدريك أنجلز عام ١٨٤٨م، وأصبح دستور الحركة الشيوعية فيما بعد، ما حمل

الحكومة على إقامة دعوى ضده بسبب الكتاب انتهت بالحكم عليه بالسجن لمدة أربعة عشر عامًا، نفذ منها خمسة فقط ثم أُفرج عنه.

**[٣] الهروب إلى الحرية:**

وهو عبارة عن تعليقات على بعض نصوص قرأها أو أفكار بدت له وهو سجين، وهو عميق الفلسفة، عميق النقد الفكري والأدبي والقانوني والديني والحضاري، على غير نسق سابق.

**[٤] مذكراتي:**

وهو عبارة عن سيرة ذاتية، مقسم لأقسام، منها ما كتبه بنفسه ابتداءً عن حياته الخاصة والعامة، ومنها بعض أحداث متعلقة بالبوسنة، ومقابلات طويلة مهمة تلخّص رؤيته لكثير من الأحداث والأفكار، وملاحق ببعض المحاضرات والمقابلات، وبعض نصوص الاتفاقيات الدولية بشأن البوسنة كان له فيها دور.

وأهم ما يُميز هذه المذكرات أنه لم ينتصر فيها لنفسه تمامًا كغيره من السياسيين والمفكرين الذين كتبوا مذكراتهم، بل اعترف في عدة مواضع بأخطائه التي ارتكبها واعتذر عنها.

وفي الجملة فقد تميَّزت كتاباته بقوتها الفلسفية والتركيز على

نقض الفلسفات الغربية المبنية على المادية، وأهم ما يميز أسلوبه استيعابه الشديد لمضامين الفلسفات الغربية، فهو يتحدث بطلاقة غير معتادة من المفكرين الإسلاميين عن نيتشة وياسبرز وكيركجارد.

كما تمتاز كتاباته بقوة حُجتها المنطقية، بحيث لا يمكن لغير المسلم إلا التسليم بها، فمثلًا حين تصدى للإجابة عن السؤال المتكرر: (هل يُقر الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة؟!)

أجاب: (نعم ولا . . نعم إذا كنا نتحدث عن المرأة باعتبارها شخصية إنسانية ذات قيمة مساوية للرجل تتحمّل مسؤولية وواجبات أخلاقية وإنسانية، ولا إذا كان الأمر يتعلق بالمساواة المطلقة في الوظائف والأدوار كما يُفهم من معنى المساواة في أوروبا، ثم يشرح وجهة نظره لافتًا الانتباه إلى أن الأمر هنا لا علاقة له بتفوق في جانب أو دونية في جانب آخر؛ لأن مسألة التفوق والدونية يمكن تصورها فقط بين أشياء من جنس واحد.

ومن ثمَّ فإن المرأة لا يمكن وصفها -مقارنةً بالرجل- بأنها أعلى أو أدنى . . لماذا؟ لأنها بكل بساطة مختلفة عن الرجل،

لذلك تسقط المقارنة، ويسقط معها تحديد الأعلى والأدنى، فلا معنى للسؤال: أيهما أهم القلب أم الرئة؟! لأن العضوين لا يمكن أن يقوم بوظيفة الآخر، بل إن الاختلاف بينهما يُعزز قيمة كل منهما بالنسبة للآخر).

ثم يستدل على وجهة نظره بأدلة علمية من واقع دراسات اجتماعية وطبية عديدة، من بينها ما أظهرته اختبارات الذكاء عند الرجل والمرأة من فوارق تتعلق بنوعية الذكاء وليس بمستواه، إذ أبرزت سمات أكبر من الحرية واتجاه نحو العالم الخارجي عند الرجل، أما ذكاء النساء فقد اتسم بحرية أقل واتجاه نحو الحياة والشخصية والعواطف، ثم هو يُرجع السبب في هذه الفوارق إلى اختلاف دور كل منهما في نشوء الحياة واستمرارها على الأرض، فالمرأة رمز الخصوبة والولادة وتعاقب الأجيال، وفي هذا المجال -بالغ الأهمية- تقوم المرأة بدور مباشر، أما دور الرجل فيبدو أقل أهمية وكأنه ليس أكثر من مشاهد حائر، وهنا لا يصح وصف العلاقة بأنها مجرد علاقة رجل وامرأة، وإنما الحقيقة أنها علاقة أم بوالد طفلها، فالأمور هنا لا بد أن تأخذ الشكل أو الصفة التي ينبغي أن تكون عليها كما تفرضها طبيعة الجنسين .. في هذه

العلاقة يصبح السؤال عن المساواة بين الجنسين بلا معنى، بل يصبح سؤالًا مضحكًا!!

ولم يكن مُتعمّقًا في الفلسفات النظرية البعيدة عن واقع المجتمع، بل إنه لم يزل يستخدم هذه الفلسفات في كل موقف في حياته، من ذلك أنه وصل ذات مرة إلى صلاة الجمعة متأخرًا وكان قد اعتاد الصلاة في الصفوف الأمامية، ففتح له الناس الطريق إلى أن وصل إلى الصف الأول، فاستدار للمصلين قائلًا: (هكذا تصنعون طواغيتكم).

وكان يقول عن الثورات وموقف المسلم منها: (إن تقدُّم الإسلام -مثل أي تقدم آخر- سيتحقق على أيدي الشجعان الثائرين، لا على أيدي الوديعين المُطيعين)، ويقول: (كل ثورة حقيقية تتميز بسمات معينة تشتمل على الإيمان والرغبة العارمة في التضحية والموت)، ويقول: (المسلم بين خيارين لا ثالث لهما .. إما أن يُغيّر العالم، وإما أن يستسلم للتغيير).

توفي بيجوفيتش يوم الأحد التاسع عشر من أكتوبر **٢٠٠٣**م عن عمر يُناهز ثمانية وسبعين عامًا، وكان قد أوصى قبل وفاته بساعات رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان بالبوسنة خيرًا،

وهو ما اعتبره البعض تصرفًا غريبًا ينمّ عن بُعد نظر قد يُدرك مداه لاحقًا، ولم يتمكن مسلمو (البوسنة) من إعلان الحداد الرسمي على زعيمهم، إذ اعترض على ذلك ممثل الصرب في المجلس الرئاسي.

يقول الدكتور محمد حامد الأحمري: (علي عزت أنموذج لندرة من الرجال الذين هم أكبر مما يسمح به زمانهم أو مكانهم لهم، وكانت تلك حال البوسنة مع علي، فقد أعطته البوسنة فوق ما تستطيع دويلة محاصرة أن تقدمه من الشهرة والتأثير، وأعطى من الجهاد لبناء أمته المحاصرة الكثير، وأعطى الفكر والثقافة الإسلامية أكثر مما يمكن أن يُعطيه مثقف مسجون أو محاصر كحصاره لعقود، كان يتمتع بقوة روحية هائلة).

لقد كانت حياة علي عزت بيجوفيتش رحمه الله مليئة بالأحداث، حافلة بالدروس والعبر، لقي فيها جلائل المحن التي لم تفل من عزمه الشديد، ولم تُؤثر في نفسه المؤمنة المطمئنة، ولم تُغير من عقله وفكره العميق الواثق بنصر الله لعباده المؤمنين العاملين الصابرين. نحسبه قد لقي ربه سعيدًا مطمئنًا بعد أن حقق بعضًا من آماله وتغلب على شيءٍ كثيرٍ من أحزانه .. فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه، وآخرته خيرًا من أولاه.

# كيف ذهب العدل وحلَّ الطُغيان

بقلم: محمد إلهامي

لم ينتبه أحد من عواصم الإمبراطوريات القديمة في فارس والروم إلى دولة الإسلام التي ظهرت في ناحية بعيدة من جزيرة قاحلة إلا حينما انطلقت هذه الدولة تهدد عروشهم فجأة حتى لكأن التاريخ جاءهم بها بغتة فبهتهم فلم يستطيعوا ردها! ولم يأخذ الأمر وقتًا كبيرًا في عُمر الأمم، بل هي بضع سنوات حتى انتهت دولة آل ساسان إلى غير رجعة، وحتى انحسرت الدولة البيزنطية ففقدت أملاكها في الشام ومصر والشمال الأفريقي وعادت أدراجها تختبئ في آسيا الصغرى لتفكر في هذا الذي دهاها!

لقد كانت هذه الفتوح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي يُقال: اسمه فيتذكر الناس «العدل»، في مقابل أباطرة وقياصرة حكموا بالظلم والطغيان حتى انهارت على أيديهم الدول

والممالك، ثم مضى التاريخ يطوي صفحاته حتى وصلنا إلى هذه اللحظة المعاصرة التي انقلب فيها ميزان القوة، وصار العالم الإسلامي تحت سيطرة أعدائه، وصار العدل مفقودا في أرضهم ظاهرا في أرض عدوهم، حتى إن المسلم ليلتجئ إلى الغرب والشرق فيجد بعض إنصاف فقده بين أهله، ويتنفس شيئا من حرية لم يدركها في أرضه . .

كيف تحول التاريخ وعاد أدراجه هكذا؟ . . هذه السطور القادمة رحلة سريعة تحاول رصد هذه المسيرة.

لقد كانت بداوة العرب من أسرار نزول الرسالة عليهم، فهم القوم الذين لم يتلوثوا بعد بالعبودية لحاكم أو الخضوع لآداب إمبراطورية تجعل منهم شعبا قابلا للمذلة، بل كانت بداوتهم تجعلهم أقرب إلى الفطرة؛ فنفوسهم تحمل الكرامة والعزة والأنفة ولا تقبل الذل لأحد، وعقولهم كانت تعيش الحياة ببساطتها ونقاوتها فلم تذهب في مضارب الفلسفات والأساطير، وأجسادهم تكتفي من الحياة بالضرورة ولم تتشرب الملذات والشهوات والكماليات كما هو الحال في الإمبراطوريات والممالك . . كل هذا جعل العرب أقرب إلى الفطرة وأنسب لنزول الرسالة.

إن أسوأ ما في الإمبراطوريات أنها تسلب من شعوبها العزة والأنفة والكبرياء، وقد أفرد ابن خلدون فصلا في هذا المعنى «أن معاناة أهل الحضر للأحكام (السلطانية) مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم»، ولهذا تجد التفرقة القرآنية الدقيقة بين «الشعوب والقبائل» في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إذ قال المفسرون: «الشعوب للعجم، والقبائل للعرب» . . ومن هنا جاء فيما بعد اسم «الشعوبية» للحركات التي تناصب العرب العداء.

ونظرة بسيطة إلى ما وصل إليه الحال في إمبراطوريات العالم القديم تجعلنا لا نتردد في الحكم بأن هذه الشعوب قد خربت من كثرة ما نزل بها من استبداد وذل حتى لا يمكن أن تصلح لنزول الرسالة عليها؛ ففي فارس كان الأكاسرة يحكمون بالحق الإلهي وبالدماء المقدسة التي تجري في عروقهم فكانت تُقدَّم لهم القرابين ثم إن الشعب منقسم بعنف إلى طبقات بحسب المهن والحرف، ولم يبعد الرومان عن هذا فالمجتمع منقسم إلى سادة وعبيد بل إن العبودية فلسفة أصل لها أفلاطون في الفلسفة اليونانية وكان الأباطرة يحكمون الأقوام بالحديد والنار، كذلك شهدت الهند أبشع نظام فصل عنصري طبقي يجعل الناس أربعة طبقات: نخبة

وجنود وعمال وعبيد والتفكير في أن يتطلع أحد أفراد طبقة ما إلى التي فوقه جزاؤها العذاب الأليم المهين.

وعندما نزل الإسلام على العرب لم يحاول نسف القبلية وما بها من الاعتزاز والأنفة، وإنما كان الاهتمام على محاربة «التعصب للقبيلة بالحق والباطل» ولكنه استعمل محامد القبيلة في بناء الدولة، وفي مقاومة الظلم «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، وفي الدفاع عن الأمة فكان الجيش الإسلامي حتى عصر الفتوح يقاتل في كتائب تمثل القبائل، وفي التعاضد على الخير «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت» . . وليس المقام للتفصيل.

وكان من معجزات الشريعة الإسلامية أنها صنعت نظاما يضع الأمة فوق السلطة، ويجعل الناس فوق الحاكم، ويجعل الحاكم وكيلا عنهم لا سيدا عليهم، لهم أن ينصبوه ويعزلوه، وليس له أن يقتحم بيوتهم أو يفتش في أسرارهم أو يقمع أفكارهم مهما خالفت رأيه أو كانت ضده، وللأمة أن تبني وتصنع حضارتها دون انتظار أو استئذان من الحاكم، وله عليهم الطاعة ما استقام لهم، فإن لم يفعل كان لهم أن يستبدلوا به غيره.

وقد كان عصر النبي ﷺ ثم عصر الخلافة الراشدة التمثيل العملي للإسلام على هذا السبيل، فكان الخلفاء الراشدون خير أئمة لخير أمة في خير القرون.

بدأ الانحراف بسيطا كالعادة، وقد كانت بدايته حين بدأ الثوب الإسلامي يخرج من الصبغة العربية التي أنشأها الإسلام من البداوة النقية إلى الوحي الطاهر، وذلك حين بدأ الاحتكاك بالتيارات الحضارية القديمة.

لقد انزعج عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رأى معاوية يركب في موكب وله حاجب على بابه، غير أن معاوية اعتذر له بأنه «ببلاد كثر بها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العُدة والعدد، استخف بنا، وهجم علينا! وأما الحجاب، فإننا نخاف من الابتذال وجرأة الرعية» . . والشاهد هو قوله «جرأة الرعية» فتلك الرعية هي التي اعتادت أن يكون ملوكها في مواكب وحراسات ودون الوصول إليهم أبواب وحُجَّاب وإلا سقط من نظرهم هيبة الوالي، وهو الأمر الذي لم يكن بالوسع تجاهله فأقره عُمَر وإن كان لم يفصل فيه برأي فقال له: «لا آمرك ولا أنهاك».

وحين سار الزمن وانتقلت العاصمة الإسلامية إلى الكوفة

القريبة من فارس وحضارتها وتراثها الساساني كانت التربة خصبة للقبول بفكرة التشيع لعلي وآل البيت واستنبات فكرة العصمة والحق في الولاية بالوصية الإلهية والحق الموروث، وهو ما يخالف صحيح الإسلام الذي يجعل الحاكم وكيلا عن الأمة لا واليا عليها، يستمد شرعيته من اختيارها له لا بوصية إلهية أو بحق ديني.

وفي عام الجماعة انتقلت العاصمة الإسلامية إلى دمشق -ذي التراث الروماني والفلسفة اليونانية- وابتعدت الدولة الإسلامية أكثر عن النقاوة العربية البدوية، وأحب أهل الشام -العرب الذين استقروا هناك والذين أسلموا- معاويةَ وأسرته الأموية حبا كبيرا وتعلقوا به تعلقا جما، وصاروا عماد دولتهم، ولا ريب في أن تعلقهم هذا كان أحد عوامل تفكير معاوية ﵁ في البيعة لولده لمصلحة الأمة في ألا تقتتل من بعده، وقد سانده أهل الشام في هذا الاختيار وكانوا أسبق الناس لبيعة يزيد، وهو الأمر الذي انزعج له المعارضون في مكة والمدينة ورأوا أنها «سنة كسرى وقيصر»! وليس المقام الآن مقام تحليل هذا القرار ومدى صوابه من خطئه[١]، بل متابعة تأثير الاحتكاك الحضاري على

(١) تحدثت عن هذا في دراسة أخرى (هل كان معاوية مُخطئًا حين عهد =

انحراف المسيرة الإسلامية.

وحين استطاع الأمويون بما لهم من شوكة وإصرار وصبر استعادة وحدة البلاد الإسلامية بعد أن انهارت الدولة الأموية الأولى بعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة واختلاف الناس على مروان بن الحكم، حين استطاعوا استعادة البلاد مرة أخرى على يد مروان وابنه عبد الملك ثبت عمليا لهم ولغيرهم أنهم الأقدر على حكم البلاد، رأوا أن هذا حق لهم بشرعية الواقع، واستمر العهد بالخلافة في عصر الأمويين يعهد الخليفة السابق إلى اللاحق حتى انهارت الدولة وغربت شمسها.

على أن الدولة الأموية ظلت من مبدأ أمرها حتى منتهاه دولة عربية، فلم يكن فيها بلاط ملكي أو آداب سلطانية، ولم يبن خلفاؤها مدنا ملكية، ولم يكن أحدهم يقبل أيديهم أو أقدامهم أو الأرض أمامهم، ولم يكن أحد ملزما بمخاطبتهم بـ«سيدي» أو «مولاي» أو ما شابه، ولم يكونوا هم يخاطبون الناس أو الولاة بمثل هذا!

---

= بالخلافة ليزيد) على مدونتي؛

http://melhamy.blogspot.com

كل هذا تغير على يد الدولة العباسية التي قامت على أكتاف ثورة نشأت في خراسان، وكان رجالها من الخراسانيين الذين تشيعوا لآل البيت وآمنوا بحقهم في الإمامة دينًا، لذا فقد كانت الطبقة التي تدير الخلافة العباسية من الذين استقر فيهم إنزال الخلفاء منزلة كسرى فارس، وكان التشيع أسهل انتشارا في هذه المناطق وهذه النفوس.

لقد أعادت الحاشية إنتاج البلاط الفارسي الكسروي بما فيه من آداب سلطانية (بروتوكول) ومظاهر فخامة وتعظيم وخضوع للخلفاء، وقد تم هذا عمليا لأن كثيرا من البلاط العباسي كان من ذوي الأصول الفارسية الذين بلغوا ذروتهم مع الأسرة البرمكية في عهد الرشيد وآل سهل في عهد المأمون، ثم عُضِّد هذا الإنتاج العملي بالتأصيل النظري عن طريقين؛ الأول: الكُتَّاب والمفكرين ذوي الأصول الفارسية من أمثال ابن المقفع والجهشياري الذين كتبوا وترجموا الأدب السلطاني الفارسي، والثاني: الترجمات عن الفلسفات القديمة اليونانية والرومانية والهندية وغيرها والتي بلغت ذروتها في عهد المأمون، فتلك أيضا نقلت التراث القيصري إلى البلاط العباسي بما تسبغه من عظمة وفخامة على القيصر!

في تلك الفترة نشأ التعامل مع الحكام باعتبارهم «قضاء وقدر»، وأسرف البلاط في مظاهر الجلالة والمهابة والزينة، ونشأت آداب تقبيل اليد والخطاب بالمولى والسيد، وبدأت كذلك بذور الفقه الذي يرى أن هذا من ضرورات الدولة لاستقرارها والتمكين لهيبة خلفائها، وهو الأمر الذي لم يحاول أحد أن يؤسس له في عصر الخلافة الراشدة.

ثم تعرضت المسيرة الإسلامية للنكبة الكبرى على هذا المسار حين وقعت تحت سيطرة الحكم العسكري منذ منتصف القرن الثالث الهجري، حيث استطاعت طبقة العسكر الأتراك السيطرة على الخلافة العباسية وصاروا أصحاب الأمر والنهي، ومن هنا بدأت سلسلة من الحكم العسكري تسيطر على الخلافة الإسلامية: أتراك، ثم بويهيين، ثم سلاجقة، وظهر الزنكيون ثم الأيوبيون ثم المماليك . .

والحكم العسكري هو أحد أهم أسباب انهيار الدولة الإسلامية وحضارتها، لطبيعة الحكم العسكري الذي يسيطر على الحياة المدنية ولا يخضع لها، وبالتالي فهو ينحو بطبعه نحو

الاستبداد، فتزيد الشقة بينه وبين الأمة ونخبتها من العلماء والفقهاء . . وقد كان!

استطاع الحكم العسكري تحقيق نتائج رائعة في مواطن الجهاد، لكنه نكب الأمة حضاريا وصفَّى نخبتها واستبد بها حتى ضعف الحكام الأقوياء وجاء الضعفاء فأسلموا الأمة إلى الاحتلال الأجنبي مرة أخرى من بعد ما كان أجدادهم قد قهروهم.

وكان الاحتلال الأجنبي في جولته الثانية أذكى، فقد ظل حاكما يحاول إفساد عقيدة الأمة وأفكارها، حتى إذا انهار أمام المقاومة تركها مرة أخرى في يد حكم عسكري كانت وسيلته إلى الوصول انقلابات دموية أو بيضاء! هي السبب فيما تعانيه بلادنا حتى الآن.

يظل الحل قائما في العودة إلى منهاج السلف الصالح في خير القرون، حيث عصر الخلافة الراشدة، والتأسيس لفقه وفكر يعيد الأمة إلى موضع السيادة ويعيد الحاكم إلى موضع الوكالة، ويجعل الأمة فوق السلطة والشعب فوق الحاكم، ويتخلص من شوائب كسرى وقيصر التي أفسدت السلطان ففسد كل شيء!

وصدق سيدنا عثمان بن عفان «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

## الحنبلي المُعتزلي

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

نفى المعتزلة صفات الله المثبتة في كتابه -وسموا هذا النفي الجائر: توحيدًا!

ونفوا قدرة الله على خلق كل الأفعال وأعطوها للعبد كالقدرية -وسموا هذا الزيغ: عدلًا!

فالعناوين البراقة ليست أبدًا دليلًا على صحة العقيدة أو المنهج .. بل وأكثر من هذا: ليس زهد وعلم الداعي إلى هذه العناوين البراقة دليلًا على صحة منهجه أو عقيدته .. فقد كان عمرو بن عبيد من الزهاد وعلماء عصره وكان مقربًا من الحاكم المنصور العباسي حتى إن المنصور قد رثاه بنفسه عندما مات!

ومع ذلك فقد كان هذا العالم، الزاهد، محبوب خليفة المسلمين، الداعي لتوحيد الله والإيمان بعدله؛ مُعتزلي المذهب

فاسد العقيدة مبتدعًا مجتهدًا في نشر الضلال بين المسلمين بأصول فرقته الخمسة وفوقها أصول الواصلية ومنها الهجوم على فريقي صحبة عثمان وصحبة علي فقال: إن أحد الفريقين فاسق لا محالة!

وقل أكثر من هذا -مدحًا وذمًا!- على رأس عملاق عندهم كالنظّام صاحب الكلام والمكانة العلمية والتبحُّر في المعرفة وخلاصة العلوم العقلية والفلسفية حتى عصره . .

مع هذا ففوق أن ذاك العالم الموسوعي المتبحر من أرباب الاعتزال -فقد قام بالهجوم على الفاروق عمر بن الخطاب في ذمته بل في دينه وعقيدته وعلى عثمان بن عفان بمطاعن أعدائه الخبيثة المشهورة . . وكل هذا لينصر تشيُّعًا عنده وبرغم ذلك لم يسلم من لسانه وهجومه علي بن أبي طالب نفسه!

ومثل المعتزلي هشام بن عمرو الفُوَطي الذي قيل في وصفه: صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال! وأبو الحسين البصري الذي قيل: إنه كان فصيحًا بليغًا عذب العبارة يتوقّد ذكاء وله اطلاع كبير . . وثمامة بن أشرس الفصيح البليغ الظريف خفيف الدم . .

وعن زهد بشر بن المعتمر وأبي موسى المردار فحدِّث! والأخير يسمى راهب المعتزلة من كثرة زهده . . برغم ذلك فقد

كان مغاليًا في تكفير المخالفين لمذهبه الضال حتى كاد يكفر المسلمين كلهم إلا من وافقه مما جعل إبراهيم بن السندي يبكته قائلًا: الجنة عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك؟!!

فأنت هنا ترى مجموعة من كبار المعتزلة أصحاب البدع الشنيعة في الدين وبعضها يصل بالمرء إلى حد الطعن في قدرة الله وفي أئمة الصحابة بل إلى الكفر لا محالة مثل خبل المعتزلة الخابطيَّة والحدثيَّة الذين قالوا بتناسخ الأرواح وبأقنوم المسيح وطبيعته الإلهية!

إذن لا العلم يعصم المرء عن أن يكون مبتدعًا في الدين إلى درجة الكفر . .

ولا الزهد ولا الرهبنة . .

ولا المعرفة الواسعة . .

ولا العناوين الرنانة للأفكار . .

ولا القرب من خلفاء المسلمين . .

ولا الفصاحة ولا البلاغة . .

ولا الاستخدام المتفوِّق الماهِر للعلوم العقلية . .

ولا الإجادة في حفظ الأحاديث أو القرآن . .

لا شيء من ذلك أبدًا يعصم المرء عن أن يكون شريرًا يهدم أسس الدين ويعبث في فلسفته ومقاصده . .

بالتالي فهؤلاء الذين يستخدمون وجود (العلم، المعرفة، العقل، الزهد، الورع الظاهر، القرب من حكام المسلمين الصالحين، الفصاحة، البلاغة، إجادة القرآن وعلومه، إجادة الحديث وعلومه، إجادة الفلسفة والفكر والتفوق فيهما، توليد أفكار ذات عناوين براقة ظاهر مقاصدها الخير) -يستخدمون كل تلك الأمور في محاجَّاتهم للدفاع عن صاحب لهم أو شيخ ينصرونه ضد من يفضحون بدعة اقترفها ودعى إليها وسعى في نشرها . . هؤلاء مغفلون على الحقيقة ويجب التغاضي عنهم . . ومثلهم لو كان في عصور المعتزلة ما وجد هؤلاء الكوكبة الضخمة من أكابرهم كثير عناء في نشر أفكارهم وتثبيتها وقتل العقيدة الصحيحة والفكر السليم والإيمان الحقيقي للأبد!

وإن فحص طبقات المشجعين من طلاب العلم المعاصرة ومواقفها مع شيوخها ومع كل مبتدع منهم يجيد صناعات الكلام

والعلوم الشرعية والفكرية وفيه زهد وعبادة يعلم يقينًا ماذا كان سيحدث لو وُجد في عصرنا هذا واصل أو النظّام بعلومهما الغزيرة وتراكيب كلامهما البديعة ومنطقهما المتماسك ظاهرًا ووجد أمامهما ابن حنبل بكلامه الجاف عن الرجال وعلومهم وطبعه الهجومي الشرس ضد من ظاهرهم الصلاح كالمحاسبي وغيره من رؤوس البدع . .

أتعرف إلى من سينحاز عموم طلاب العلم؟ وكم الهجوم الذي سيلقاه الإمام ابن حنبل منهم لأنه يهاجم العلماء، الزهاد، العباد، الموسوعيين، الأدباء البلغاء الفصحاء العقلانيين أهل الشريعة والأصلين . . إلخ!

أكاد لا أشك أبدًا في أن الإمام وتلامذته كانوا سيُحشرون في آطام الجبال النائية أو على الأقل كان مصيره ليصبح سجينًا حتى الموت كابن تيمية! وكان أول من سينبذهم وسيهاجمهم هم هؤلاء الدراويش المعاصرون المتحلقون حول بعض المبتدعة المعاصرين من أشياخهم العابثين في مقاصد هذا الدين وفلسفته كجعل الحفاظ على حياة المسلمين هو المطلق الدائم من المقاصد الذي لا يمكن تقييده حتى ولو لجهاد دفع الطواغيت والكافرين -بالتالي فالأولى

اعتزال أي صراع من أي نوع يمكن أن يسبب موت المسلمين! هؤلاء المعتزلة الجدد الذين يزرعون فلسفة الخوار والجبن وقلة المروءة سيروجون لا محالة ومن سيهاجمهم تعيينًا سيلقى العنت الشديد في مأتاه ومرده لا محالة كذلك .. والواعي من طلاب العلم من لا يربط نفسه بشيخ مبتدع فإما يسلك طريق فتح مصادر التلقي للجميع دون ارتباط عاطفي غير عقلاني بتلك المصادر، وإما أن يكون ممن يرتبطون بمصادرهم فيكون مسلك الإمام أحمد مع العلماء المبتدعة هو الأنسب: المقاطعة والفضح ..

وليحافظ على نفسه كيلا يكون مثل تلك المسوخ المتدروشة التي صرنا نشاهدها اليوم وكان يستحيل رؤيتها عند المتقدمين: ففي ذلك المثل المضروب عن تواجد واصل وابن حنبل اليوم في زماننا -لم يكن من الصعب جدًّا كذلك أن نجد فريقًا يدعي الوسطية فيخترع لنا ذلك الكائن الأسطوري الذي من المحال وجوده عقلًا:

الحنبلي المعتزلي!



## صور منسية في عصور التكريم المزعومة

بقلم: محمد وفيق زين العابدين

بعد نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان وفي عصور تكريم المرأة المزعومة تأتي هذه الصور لتُبين التكريم الحقيقي للمرأة، تكريمها وقت احتياجها الحقيقي للتكريم، وتشريفها وقت احتياجها الحقيقي للتشريف، تمتعت بهذا التكريم والتعظيم والإجلال قرونًا من الزمان، هي به قريرة العين، طيبة النفس، مُطمئنة البال، حتى انطلق أقزام العقائد في الشرق والغرب يتهمون الشريعة بإهانة المرأة وتقصيرها في الوفاء بحقوقها، وهم أول من أهانها في موضع استحقاقها للإعزاز، أول من بخسها حقوقها التي استحقتها شرعًا وعُرفًا ومنطقًا، ومع ذلك فقد استطاعوا بوسائلهم الخبيثة أن يصلوا إلى أعماق ما يريدون، فارتفعت الأصوات في كل قُطر تُردد أفكار هؤلاء الأقزام ورغباتهم، وتميزت من هذه الأصوات أصوات تحمل في صداها ثورة لنساء الإسلام يُرددها أدعياء

الإسلام ليفسدوا على الأُمة مجتمعها وعلى نساء المسلمين هناءهن وسعادتهن.

فبينما لا تمنع أي نصوص وضعية في الدول العربية والغربية على حد سواء حبس الحامل أو توقيع عقوبة عليها، فالشريعة تمنع عقابها بأي عقاب -ولو بالحبس- حتى تضع حملها، ولا يُكتف بالوضع بل تُمهل حتى تُرضع طفلها وتفطمه حتى يقوى وتستقر حالته الصحية والنفسية، وهو ما قد يصل إلى تأجيل تنفيذ العقوبة عليها لنحو سنتين أو أكثر من وضعها، وهذا من أبلغ معان الرحمة وأعلى القيم الحقوقية التي لم تسبق إلى معرفتها والاعتراف بها أي نظم وضعية لا في القديم ولا في الحديث، فأخف التشريعات الوضعية وطأةً لا تمنع من تنفيذ عقوبة الإعدام عليها سوى لـ شهرين على الأكثر ثم يُحال بينها وبين طفلها وتُنفذ فيها عقوبة الإعدام كما هو الحال في القانون المصري!! وأكثر التشريعات الغربية على تنفيذ عقوبة الإعدام فورًا أو بعد عشرة أيام من الوضع فقط، ولا تُتيح أي فرصة لتأجيل تنفيذ العقوبة . .

وبينما تمنع الشريعة توقيع أي عقوبة غليظة على جسد المرأة -كعقوبة الجلد- إذا كانت نفساء وحتى تعافيها من النفاس خشية أن

تموت من تطبيق العقوبة، فدولة القانون العصرية لا تُفرق بين المرأة والرجل، الصغيرة والكبير، الفتاة والفَتِيِّ، أيًا كان حال صحتها أو مرضها، كلهم أمام القانون سواء وكلهم يستحق تنفيذ العقوبة عاجلًا غير آجل . .

كما تحظر الشريعة إهانة الجانية بأي صورة قبل أو بعد أو أثناء تنفيذ العقوبة، ولو بالسب، أما في دولة الحُريات العصرية فحُرية التعبير عن الرأي مصونة لا تُمس ولا يُنال منها لأجل أي أحد امرأة كانت أو رجل، لاسيما هؤلاء الذين لا ثمن لهم لما اقترفته أيديهم من جرائم . .

ثم إن المرأة في الإسلام دائمًا وأبدًا مُستحقةً للنفقة من أكثر الرجال قرابةً لها أو من الدولة إن لم توجد لها مثل تلك القرابة، فهي مستحقة للنفقة سواء كانت أمًا أو ابنتًا أو زوجةً أو أختًا أو خالةً أو عمةً أو من الدولة إن لم تكن صاحبة صفة مما تقدم . . بل إن امتناع الزوج عن الإنفاق على المرأة سبب لاستحقاقها الطلاق إن أرادت لقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾، فالإنفاق سبب من أسباب القوامة، وإلا سقطت قوامة الزوج على زوجته، قال

القرطبي في تفسيره: (متى عجز عن نفقتها لم يكن قوامًا عليها، وإذا لم يكن قوامًا عليها كان لها فسخ العقد، لزوال المقصود الذي شرع لأجله النكاح) . .

وهي تتمتع بكامل الأهلية سواء الوجوب أو الأداء كالرجل تمامًا . . ونصوص التشريع الإسلامي منذ الوهلة الأولى تُؤكد على المساواة بين جميع المكلفين بأحكامه ذكورًا وإناثًا، فجميعهم يتمتعون بأهلية مماثلة ما لم يعترضها عارض محدد بمعيار موضوعي لا يمكن تحريفه أو تعديله من قِبل أي سلطة مهما علت، ومن ثمَّ فهم متساوون في الكليات الخمس: النفس، الدين، العقل، النسل أو العرض، والمال، فلهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها فيما عدا ما استُثني بنص خاص روعي فيه الطبيعة الضعيفة والفسيولوجية للمرأة كالقوامة والإنفاق والحضانة وغيرها وهي أحكام مقررة لصالحها رحمةً بها ورعايةً لها لا تؤثر بحال من الأحوال في أهليتها، والمرأة في القانون الروماني وهو أصل القوانين الغربية ناقصة الأهلية دائمًا، فهي في حالة قصر قانوني دائم، تمر من سلطة إلى سلطة، فوالد البنت يختار لها الزوج، ثم يستطيع زوجها الإيصاء بها كزوجة لمن يختار في الوصية، وبرغم

محاولات التخفيف من وطأة القصر القانوني لاسيما بعد التأثر بالأفكار الفلسفية الداعية لذلك، وكان مما اتفق عليه شيشرون وأرسطو أنه لا رأي للمرأة لوهن تقديرها وعدم سداد رأيها، ولذلك وضعت تحت الوصاية دائمًا كالعبيد والقُصر . .

وأسباب حق المرأة في طلب الطلاق غير محصورة كباقي الشرائع السماوية ومعظم التقنينات الغربية، فتضرر الزوجة من زوجها مسوغًا للطلاق، والضرر اسم عام لكل إيذاء يقع على الزوجة بالقول كالشتم المقذع والتقبيح والطعن في الكرامة، أو بالفعل كالضرب المبرِّح والحمل على فعل ما حرم الله تعالى، والعُقم قد يكون سببًا للطلاق؛ لأن النسل مصلحة للزوجين والذرية غاية وسبب من أسباب السعادة قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهجر الزوج لزوجته أو إعراضه عنها لغير سبب نشوزها مسوغ لطلبها الطلاق إذا استدام الهجر أو الإعراض لمدة لا تقل عن أربعة أشهر . .

وفي الميراث فالمرأة تستحق في نحو ثلاثين حالة نصيبًا مماثلًا للرجل، أو أكثر منه، أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال، وذلك في مقابل أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف

الرجل لأسباب وحكم مرتبطة بصالح المرأة أيضًا لكن من جهة أخرى والمُبينة بالبند الثاني . . هذا فضلًا عن أن من لا يُحجب من الرجال حجب حرمان أبدًا لا يُحجب أمثالهم من النساء أبدًا، وكثيرًا ما ترث الجدة ولا يرث نظيرها من الأجداد . .

وكل ما تقدم غيضٌ من فيض وقليلٌ من كثير من الصور المنسية لتكريم الشريعة للمرأة في عصور التكريم المزعومة . .



## ذكرى أولى نكبات العسكر .. حرب ١٩٥٦م

**بقلم: محمد إلهامي**

منذ ابتليت بلادنا بحكم العسكر وهي تتلقى النكبات الواحدة تلو الأخرى، وعلى عكس ما ظنَّ الجميع من أن العسكر إذا حكموا عاد ذلك على الوطن بالحزم والفتوة وقوة الجيوش، فإن حكم العسكر مرتبط بالهزائم والمرارات والاستبداد على الشعب في الداخل والذلة والضعف والعمالة أمام العدو في الخارج. وتلك هي سيرتهم وطبعهم منذ حكموا وليس شيئا طارئا عليهم.

وفي هذه الأيام تمر علينا الذكرى الأولى للنكبة الأولى تحت حكم العسكر، وهي هزيمة **١٩٥٦** التي ما زال البعض يظن أنها نصر بتأثير الإعلام العسكري المجرم، الذي تولى أمره مجموعة من أراذل الناس وأسافلهم لم يتورعوا أبدا عن الكذب على الناس وقلب النكبات إلى انتصارات، بل لم يتورعوا عن وضع قواعد

جديدة للنصر والهزيمة: فنحن انتصرنا ما دام الزعيم بخير وإن دُمِّر الجيش وسلاحه وضاع البلاد والعباد.

هذه السطور القادمة هي موجز تاريخ هذه النكبة، بأوجز عبارة ممكنة.

لفهم هذه الحرب يجب التفريق بين أمرين: المواجهة مع إسرائيل، والمواجهة مع بريطانيا وفرنسا!

وفي ذلك الوقت كانت إسرائيل ما تزال في أول التأسيس، لم يمض على وجودها سوى ست سنوات، وهي محاصرة من الجنوب لا تملك الملاحة في البحر الأحمر ويرقد في سيناء وقطاع غزة جيش متفوق على جيشها بحساب العدد والعدة، وقد خرجت بريطانيا من مصر وصارت خطوط المواجهة مكشوفة، فكانت تعاني لتثبيت وجودها في محيط عربي يفور ببغضها ويملؤه الأمل بإزالتها، ويرى أن الطريق لهذا قريب واضح خصوصا مع بدء زوال الاحتلال الغربي للبلاد، ومن ثم لا يبقى إلا التعاون بين هذه البلاد فتزول إسرائيل! ولم تكن أمريكا ذاتها -حينئذ- قد حسمت أمرها بدعم إسرائيل كموقف استراتيجي على حساب العرب، بل كانت المحاولات الأمريكية لتثبيت إسرائيل وتبريد الوضع العربي تحاول

إلزامها بوجود طريق بري آمن بين مصر والأردن يخترق صحراء النقب، وبطريق بري آمن بين مصر ولبنان، وبحق العرب في استعمال ميناء حيفا .. إلا أن إسرائيل نجحت من خلال الانتصارات المتتالية في فرض نفسها كأمر واقع وحسمت هذا التردد الأمريكي نحو أن يكون في صالحها على حساب العرب في هذه المنطقة.

أما بريطانيا وفرنسا فأولئك هم عجائز القرن الماضي ومخلفات الحرب العالمية الثانية، ورغم انتصارهم فيها نظريا إلا أن شمسهما إلى أفول مع بروز القوتين الكبريين: أمريكا والاتحاد السوفيتي، وهما يرثان الآن هذا الإرث الاستعماري، وفيما كانت العداوة واضحة وظاهرة بين الاتحاد السوفيتي والغرب الرأسمالي من جهة، فقد كان ثمة عداء نصف معلن ونصف خفي وهو العداء بين أمريكا من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من الجهة الأخرى، وهو العداء الناجم عن محاولة وراثة الشرق الأوسط، وكانت أبرز مظاهر هذه العداوة هي الانقلابات والانقلابات المضادة في سوريا أواخر الأربعينيات. لكن الوضع الظاهر الذي لا شك فيه هو غروب شمس بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط تشيعهما اللعنات

ومشاعر البغض العربية، وهي ذات المشاعر التي بدأت تتجه للتخلص من إسرائيل، المولود الاستعماري اللقيط!

يقول عبد الناصر -كما روى عنه بغدادي- «إن إسرائيل اليوم تفكر بدلا من المرة عشرات المرات قبل أن تقدم على مهاجمة مصر لعلمها بقوة جيشها ومدى استعداده، وهي الآن لن تقامر على كيانها» (أكتوبر ١٩٥٥م) لكنه وفي ذات الوقت -كما روى هيكل في قصة السويس ص٢٢- يقول لوفد من حزب العمال البريطاني: إنه «لا يشغل نفسه بإسرائيل، وإنما يركز على التنمية الداخلية في مصر، وأنه لذلك خفض ميزانية القوات المسلحة بخمسة ملايين جنيه عن السنة الماضية».

وفي الحقيقة فقد كانت هذه هي الضمانة الوحيدة لبقاء إسرائيل التي كان يمكن أن تزول في هذا التاريخ لو وجدت لدى حكام مصر الإرادة لذلك، إذ كل الظروف وقتها كانت مهيأة لهذا، وكانت إسرائيل تعرف هذا جيدا ولا يهمها سوى تثبيت وجودها وفرض نفسها بالقوة والدم لئلا يكون ثمة أمل في إزالتها، ومن هنا كان الموقف في أكتوبر (١٩٥٥) -كما رواه تقرير استخباري بريطاني، ذكره بغدادي، وذكر أن مصر حصلت عليه- هو «ليس

لدى مصر أية نية في الاعتداء على إسرائيل. وأنها ليست مستعدة إلى ذلك بخلاف موقف إسرائيل واستعدادها».

**• ما قبل المعركة**

وضع موشى ديان خطة عسكرية قصد بها فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية (بالسيطرة على الشاطئ الغربي لخليج العقبة) وتصفية الجهاد في قطاع غزة، وكان من المقرر تنفيذها في نوفمبر ١٩٥٥، لكن المحاولات الأمريكية الجارية للجمع بين عبد الناصر وبن جوريون جعلت هذا الأخير يوصي ديان بتأجيل الخطة حتى يناير ١٩٥٦، ومن أجل هذا لم تستطع إسرائيل الحصول على أسلحة متطورة من أمريكا ولا بريطانيا فلم تجد سوى فرنسا التي عقدت معها صفقة الأسلحة المشهورة في يونيو ١٩٥٦م، وبها امتلكت أول طائرات مقاتلة في تاريخ الجيش الإسرائيلي، وفي فرنسا سعت إسرائيل لتسويق نيتها بشنّ عملية عسكرية لاحتلال الشاطئ الغربي لخليج العقبة لفتح الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية، وأجابت فرنسا بأنه يمكن لهم في هذه الحال أن يمدوا خط أنابيب من إيلات (على الخليج) إلى البحر المتوسط. وما إن عاد بن جوريون من فرنسا حتى قال لديان بأن يكون على استعداد للحرب.

أي أن إسرائيل كانت ستحارب في كل الأحوال، أكان التأميم أم لم يكن! فيما كان العسكر في مصر لا يفكرون في إسرائيل ويخفضون ميزانية الجيش!!

في **٢٦ يوليو ١٩٥٦** أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس، وهو -مهما كان بغضنا لعبد الناصر- قرار بطولي ووطني وشجاع، وذلك لتمويل مشروع السد العالي من بعد ما رفض البنك الدولي تمويله، إلا أنه -كعادة قرارات العسكر- لم يكن قرارا محسوبا ولا مدروسا ولا كانت ثمة استعدادات لآثاره، وهذا ما يجعله في الحقيقة قرارا كارثيا لولا أن الخلافات الدولية الكبرى كانت في صالحنا آنذاك.

فلولا أن أمريكا كانت حاسمة في إزالة بريطانيا والحلول مكانها في الشرق الأوسط لكان هذا القرار هو السبب في عودة الاحتلال الإنجليزي إلى ديارنا مرة أخرى، ولئن كان الاحتلال هزم جيش عرابي قبل ثمانين سنة فإنه في هذه اللحظة لم يكن ليجد جيشا أمامه أصلا من فرط سوء السياسة والإدارة العسكرية، وكان أول اختبار حقيقي لهذه الإرادات الدولية في أزمة مرشدي القناة، إذ كان على مصر وقد أممت شركة القناة أن تثبت استطاعتها إدارة

الملاحة فيها، بعد امتناع الإنجليز والفرنسيين عن العمل، وهنا تدخلت روسيا ويوغسلافيا واليونان بمساعدة مصر بالمرشدين كما وسمحت أمريكا لرعاياها بالعمل كمرشدين في القناة. ولم يكن هذا إلا نزعا لأي ذريعة بريطانية فرنسية لأي عمل عسكري تعودان به إلى الشرق الأوسط.

ولهذا يقول المعترضون على قرار التأميم بأن امتياز القناة كان سينتهي بعد ١١ عاما، دون هذه المخاطرة الكبرى بإعادة الاحتلال مرة أخرى، فإن لم يكن ممكنا الانتظار فقد كان ممكنا الدخول مع الشركة في مفاوضات لاختصار المدة أو لزيادة المشاركة المصرية في إدارة القناة أو عوائدها، أما النقض المفاجئ لاتفاقية دولية فعملٌ لا تبرير له خصوصا وأن عبد الناصر وقع قبل شهر واحد اتفاقية مع الشركة نفسها تتضمن اعترافا بشرعية الشركة، ومن ثم كان بالإمكان مدَّ أجل المفاوضات كي يكون قطعها ذريعة للتأميم! ولو أن القرار حظي بأقل قدر من الدراسة لأمكن إنقاذ ٤ مدمرات بحرية مصرية كانت راسية آنذاك على الشواطئ البريطانية والتي سارعت بريطانيا بالاستيلاء عليها، أو حتى إنقاذ شيء من الأموال التي جمدت في بريطانيا وأمريكا (١١٢ مليون جنيه إسترليني، ٦٠

مليون دولار) عقيب قرار التأميم.

لقد جنّ جنون بريطانيا وهي ترى نفسها تقصى على هذا النحو، وكانت الصحافة الغربية تفور بالغضب والتحريض ضد مصر، حتى الدول التي لا سهم لها في شركة قناة السويس، واستعدت بريطانيا وفرنسا لعمل عسكري، وهنا تدخلت أمريكا بكل ثقلها السياسي لتبريد الموضوع بكسب الوقت أولا، فدعا وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس إلى مؤتمر في لندن يضم كافة الموقعين على اتفاقية ١٨٨٨ بشأن القناة بما فيهم روسيا وإيران وباكستان (وهي الدول التي من شأنها أن تعرقل أي خطوة عسكرية ضد مصر)، ثم دعا بعده إلى اجتماع لـ «جمعية المنتفعين من القناة» وأصدرت هذه الأخيرة قرارا بتعيين لجنة دولية (من الدول المنتفعة) تتولى إدارة شركة القناة، وهو ما كان مستحيلا قبوله إذ كيف تؤمم شركة ليؤتى بلجنة دولية! وبعثت الجمعية منزس (رئيس وزراء استراليا) على رأس وفد لعبد الناصر، لكن الرئيس الأمريكي أيزنهاور كان يفشل مهمتها علنا في مؤتمر صحفي يصرح فيه بأنه لا استعمال للقوة لحل مشكلة القناة، ولما سئل: ماذا لو رفض عبد الناصر مقترحات منزس قال: يجب أن نفكر في

اقتراحات أخرى، ثم حملت بريطانيا القضية إلى الأمم المتحدة التي أسفرت اجتماعاتها عن مشروع المبادئ الستة الذي قبلته كل الأطراف بنية عدم تنفيذه، فمصر قبلته لكسب الوقت باعتبار أن أي تأخير يقلل من فرص استعمال القوة بينما قبلته بريطانيا وفرنسا لأنهما سيتذرعان بالهجوم الإسرائيلي الذي غَيَّر الموقف. وكانت أمريكا تلقي بثقلها كله في المعركة السياسية هذه، وما إن تم التوصل إلى هذا المشروع حتى خرج أيزنهاور -وكان الوقت وقت انتخابات في أمريكا- ليزف إلى شعبه هذا الخبر السعيد الذي يقضي على فرص نشوب حرب في الشرق الأوسط؛ ليقطع بذلك الطريق على أي تحرك عسكري أنجلو فرنسي.

منذ منتصف أغسطس بدأت الاستعدادات العسكرية العلنية في بريطانيا وفرنسا، وجاءت الأخبار من أكثر من مصدر باستعداد عسكري حقيقي لغزو مصر، لكن عبد الناصر المطمئن إلى أمريكا لم يحفل بأي شيء واعتبرها مجرد حشود إعلامية، بل أصدر قرارا في ٨ أغسطس بسحب الجيش من سيناء!!

- **أحداث الحرب**

كان الخلاف الإسرائيلي -الأنجلو فرنسي (وقد اجتمعوا في

مدينة سيفر الفرنسية لإبرام الحرب) محصورا في رغبة إسرائيل ألا تبدأ بالحرب وحدها خصوصا وسلاح الطيران المصري متفوق على الطيران الإسرائيلي آنذاك ويمكنه أن يدمر مدن إسرائيل الرئيسية بما فيها تل أبيب (وهذا ما رواه موشي ديان في مذكراته)، ولذلك يجب أن تبدأ بريطانيا بالحرب أو على الأقل بتدمير سلاح الطيران المصري. فيما كانت الرغبة البريطانية مختلفة لأنهم في ظل الأزمة السياسية مع أمريكا يريدون حربا تشتعل أولا لتكون لهم ذريعة التدخل لحماية القناة، ثم استقر الأمر على أن إسرائيل ستخاطر وتخوض المغامرة اعتمادا على عدم وجود رغبة مصرية في تصعيد الأمور وأنهم سيبتلعون الضربات الإسرائيلية في اليوم الأول -كما ابتلعوها سابقا- باعتبارها عمليات محدودة وليست حربا كبيرة، وبهذا تتوفر الذريعة لدخول فرنسا وبريطانيا الحرب ويقومون بتدمير سلاح الطيران المصري.

أي أن إسرائيل خاضت مغامرة وجودية فارقة في مصيرها النهائي معتمدة على عدم وجود رغبة مصرية في التصعيد!! وعلى أن مصر ستبتلع الضربات الأولى كالعادة!! وسيظل هذا الشلل في الطيران المصري حتى تتحرك بريطانيا وفرنسا لتدميره!! وهو ما كان!

ومهما أوتي المرء من حسن ظن بل من سذاجة فإنه لا يمكن استبعاد عنصر الجاسوسية، إذ أن الطيران المصري لم يتحرك لسبب هو الأغرب من نوعه، فقد قال محمد صدقي قائد سلاح الطيران (ولم يكن من الضباط الأحرار، وتعيينه في هذا المكان لغز يستدعي بحثا معمقا) لعبد الناصر بأنه لا يستطيع تطيير طائرات مصرية لأن مطار غرب القاهرة ليس فيه بنزين!! ولا تنس أن هذا قيل في أجواء الحرب التي تزخر بها كافة وسائل الإعلام منذ ثلاثة أشهر!

وهنا جرت قصة حرب من أغرب ما يكون:

بدأت إسرائيل بالهجوم الساعة الخامسة عصر يوم **٢٩** أكتوبر **١٩٥٦** ووصل الخبر إلى عبد الناصر عن طريق وكالات الأنباء فقد حملت إليه برقية من وكالة يونايتد برس، وكان ساعتها في احتفال عيد ميلاد ابنه عبد الحميد ومعه عبد الحكيم عامر، فهرعوا إلى مكتب عبد الناصر، ومن هناك حاول عامر الاتصال بالقيادة العسكرية في كوبري القبة والتي أفادت أنها لم تتلق شيئا من سيناء!! وتخيل إلى أي مدى يصل انهيار دولة يعرف فيها الإعلام الخبر قبل رئيس الدولة التي يجري احتلال أراضيها!!

صدرت أوامر عبد الحكيم عامر بتحرك القوات إلى سيناء مساء يوم ٢٩ أكتوبر، وينقل عبد اللطيف البغدادي (صباح ٣٠ أكتوبر) أن عبد الحكيم عامر كان يدير المعركة بعصبية واضحة ويدفع بالمزيد من القوات دون حاجة واضحة رغبة في تحقيق نصر سريع، إلا أن عبد الناصر أمر بسحب القوات من سيناء إلى ما خلف قناة السويس على الضفة الغربية، وهو ما يعني إخلاء سيناء تماما للإسرائيليين رغم أن النظرة البسيطة تقول: إن الدفاع عن القناة لا يستلزم إخلاء سيناء؛ لأنه من الممكن أن يكون الدفاع عنها من الضفة الشرقية والغربية معا، هذا بالإضافة إلى الآثار السلبية للانسحاب على معنويات الجنود. المصيبة الأخطر أن هذا الانسحاب تم بلا أي ترتيب ولا خطة، بل وبنص عبارة هيكل «كل رجل على مسؤوليته» .. أي أنه قرار تدمير حقيقي للجيش المصري، الذي انساح هائما مشرذما مشتتا ليكون صيدا سهلا للطيران الإسرائيلي قتلا وأسرا.

لم يصل نبأ الانسحاب إلى كل الوحدات، أو وصل لبعضهم وامتنعوا عن تنفيذه، وهذه القوات التي ظلت تحارب استطاعت إيقاف التقدم الإسرائيلي على أكثر من جهة، وروى ديان في

مذكراته مقاومة شرسة كادت تودي بحياته هو شخصيا، ولكن ما كان لهذه المقاومة أن تستمر في ظل الظروف المستحيلة من انهيار الجيش والسيطرة الإسرائيلية أرضا وجوا وانعدام المدد.

وإذا عدنا إلى ما قبل يومين، فسنجد أن الإنزال الإسرائيلي وفَّر الذريعة لبريطانيا -ومعها فرنسا- إذ ادعوا بأن هذه الحرب تؤثر على القناة، وأطلقوا إنذار للجانبين بوقف الحرب، وهو بطبيعة الحال إنذار إعلامي قبل مجيء الجيوش، وكانت الخطوة الأولى هي الغارات التي دمرت سلاح الطيران المصري، وأصدر عبد الناصر قراره بمنع سلاح الطيران المصري من الاشتباك مع العدو، وفسَّر هيكل هذا بأن المعركة غير متكافئة.

وهنا يأتي الخلط غير المبرر، فالطيران المصري كان متفوقا على الطيران الإسرائيلي طبقا للتقدير الإنجليزي والإسرائيلي (كما في مذكرات ديان التي أفصحت عن نقاشات خطورة المغامرة الإسرائيلية بالبدء في الحرب وحدها) ولكنه لم يتحرك طوال الفترة التي أعقبت الهجوم الإسرائيلي (بحجة المطارات الخالية من البنزين)، ثم ما إن جاءت بريطانيا حتى صدر الأمر بعدم الاشتباك؛ لأن المعركة غير متكافئة، أي أنهم لم يخوضوا لا المعركة التي

كانت لصالحنا ولا حتى التي كانت علينا، وهنا يبرر هيكل هذا بقوله: إن إنجلترا وفرنسا عدو عابر فيما يجب الاحتفاظ بالطيران للعدو المقيم: إسرائيل. وعلى الناحية الأخرى يجري ذات الخلط بالنسبة للقوات البرية، فيبرر قرار الانسحاب بأنه اتخذ لمواجهة إنجلترا وفرنسا (رغم أنهما العدو العابر) فيما أمر إسرائيل سهل (رغم أنها العدو المقيم) . . وبهذا انسحبت كل الجيش المصري برا وجوا من المعركة، مرة لأجل العدو العابر ومرة لأجل العدو المقيم**!!!** (وضع ما شئت من علامات التعجب، أو علامات الخيانة).

وهكذا دمرت المطارات المصرية وطائراتها في يوم واحد (وظل محمد صدقي قائدا لسلاح الطيران حتى نكبة **١٩٦٧**)، وانسحبت الجيوش، واستسلمت الحاميات العسكرية في بورسعيد بعد ثلاث ساعات فقط، وتم لإسرائيل احتلال سيناء (وهي ضعف مساحة إسرائيل) في **٣٦** ساعة فقط**!**

والمشهد المذهل أن الأمر لم يكن مفاجأة، بل إن نبأ الاستعداد الإسرائيلي وصل إلى مصر قبل عام -بشهادة بغدادي في تقرير المخابرات البريطانية- فيما كان نبأ الاستعدادات البريطانية

الفرنسية مشهورا على كل الصحافة، وقد استطاعت السياسة الأمريكية تأخير الغزو ثلاثة أشهر (من أواخر يوليو إلى أواخر أكتوبر)!

لم يقاوم في هذه الحرب إلا الجنود الذين رفضوا -أو لم يصلهم- أمر الانسحاب، مع مقاومة شعبية باسلة في بورسعيد والسويس، وقد كان من حسن حظ أهل بورسعيد وجود قطار أسلحة استطاعوا نهبه وخاضوا بما استطاعوا حرب شوارع قاسية وباسلة وإن لم تكن مؤثرة أمام الجيوش الكبرى وفي ظروف انهيار الجيش المصري .. أي أن الذين قاوموا -كالعادة- كانوا هم الشعب لا السلطة التي أذلت هذا الشعب وشربت دماءه بحجة حمايته .. بل إن السلطة كانت في موقف فاضح كعادتها.

ففي القاهرة كان يجري مشهد آخر من أغرب ما يمكن تصوره، فالقيادة العسكرية التي تحكم مصر والتي أذلت البلاد والعباد قد تحولت إلى مجموعة من الفئران المذعورة، وقد تضاربت الروايات في مذكرات بعضهم، إلا أن الثابت من مجموعها أن الحيرة والارتباك قد عم المشهد كله، خصوصا حينما وصل خبر كاذب بإنزال مظلي بريطاني في مصر الجديدة، ففكَّر

عبد الناصر أول ما فكَّر في أولاده ونقلهم إلى القناطر الخيرية أو إلى منزل آخر في القاهرة، وفكر صلاح سالم في ترك مبنى القيادة والتوجه لمكان آخر غير معروف، ثم اقترح صلاح سالم أن يتناولوا سما فينتحروا قبل أن يؤخذوا أسرى، ونسب إليه اقتراح آخر بتسليم أنفسهم للسفارة البريطانية!!!

ولعل هذا المشهد هو ما يشرح لماذا سعت أمريكا للحفاظ عليهم في حكم مصر!

فعلى الصعيد الدولي ألقت أمريكا بثقلها لمنع العجائز (بريطانيا وفرنسا) من العودة إلى المشهد، فأعلن أيزنهاور أن أمريكا تقف إلى جوار مصر، واستخدم كل أوراق الضغط السياسي في الأمم المتحدة، فتقدمت أمريكا وروسيا بقرار لمجلس الأمن لوقف الحرب فاستعملت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو، فصوتت أمريكا وروسيا على طلب تحويل الأمر إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة (حيث لا فيتو) وهناك تولت أمريكا دعم المشروع وترتيب الأغلبية له وهو ما كان، وكان نيكسون -نائب الرئيس الأمريكي أيزنهاور- يقود مظاهرة في أمريكا ضد بريطانيا! بالإضافة إلى أن أمريكا منعت تزويد بريطانيا وفرنسا بالنفط مما كانت له آثار

اقتصادية فورية وقوية، وعملت على نزيف الجنيه الإسترليني الذي بدأت قيمته في الانهيار. وكان الأسطول السادس الأمريكي -في البحر المتوسط- قد نفذ تحركات أعاقت سير الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، فيما سماه بعض المؤرخين «تحرشا»! ثم وجه أيزنهاور إنذارا لبريطانيا وفرنسا بوقف إطلاق النار خلال **١٢** ساعة. ثم رفضت أمريكا بقاء القوات البريطانية فيما احتله من السويس وبورسعيد (كي لا تساوم به على أي مكسب) وأصرت على الانسحاب بلا قيد ولا شرط.

ثم أصدر الروس إنذارهم يوم **٥** نوفمبر **١٩٥٦**م، وكان أول بصيص أمل للمصريين، على قلة قيمته، أما القيمة الحقيقية فقد كانت في الإنذار الأمريكي الذي جاء بعده بساعات واستجاب له الإنجليز والفرنسيون وهم صاغرون يوم ٦ نوفمبر، وتحدد يوم **٢٣** ديسمبر لجلاء القوات الإنجليزية والفرنسية عن منطقة القناة، وقد كان. أما إسرائيل فماطلت ولم تجل عن سيناء إلا في فبراير **١٩٥٧**.

- **نتائج الحرب**

أما نحن فقد استفدنا التأميم الذي تحول إلى واقع، وتجنبنا عودة الاحتلال الإنجليزي (وإن كان الحكم العسكري على الحقيقة

أسوأ عشرات المرات من الاحتلال الإنجليزي، وأنزل بمصر من المصائب والنكبات ما لم ينزله بها الاحتلال الإنجليزي)، وإن يكن هذا جرى لظروف وبقدرة خارجة عن إرادتنا.

وأما أمريكا فقد قطعت فعلا ذيل الأسد البريطاني وأثبتت له بالواقع أن أيامه قد ولَّت وأن هذه المنطقة قد صارت ملكا لنا.

وأما إسرائيل فهي صاحب حظ الأسد من هذه الحرب، فقد ثبتت ورسخت وجودها وجعلت إزالتها وهما بعد تدمير الجيش المصري وسلاحه السوفيتي، وامتلكت حرية الملاحة في خليج العقبة، وأثبتت أنها قادرة على احتلال مساحات جديدة من أكبر بلد عربية، وجعلت ما حصلت عليه عام **١٩٤٨** غير قابل للمساومة، ولم تخرج من سيناء إلا وقد جاء البوليس الدولي حارسا لحدودها (وهي قوات دولية تراقب الوضع ولا يمكن سحبها إلا بقرار من الأمم المتحدة، أي أن مصر لو أرادت شن الحرب فسيعرف كل العالم بذلك؛ لأنها مضطرة لتقديم طلب لسحب البوليس الدولي)، مع تعهد بتجميد الأوضاع بينها وبين مصر لعشر سنوات، وقد أثَّر هذا كله على المقاومة في قطاع غزة وعلى قواعد المقاومة وامتداداتها في سيناء، وعاشت إسرائيل

هدوءًا كاملًا على الجبهة المصرية حتى عام ١٩٦٧م. وأفشلت بهذا عمليًّا مشروعًا عربيًّا كان في طور الولادة سنذكره بعد قليل.

ولك أن تتخيل تأثير هذا كله على رأي عام (عربي وإسرائيلي وعالمي) يظن أن إسرائيل لا تطمح لأكثر من الهدوء والقبول بوجودها، في ظل محيط يرى أن إزالتها شيء ميسور يحتاج فقط لإحكام الترتيب والتدبير.

## • على هامش الحرب

قبيل الحرب كانت الحالة العربية في أفضل حالاتها، وقد نتج هذا عن دوافع وطنية عروبية على مستوى الأفراد في بلاط الأنظمة، فمما لا يعرفه كثيرون أنه وحتى وقت قريب كان رجال الأنظمة العربية الحاكمة لا ينتمون فقط لأوطانهم المحلية، بل كانت الأنظمة تضم في وزرائها ورؤساء حكوماتها عربا من كل الأوطان، وقد كانت تنتشر فيهم الولاءات العروبية والإسلامية والوطنية، وكان العقل الجمعي في هذا الوقت يتعامل مع أي قضية وطنية على أنها قضية عربية عامة تهم الجميع.

وقبيل الحرب نشأ تحالف مصري سعودي سوري يمني، وقبل

الحرب بعام كان فيصل بن عبد العزيز يشكل مع جمال عبد الناصر لجنة عسكرية لتحديد الأسلحة المطلوب شرائها فتشتريها السعودية لدعم قواتها في حال نشوب أي حرب بين مصر وإسرائيل تنفيذا للاتفاقية العسكرية المصرية السودانية، بل بلغ الأمر ذروته بتشكيل قيادة عسكرية موحدة لجيوش مصر وسوريا والأردن يرأسها عبد الحكيم عامر. ولذا يتساءل كثير من المؤرخين حول سر قرار عبد الحكيم عامر الذي منع به جيشي سوريا والأردن من التحرك ضد إسرائيل، خصوصا وأن الأوضاع العسكرية والسياسية معا تجعل تدخل هذين الجيشين فرصة لا تقدر بثمن.

فمن الناحية العسكرية لم يكن فارق القوة كبيرا بين إسرائيل ومجموع الدول العربية، كما أن إسرائيل تحاول الاستيلاء على سيناء التي مساحتها ضعف مساحة إسرائيل، ولدى هذه الجيوش -ومن ورائها الشعوب، وحركات المقاومة الشعبية- من الشعور بالثأر لعار ١٩٤٨ ما يؤمل منه أن انفتاح جبهتين على إسرائيل أشبه بانفتاح طوفانيْن من الغضب.

ومن الناحية السياسية فقد كان الأردن مرتبطا بحلف دفاعي مع العراق، وصل إلى وضع فرقة عسكرية عراقية على الحدود

الأردنية للتدخل السريع حال تعرض الأردن لغزو إسرائيلي، وكان البريطانيون الذين يحاولون التمسك بأهداب أي نفوذ في المنطقة قد ارتبطوا مع العراق بحلف دفاعي يحملهم على الدخول معه في المعركة، ويورد ديان في مذكراته أن هذا وضع حرج معقد قد يسفر عن وضع غريب: أن يحاربوا مع بريطانيا في جبهة مصر وأن تضربهم بريطانيا على جبهة الأردن، ولذلك كان الحلم الإسرائيلي والبريطاني (والأمريكي من ورائهم طبعا) ألا تدخل الأردن الحرب، ولكن هذا كان في غاية الصعوبة إذ كانت الحكومة الأردنية والبرلمان -في ذلك الوقت- يتفجرون بالحمية العربية، ويوصمون بأنهم ناصريون وسعوديون، وقد طُرد قبل قليل رجال بريطانيا من الجيش الأردني، ولم يكن ملك الأردن في حال تسمح له بالامتناع عن هذا ولو أراد.

ومن هنا يرجح بعض المؤرخين -ومنهم أستاذنا جلال كشك رَحِمَهُ اللَّهُ- أن الصفقة كانت كالآتي: تطلب أمريكا من مصر منع دخول الجيشين السوري والأردني إلى المعركة، فيما تتكفل هي بسحب إسرائيل من المعركة، وهو ما تمَّ، وما أسفر عن مكاسب هائلة إسرائيلية وخسارة هائلة عربية.

## • إعلام العسكر

بدأت في هذه الحرب الماكينة الإعلامية الشيطانية للعسكر، تلك التي تقلب النكبات انتصارات، فقد عمل إعلام العسكر على الحديث عن طائرات يسقطها المصريون، وعن مظليين يقتلهم المصريون قبل الوصول إلى الأرض، ولم يكن هذا مقتصرًا على مصر فقط بل كانت وزارة الحربية ترسل هذه المنشورات إلى ملاحقها العسكريين في السفارات لتوزيعها على الصحافة الأجنبية!!

وبعد وقف القتال صرح قائد سلاح الطيران صدقي بأن سلاح الطيران المصري لا يزال سليما وأنه مستعد للقضاء على كل من تسول له نفسه العدوان على مصر!!! وقد كان الطيران المصري في الحقيقة قد تحطم! وراح العسكر يوهمون الناس أن المقاومة الشعبية هي التي ردت أساطيل الغزاة على أعقابها، وسُوِّقت الحرب على أنها نصر عظيم مؤزر بل جعلها هيكل (كاهن معبد الاستبداد وأبرز شياطين الإعلام العسكري) «أكمل انتصار في تاريخ العرب الحديث»!!!! وكتب بعد ثلاثين عاما في الأهرام يحث الناس على الاحتفال بذكرى النصر ويأسف لأن البعض

يعتبرها هزيمة!! وإن لم تستح فافعل ما شئت.

يقول أستاذنا جلال كشك رحمه الله: «إنها أشهر عملية تزوير في التاريخ، أن تظل أمة عشر سنوات تجهل أنها هزمت هزيمة فادحة، بل وتظل معتقدة أنها انتصرت، وأن احتلال اليهود لسيناء كان عبقرية عسكرية من جانبنا، إذ أمرنا بالانسحاب البارع والإفلات من طرفي الكماشة!! أو الفخ الذي كان مدبرًا لتدمير الجيش المصري .. وأفسدنا المخطط ونجا الجيش!»[1].



---

(١) النكسة والغزو الفكري (٢٢).

## خطة مقترحة لمسار العلم الشرعي

**بقلم: عمرو عبد العزيز**

أساسيات العلوم والمعرفة الكليَّة الصحيحة به . .

ثم المعرفة العامة بالتقاسيم وملخص عن فحوى كل تقسيم وجزئياته . .

هذا هو المنهج العلمي عالميًا والمعروف لكل من درس في كلية عملية بشكل خاص . .

لا أحد يحفظ المراجع أو يقرأها كلها . . لا أحد يصنع ذلك! في أي قرن نحن وقد اتسعت الطباعة ووسائط التخزين؟

وحامل الدكتوراه ليس مطلوبًا منه أن يعرف كل ما في مراجع تخصصه -فضلًا عن مراجع غير تخصصه!

هذه المقدمة مهمة لفهم أحد أسباب أزمة السلفيين المعاصرين مع العلوم . .

هي أنهم ينظرون للأمر باتساع حجم المعرفة والاطلاع واستظهار المسائل الفقهية وغيرها . .

وهذه كانت طريقة السلف . . وعليها يسير الكثير منهم بلا تفكير طويل في هذه النقطة: فقد كان معيار التفوق في العلوم أثناء العصور المتقدمة هو شيئان: الحفظ بصورة مبالغ فيها- والاطلاع الكبير على كل شيء . .

وهذان المعياران لم يعد معمولًا بهما في الغرب لهذه الدرجة -بل هما فضل لمهارات الباحث الفردية . .

يرى فريدون هويدا، وهو محق في تلك النقطة رغم علمانيته المتطرفة -أن المسلمين بسبب جمودهم في تطوير العلوم ومعاييرها ظلوا على حالهم في تقديس الحفظ كمعيار للعلوم!

ورغم أن د.عبد الوهاب المسيري يرفض هذا وكتب سابقًا أنه في الغرب تعلم أهمية الحفظ . . إلا أن دراسته الأدبية غير العملية ربما تكون قد أثَّرت عليه في تلك النقطة . . وهو رأي خاص بالأستاذ على كل حال . .

الخلاصة: أن الحفظ لم يعد هو المعيار فيما فوق الأساسيات العلمية . . بل يبدأ طالب العلم إدراك كيفية البحث

العلمي في المسائل وتجميع الأقوال والآراء وتنقيحها ودراستها وما إلى ذلك من خطوات البحث العلمي . .

ولا يستنكف واحد من طلبة العلوم أن يستخدم الوسائل الحديثة والتكنولوجية في البحث . . بل هذا أمر منطقي متعارف عليه غير مستنكر . .

أما هنا فالحال معكوس:

فمثلًا أجد البعض يتحرج أن يذكر استخدامه للمكتبة الشاملة في البحث . . أو البحث في الإنترنت! رغم أن هذا صار الواقع العالمي كله -إلا عند أغلب طلبة العلم السلفيين: فهذا دليل عجز وفضيحة وقلة معرفة!

إذن مشكلة السلفيين الكبرى تكمن في تطوير طلب العلم نفسه . . وتقسيمه إلى أساسيات ومراتب أعلى . . والأعلى بلا نهاية محدودة فلا يمدح أحد على تبحره فيها . . إنما المديح على قدر إضافته كباحث علمي لها . . فلا يمدح أي أستاذ غربي في العلوم إن تبحر في ألف موسوعة -ما لم ينتج بحوثًا علمية ينال عليها الدرجات العلمية الماجستير والدكتوراه . .

كما أن المجتمع العلمي السليم يسأل عن الموضوع لا

الذات . . وعن المنهج والأدلة المقدمة -فلا يطلب من الباحث أن يكون قد اطلع على كافة العلوم والمعارف قبل تقديم أطروحاته . . ولست من محبي تقديس المجتمع العلمي عالميًّا -فقد انتقدته قبلًا في كتاب الداروينية المتأسلمة- لكن لابد من الاعتراف أن منهجه عامة هو الأقرب للتطور والصحة -خاصة بعد اتساع العلوم والمعارف لدرجة هائلة . .

لذا فالواجب على طالب العلم المتطور ألا ينجرف إلى فخ السلفيين التقليديين: جعل ملكة الحفظ في المقدمة وتأخير إنتاجه بحجة قلة اطلاعه . . ناهيك عن إلزام نفسه بتزكيات المشايخ -وقد رأينا فيها من المجاملات والأهواء الكثير والكثير . . فضلًا عن أن الدول الطاغوتية المعاصرة صارت تتحكم فيمن يبقى ويكبر ومن يُتخلّص منه بالسجون فيتوقف عن التحصيل وينعزل مجتمعيًّا وعلميًّا عن الناس . . فيبقى من يهوى الصمت ويُنفى من الأرض من يطلب سياسة الدنيا بالدين وإسقاط حكم الطواغيت . . فأي خير في المجتمع العلمي المتبقي على هذه الهيئة؟

فليُقسِّم طالب العلم منهجه إلى مرحلتين -المرحلة الأولى هي الأساسيات والكليات الكبرى وتحتاج إلى دراسة . . ثم ليتخصص

فينتقل إلى مرحلة وسطى -وهي الاطلاع على أساسيات ومشاهير كتب المرحلة الوسطى والمتقدمة من هذا التخصص . . مع تعلُّم البحث العلمي أثناء تلك المرحلة . . ثم المرحلة الأخيرة: الإنتاج والإضافة بالبحث العلمي المنتظم وتدريس الأساسيات لجيل جديد . .

ميزة هذا المنهج أنه يحول طالب العلم إلى مُنتِج خلال عام أو عامين . . بلا إرهاب معرفي ولا استبعاد لمن لا يملك ميزة القدرة على الحفظ . . كما يضع تعريفًا واضحًا للعالِم: فهو الباحث المنتج المجتهد الذي يضيف للعلوم الموجودة . . ويكون الفارق بين الأفراد العلميين هو بقدر متانة بحوثهم وتماسكها وتفردها . . لا بقدر سعة اطلاعهم وتقدير الآخرين لهم بكلمات مولانا وشيخنا وعالمنا!

ما يميز هذا التعريف أكثر: أنه يرفع العبء الذي وضعه السلفيون على كاهلهم -بأن العلماء هم أهل الحل والعقد وهم منارات الأمة والعوام جُهال مغيبون . . فتخفيف هذه النبرة وذلك الفاصل واعتبار العالم هو الباحث المتخصص المتين سيفتح الباب لكثير جدًّا من الناس للإضافة والدخول إلى ذلك المجال . .

متحررين من أعباء ضرورة تدخلهم فيما قد لا يحسنون كالشئون السياسية المتخصصة . .

فأبرز عيوب السلفية المعاصرة أنهم ضيقوا جدًّا في ما قد وسعته الدنيا -من حصر العلوم على الحفاظ وإطالة زمن طلب العلم وعدم الإنتاج . . كل هذا مع نظرة دونية تحتقر الشعوب وتحكم عليهم بالجهل وقلة العقل وضرورة قيادة تلك الشعوب بواسطة تلك القلة التي للأسف: مصنوعة بواسطة الدول التي لم تقمعهم ويدينون لها بذلك -مما يجعلهم كثيرًا ما يداهنون تلك السلطة ليفقدوا مكانتهم التي يطلبونها لزعامة الشعوب، أو يعتزلوا السلطة ويكفوا عنها فيكون الحال كالأول -وفي الحالتين الشعوب التي لا يقودها هؤلاء هي من تظل متهمة ومحتقرة!

كل هذا قد يتم التخلص منه بتعديل مفهوم العالم ومناهج تحصيل العلوم الشرعية . . وفتح الأبواب وعدم غلقها وحصرها . . وتقديم تقييم الموضوع على الذات والطعن الشخصي . . وتقديم الدليل على مكانة مُقدِّم الدليل التي يصعب تحديدها . . كل هذا مع التحرر من أزمة ضرورة قيادة الدهماء الأغبياء وفتح الأبواب واسعة لطلبة العلم في العمل والإنتاج . .

والله سبحانه أعلى وأعلم . .

# المحتويات

**تنسيق: حسام الدين قاسم**

**٠١٠٦٢٤٨٨٨٨٤**